

فِزْ مِلْتِ نِي

بَعْدَ أَلْفِ عَامٍ



رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
السنة النبوية الفردوس

www.moswarat.com

فِي مِلَّةِ نَبِيِّ
بَعْدَ أَلْفِ عَامٍ

فَدَمْتُ نَبِيَّ

بَعْدَ أَلْفِ عَامٍ

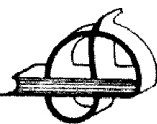
تَأَلَّفَ
إبراهيم العريض

المكتبة المحفظة مسجلة

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع



تلفون وفاكس: ٨٢٤٢٦٥ - ٣١٧٤٢٥ - تلکس: MCS٢٠٧٧٧ - ٢٢٥٩٧ بلاغ.
ص.ب. ٢٥/٢٨٦ - عبيد - بيروت - لبنان.

*What is truth ? said jesting Pilate , and
would not stay for an answer .*

Francis Bacon

قال بيلاطس هازلا : « ما الحق ؟ »
ولم يترّث لسمع الجواب .
فرانسيس بايكون

الاجتماع

إلى أبي الطيّب

« بمناسبة ذكرى مرور ألف عام ميلادي على وفاته »

ربّ البيان ! حملت سيفك والهاً
واكبت « الفأ » ، وهي دائبة على
نعب الغراب على الرؤوس ، بمحفل
أتلاه ، بنكر : كيف شقّ هزبرها
شهدوا وغبت ، فذرهم وهراءهم
أنت الذي بلغت بك الفصحى - وان
وغرست معنى العشق في ابطالها
دورانها ، متجدّداً كهلالها
يرعاه غيبك في حشود رجالها
قلب التوى ، حتى لصيقُ نعالها
في هيكَل للضاد ، عذتُ بفالها !
عاداك أهل النقص - اوجّ كمالها

• • •

يا من رعى بفؤاده من صغره
هل من معان في الحياة جديدة
هيئات ، ما حدثت لغيرك عبرة
همم الملوك ، مطوحاً بهزأها
فتضاف في الفصحى إلى أمثالها ؟
إلاّ وبين يديك صورة حالها

قالوا : الحقيقة مرة ، هلاًّ إذن
حدّثهم حتى عن المجد الذي
لاموك للآيات تتلى بيننا
وبودنا لو كنت شاهد حالهم
إنّ الحياة دم ، ومن لم يشترع

* * *

ذاقوا على شفّتك عذب زلالها
تُبني مآثره على أموالها
عن دولة أحسنت وصف قتالها
فتهزّهم أنفًا لمثل فعالها
بالسيف تُنجعتها ، فليس بخالها

ما بعد منزلة الخلود محلّة
فانعم بها ملء الجفون ، مخلفاً

تسمو اليها النفس في آمالها
« ذكراك » ، تُسهر شاعراً في بالها

ابراهيم العريض

كلمة لا بد منها

حديثي هو عن المتنبي ، أشعر شعرائنا على الإطلاق .
كنتُ . وأنا في زهرة شبابي وتباشير عهدي بالأدب العربي ،
مأخوذاً بعظمة المتنبي في شعره .. وشخصيته ، واذكر اني حرصت
منذ ثلاثين عاماً ان أكتب فصولاً عنه - نُشر بعضها في مجلة
« العروبة » ، وبقي الآخر مخطوطاً - حاولت ان اجعل من اضيائها
مقدمة لدراسته ، ولكن تبين لي - بعدُ - اني كنت في تلك المحاولات
كمن يتخبط في الظلام فيتوكأ على أكتاف الآخرين ، هم مثله لا
يكادون يتبينون حتى معالم الطريق .

وأعرف الآن اني كنت اتخبط في الظلام ، لأن اطلاعي آنذاك لم
يكن يتجاوز عيون شعره إلا الى بعض المختار من هنا وهناك لزمرة من
الشعراء ... معدودين . فما كنت ألم بما كان لا بد لمن يتصدى لمثل
هذا البحث من ان يلم به ، من الاطلاع على وضع الادب العربي
في القرن الرابع الهجري ، وما سبق القرن الرابع من شيات هذا الأدب
وتطوره في العصرين العباسي والأموي وقبلهما ... لثلاثة قرون .
زاخرة بالشواهد حافلة بالتطورات ، وما يتأصل لها كلها من جذور

في الشعر العربي القديم - كفن من الفنون - في العصر الجاهلي الذي بزغ فيه الاسلام بكوكبه الوهاج .

كما ان اطلاعي كان نزرأ بالنسبة إلى الوضع السياسي الذي كان راهناً في البلاد الاسلامية آنذاك ... على سعة أطرافها المترامية ... بله الظروف السياسية التي نجم عنها مثل هذا الوضع عبر الثلاثة قرون الاولى منذ صفتين .

لقد كان أنسي بتلك المحاولة وأنا في غرة العمر وغرور الشباب . ثم تبين لي - بعد لأي - ان هذا الشاعر العظيم إنما حاول موفقاً « ان يجعل شعره جماع ما مرّ باللغة من تجارب قديمة وجديدة كان بعضها في اعتبار أهل عصره شوائب ، وبعضها عندهم حسنات ، تختلف في تقييمها معهم الآن . » (١)

وقد عانني - منذ تبين لي ذلك - ان أوضح لنفسي ، قبل كل أحد ، لماذا نختلف - نحن وهم - في هذا التقييم . فهذا الذي اقتضاني أن أدرس الاصول الفنية التي تركز عليها أذواقهم ، واستعرضها - بعد وزنها في ميزان القيم - على ضوء الاصول الفنية التي أصبحنا نعول عليها اليوم . وكل هذا استلزم - كما ذكرت - الاستنجد بالتاريخ ، والاستعانة بالمعارف ، والاستئناس بالفنون ، والاستظهار بالآداب ، حتى غير العربية منها ، لوضع الأمور في نصابها ، وكشف القناع عن وجه الحق والحقيقة بين طوايا هذه الملفات .

ثم ان المتنبي « فطرته العربية كانت أغلب فكان بالرغم من كل ما آخذه عليه الناس من حق وباطل أصدق صوت عربي أخذ من حضاراتهم السائدة بنصيب بعد ان فطمته روح البادية » ، ولم يتح

١ محاضرة المؤلف في الدورة الرابعة لمؤتمر الدراسات العربية للجامعة الاميركية بيروت عام ١٩٥٤ .

لي استجلاء كل هذا إلا بعد أن خلعت يرد الشباب ، وركنت بي تجارب العمر إلى وقار السنين .

على أن المتنبى ليس بالغمر ، ولا كان أمره مجهولاً طوال هذه القرون ، فقد قتل المحققون محارته بحثاً وتنقيباً ، ودرساً وتمحيصاً ، ونقداً وتحليلاً ، كما لم يتركوا زاوية في شعره إلا اثاروا غبارها لعين الشمس ، ووضعوا محتواها على المشرحة تحت المجهر ، ومع هذا بقيت جوانب من حياته وعبقريته غامضة ، بخل بها الزمان على أقرب الناس لعهدده وما تلا من عهود ، فلم يفض بها إلا همساً إلى آذان افراد ، من وراء ستار صفيق من التدليس والالوهام .

وليس معنى هذا اني انكر ما في كتب الاقدمين من نخبة صالحة ، استوعبت فوحت ، كمثل « الموازنة » و « الايضاح » و « الوساطة » و « اليتيمة » ، « الابانة » و « الصبح المنبي » ، وان فيها جميعاً لمادة غنية للدارسين ، ولكنها في معدنها الترب لا تتعدى كونها مادة خامة لا تعين الباحث إلا بقدر استعدادده لاستخراج الجوهر منها ، بعد الجمع بين قرائنها ، وقياس أشباهها على نظائرها ، والاستدلال باللمح الذي لا يكاد يدوم عندهم - في ومضه - الا ثوان .

وقد استدلّ بمثل هذا اللمح أساتذة قلائل أعدّ منهم عباس محمود العقاد (المطالعات) ومحمود محمد شاكر (المتنبى - عدد المقتطف) وعبد الوهاب عزّام (ذكرى أبي الطيّب بعد الف عام) ومارون عبود (الرؤوس) وعمر فروخ في تحقيقاته التاريخية . أما الكثرة الكاثرة من الباقيين - وكنت في الحداثة منهم - فظلتوا يبدؤون من حيث يعيدون ، سائرين في ركاب من سبقهم من الطلائع ، - شرقية وغربية - حذوك الفدة بالقدّة . فلم يتح لي كلّ هذا - وعلى ضوء ما حققه الأساتذة المذكورون -

إلا منذ عهد قريب . وها أنا أعود من جديد إلى الموضوع « الشائق » ،
الشائك » الذي شغل ذهني وقلبي وقلمي أيام كنت غراً ، ولكن على
هدى وبصيرة هذه المرة ، وكلّي إيمان ان يجد قراء العربية في هذه
الفصول « مقدّمة » لدراسة المتنبي ، ما كان أحوجه اليها وأجدره بها
منذ القديم ، وما أسعدني وأدعاني إلى الفخر والاعتزاز بوضعها الآن ...
بعد ألف عام .

وما توفيتي إلا بالله ، عليه توكلت ، واليه أنيب .

يوم الجمعة ٢٧ يوليو ١٩٦٢

ابراهيم العريض

البحرين

المتنبى بين شراحه وناقديه

هذا ديوان المتنبى بين يدي .

حقاً ان صاحبنا لربّ المعاني . ولكن يخيّل لي كلما قلبت النظر وراءه - في هذه الشروح الكثيرة التي تزخر بها المكتبة العربية للديوان ان الشراح هؤلاء - قديماً وحديثاً - جنوا على عبقرية العربية جنائياً لا تغتفر من حيث لا يشعرون . فقد ظلّ وكدهم - خلفاً عن سلف - ان يبيّنوا للناس ماذا يحاول الشاعر ان يقول ، أي أن يكشفوا بالجهد الجهد مادة الشعر الحامّة في معانيه . ولا مشاحة ان المتنبى - كغيره من شعرائنا - يشارك في ظاهرة حمل التراث هذا عن الاسلاف ، فهو يغرف منهم بدواً وحضراً تحت راية الضاد هذه المادة الحامّة ، سواء أكان ذلك من ناحية مفردات اللغة ، أم مذاهب القول ، أم تقاليد البيئة ، أم قضايا التاريخ ، أم حتى سنن التطوّر نفسها في كل هذه الامور . بينما الذي كان يجب على هؤلاء الشراح أن يتمحلوا له قصارى جهدهم هو أن يتبيّنوا لأنفسهم كيف خلص هذا الشاعر ،

بحكم عروبه الأصيله ، من وراء هذا التراث الخام من المعاني إلى
الافضاء بدخيلة نفسه ... في كل شعره ، ثم مدى توفيقه في هذا الافضاء
بها كاملة غير منقوصة . وإلى اسماع من ترى ؟ لا إلى الناس كلهم
ولنا إلى « أمة » من الناس . ففي ذلك - لا غير - سرّ عبقرية كلها ...

فهذا ما كان ينبغي أن يتبينه الشراح في ديوانه ، لا مجرد حل
أبياته في كلام مبتذل ، ينثرونها به نثرأ ، ويسردون مادة
معانيه - في غير ألفاظه - مسلوقة الروح سرداً محرّفاً عن قصده .
أما أنا فأصبحت أوّمن ان معجزة المتنبي البيانية ليست هي في
« ماذا » قال ، فهذا - كما رأيت - لا يتجاوز مادة شعره الخامة ،
ولنا هي في « كيف » أفضى بما أراد . فهذه الكيفية - أو الطريقة
أو أسلوب البيان - هي هي « روحه » من وراء تلك المادة ، التي
جعلتها تلتهب في الادب العربي كشواظ من نار . تأمل كيف يشر إلى
هذه « الطريقة » في بعض شعره الذي مدح به ابن العميد ، ولكنه في
الحق ما كان يعني إلا نفسه :

أنت الوحيد ، إذا ارتكبت طريقة ومن الرديفُ وقد ركبت غضنفرا
قطف الرجال القول وقت نباته وقطفت أنت القول لما نوراً (١)

١ واليك على سبيل المثال ما جاء في « شرح » البرقوقى (وهو آخر الشراح) حول البيتين من تطيب
بلا طائل :

الغضنفر الاسد ، والرديف الراكب خلفك ، وارتكبت طريقة ، يروى ركبت طريقة . يقول :
أنت فرد الطريقة في كل أمر تحاوله لا يقدر أحد ان يحذو حذوك في طرائفك لصعوبتها وامتناعها
كراكب الاسد لا يقدر احد أن يكون رديفاً له . قال الواحدي : وعلى هذا المعنى
يكون الغضنفر مركوباً ويجوز أن يكون حالاً للمدح أي لا يقدر أحد ان يكون رديفاً
لك لأنك غضنفر .

يقول : ان أقوال الناس كالشجرة تقطف قبل ينمها وادراكها فهي خداج ليست بحلوة ولا غناء
فيها أما أنت فقوئك كالنبات إذا نور - أزهى - وبلغ اناه فهو حلو معسول قد بلغ الغاية في
الحسن والكمال .

فمعاني أبي الطيب هذه من حيث هي ، أي إذا جرّدناها من
نصوصها ، عادت لا روحاً ولا جسداً . فأبي أهمية آنئذ تبقى لها ؟
إنها بدون ذلك النظم « العجيب » (والكلمة للجاحظ) الذي لا بست به
على فمه ألفاظها إلى أبد الآبدين لا يمكن لها أن تحمل أية دلالة على
نبض قلب عاش في كنف سيف الدولة عاشقاً مدحاً ، بله تحفز نفس
تخبّ في وجه أيامها ناقمة نائرة لا يستقر بها مكان .. وإنما تتأني
للمعاني — سواء أعند المتنبّي أو عند سواه — مثل هذه الدلالة أبداً في
« منطق » الشاعر نفسه ... كلاً حسب صياغته . لأنها بفضل هذا المنطق
تصبح « تعبيراً » عن هذا الاحتفال القائم في كل مكان ... احتفال
الحلائق (الذين لا يكون الشاعر إلا أحدهم) بالحياة ، جيلاً بعد
جيل ، وإن هي لم تتجاوز ذلك عندهم — مثله — وتتغلغل وراءه لتسمي
« تفسيراً » لاحتفال من نوع آخر ، أكبر من الأول وأعم ، هو
احتفال الحياة نفسها بهذه الحلائق من البشر والهوام ، على مدى الاجيال .
فهذا — فيما أعتقد — هو الذي قام عليه مدماك المتنبّي الفني وصرح
بجده ، لا تلك المعاني المجردة من نصوصها . فالمعاني الشعرية — كما
قلت مرة — لا تأتي من الخارج ، وإنما هي في النفس ، وتبرها
الالفاظ من النفس — من جديد — بحكم تداعيها . فالمهم هنا هو « الجوّ »
الذي يسبغه المعنى على مراد الشاعر ، لا المعنى نفسه . (١)

١ راجع كتاب « جولة في الشعر العربي المعاصر » للمؤلف . ويظهر الفرق واضحاً بين « معنى
الشاعر » و « مراد الشاعر » في البيت :

أبا المسك ! هل في الكأس فضل إناله فاني اغني منذ حين وتشرب

الذي أنشده المتنبّي بين يدي كافور . فلو كان هناك حقيقة كأس وغناه وشرب نكان قوله تصويراً
لواقع الحال . ولكن الشاعر لم يكن معنى هذه الصورة لذاتها : وإنما اتخذها مجازاً ، ليستقصي
التشيل ، تمثيل حاله مع كافور وما كان يريد منه . فقيمة أنيت اذن هي في هذا الجوالودي الذي
اسبغه البيت حل ما غاب من مراد الشاعر ... لا في معناه .

وهذه بعض « طريقة » المتنبّي جرى عليها في كل شعره ... إل مراده ، « الاستقصاء الفني في
التشيل » كما سنوضح ذلك بعد في شرح طريقته .

والحديث عن مراد الشاعر تد يطول ولا أود ان أختصر اليه من هنا الطريق . وإنما الذي لا بد من تقريره هنا هو ان وراء معاني ابي الطيب التي يتلاطم بها ديوانه - ولا تلاطم المحيط - يتجلى شيء أكبر من هذه المعاني ، تلك هي قدرته الخلاقة على أن يفسر احتفال الحياة بنا - هذه الحياة التي يشترك فيها الاحياء جميعاً - وذلك للعرب وحدهم ، وكأنه صاحب « رسالة » منهم واليهم ، تفسيره القومي الصحيح ، (١) لا مجرد التعبير عن حياته الخاصة أو حياتهم العامة تعبيراً فنياً - وهو الاحتفال بالمعنى الاول - كما يفعل الشعراء الآخرون .

ولنا عودة إلى هذه النقطة الحساسة بعد .

فهذا ما كان من أمر المتنبي مع شارحي ديوانه

• • •

وإذا كان هؤلاء الشراح - كما رأيت - قد أساءوا إلى المتنبي من حيث أرادوا اليه الاحسان ، فان ناقديه - بقضتهم وقضيضهم - هم الذين ظلوا يحسنون اليه - وراء قصدهم - وهم إنما يريدون به السوء والمهانة . ولقد كان شأن المتنبي مع ناقديه هؤلاء من جهات عديدة ، لا جهة واحدة ، على خلاف شأنه مع شارحيه . إذ ظلت كل فئة منهم - على تطاول العصور - تؤاخذ به بأشياء لعلها لم تكن كذلك في عين سواها ، أو تحاكمه على أشياء طالما بدا لها عند غيرها ما يكفي من البررات . فكانت تتعاقب هذه الفئات - وما أكثرهم لو ذهبت في تعدادهم منذ عصر الشاعر إلى اليوم - ويختلف ربح

١ تأمل مثلاً آيته في عبوة الزمان :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا

إلى آخر العشرة الايات ، فهو إنما ينظر فيها إلى الموضوع من الزاوية العربية . ولعلك الآن تستطيع أن تستنتج شيئاً وراء غزرات معاصريه حول «تعاظمه» وما زعموه من ادعائه «النبوّة».

أصحابها بينهم باختلاف النوازع والاهواء والمذاهب والعصور .
أما وجه المواخذة عليه فقد اقتصر شأنه عند أوائلهم على ناحية
اللغة .

(أ) في مفرداتها . في مثل قوله : أحاد ام سداس في احاد .
وقوله :

شديد البعد من شرب الشمول ترفح الهند أو طلع النخيل
وقوله :

جفخت، وهم لا ينفخون بها . بهم شيم على الحسب الأغر دلائل
(ب) أو في ضرائر النحو في مثل قوله :

بيضاء يمنعها تكلم دلها تيهاً ، ويمنعها الحياء تيمسا
فنصب بلا ناصب . وقوله :

حملت اليه من ثنائي حديقة سقاها الحجا سقي الرياض السحاب
ففرق بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول . وقوله :
وتكرمت ركباتها عن مبرك تقعان فيه وليس مسكاً اذفرا
فشئى الفعل لاسم جمع .

(ج) أو في تعسف الاعراب في مثل قوله :

وفاؤكما كالربع — اشجاه طاسمه — بان تسعدا ، والدمع أشفاه ساجمه
وقوله :

الطيب، أنت (إذا أصابك) طيبه والماء، أنت (إذا اغتسلت) الغاسل

وقوله :

فتبيت تسند ، مستدأ في نيتها — اسأدها في المهمة — الانضاء
فقدّم وأختر في الكلام .

(د) أو في الومع بالغريب في مثل قوله :

هذي ! برزت لنا فهجت رسيسا ثم انثيت ، وما شفيت نسيسا
وقوله :

لساحيه على الاجداث حفش كأيدي الخليل أبصرت المخالي
وقوله :

وما أرضى لمقلته بعلم إذا انتبهت ، توهّمه ابتشاكاً
فاستعمل كلمات غير حضرية .

وقد كفانا « الشارح » (كما سماه المتنبي) ابو الفتح ابن جني مؤونة
الرد على هؤلاء ، قال :

« وان كان في بعض ألفاظه تعسف عن القصد في صناعة
الاعراب ، من التمسك بأهداب شاذ ، أو حمل على نادر ،
فعن غير جهل كان منه ولا قصور عن الوجه الأعرف به .
ومن هنا تشبّث قوم لا دربة لهم بعلم العربية بأشياء من
ظاهر لفظه ، إذ لم يكن لهم خبرة بدخلة أمره . »

قال الأستاذ عبد الوهاب عزام معقّباً :

« ولا ننسى ان الشاعر كان كوفياً يميل إلى آراء الكوفيتين .
وكثير مما أنكر عليه له مساغ عندهم . ومن قرأ املاء على
الابيات الشاذة من شعره ، ورأى كيف يحتج لها ويسوق

الشاهد بعد الشاهد ، عرف ان الرجل لم يوث من جهل
باللغة ، بل من سعة علم بها . «

• • •

وألحق آخرون بالمآخذ اللغوية بعض ما تنطع فيه من الكلام .

(أ) كتكرار اللفظ في مثل قوله :

ومن جاهل بي ، وهو يجهل جهله ويجهل علمي انه بي جاهل
وقوله :

إنما الناس حيث أنت ، وما الناس بناس ، في موضع منك خال
وقوله :

ملولة ما يدوم .. ليس لها ، من ملل دائم بها ، ملل

(ب) او كاستكثاره من قول ذا في مثل قوله :

اريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
وقوله :

أبا المسك ! ذا الوجه الذي كنت تائقاً اليه ، وذا الوقت الذي كنت راجياً
وقوله :

يضاحك في ذا العبد كل حبيبه حذائي ، وأبكي من أحبّ وأندب

(ج) أو كتبذله في مثل قوله :

أغرّكم طول الجيوش وعرضها ؟ عليّ شروب للجيوش أكل

وقوله :

وان ماريتني فاركب حصانا ومثله ، نخرّ له صريعا

وقوله :

اني على شغفي بما في خمرها لأعفّ عما في سراييلاتها
كما نظروا إلى آداب السلوك فاتهموه أيضاً .

(د) بقلّة الذوق في مثل قوله :

فغدا اسيراً قد بللت ثيابه بدم ، وبلّ ببوله الافخاذا

وقوله :

خف الله ، واستر ذا الجمال بيرقع فان لحت ، حاضت في الحدود والعواتق

وقوله :

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله ، بحر ايا

(هـ) وبالجمل بآداب المخاطبة في مثل قوله :

أغار من الزجاجة وهي تجري على شفة الامير ابي الحسين

وقوله :

ومن ركب الثور بعد الجواد انكر اظلافه والغيب

وقوله :

وهل سمعت سلاما لي المّ بها؟ فقد أطلت ، وما سلّمت من كذب

ولأنما مرجع كل هذا - لو تدبّرنا أمره - إلى عنجهيّة فنية واثرة
نشأته البدوية ، التي جعلت منه - بين ما يتجمل به أهل الحضرة من

آداب السلوك - رجلاً غريب الاطوار ... في صراحته البالغة ودقة ملاحظته .

• •

وقامت وراء هؤلاء فئة ثالثة من حاسديه ناقشوه في أصول معانيه .
محاولين بذلك أن يمسكوا عليه أنفاس كل قول . كالذي يروى من انه
لما أنشد بين يدي سيف الدولة ميميته :

واحرّ قلباه ممن قلبه شيم ومن يجسمي وحالي عنده سقم
ول هذه القصيدة قصة - وراءها مأساة - ليس هنا موضع تفصيلها الآن .
فوصل في انشاده إلى قوله :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام، وأنت الخصم والحكم

قال ابو فراس : مسخت قول دعبل وادعيته ، وهو :

ولست ارجو انتصافاً منك، ماذرفت عيني دموعاً . وأنت الخصم والحكم

فقال المتنبي :

اعيدها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فعلم ابو فراس انه يعنيه . فقال : ومن أنت يا دعي كندة ، حتى
تأخذ اعراض الامير في مجلسه ؟

واستمر المتنبي في انشاده ولم يرد عليه إلى أن قال :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدمُ
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ

فزاد ذلك أبا فراس غيظاً . وقال : قد سرقت هذا من عمرو بن
عروة، بن العبد في قوله :

أوضحت من طرق الآداب ما اشتكلت
دهراً ، وأظهرت أغراباً وابداعاً
حتى فتحت ، باعجاز خُصصت به ،
للعمي والصمّ ابصاراً واسماعاً
ولما وصل إلى قوله :

الحيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
قال أبو فراس : وماذا أبقيت للأمير ، إذا وصفت نفسك بالشجاعة
والفصاحة والرياسة والسباحة ؟ تمدح نفسك بما سرقت من كلام غيرك ،
وتأخذ جوائز الأمير ؟ أما سرقت هذا من قول الهيثم بن الأسود النخعي
الكوفي المعروف بابن عريان العثماني ؟

انا ابن الفلا والطنن والضرب والسرى
وجرد المذاكي والقنا والقواضب

فقال المتنبي :

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الانوار والظلم

قال ابو فراس : وهذا سرقة من قول معقل العجلي :

إذا لم أميز بين نور وظلمة بعيني ، فالعينان زور وباطل

ومثله قول محمد بن احمد بن ابي مرة المكي :

إذا المرء لم يدرك بعينه ما يرى فما الفرق بين العمي والبصراء ؟

وغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في هذه القصيدة وكثرة دعاويه

فيها ، فضربه بالدواة التي بين يديه . فقال المتنبي في الحال :

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا فما لجرح ، إذا أرضاكم ، ألم

فقال أبو فراس : أخذتَ هذا من قول بشار :
إذا رضىتم بأنْ نُجفى ، وسرّكم قول الوشاة ، فلا شكوى ولا ضجرا
ومثله قول ابن الرومي :

إذا ما الفجائع اكسبني رضاك ، فما الدهر بالفاجع
فلم يلتفت سيف الدولة إلى ما قال أبو فراس ، وأعجبه بيت المتنبي
ورضى عنه في الحال ، وأدناه إليه وقبل رأسه
إلى آخر الرواية . ولنا حول هذه التهم من « السرقات الشعرية »
التي كان يكيلها أدباء تلك العصور بعضهم لبعض جزافاً .. ونكالا ..
بيان يرفع إشكالاتها موعده في هذه الفصول غير بعيد .

° ° °

ووجهت فئة رابعة كان مجالها البلاغة عنايتها إلى ما اعتبرته في شعره
نكوصاً عن الجادة .

(أ) كتعلقه بغموض المتصوّفة (١) في مثل قوله :

إذا ما الكاس ارعشت اليدين صحوت ، فلم تحل بيني وبين
وقوله :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح ، لها منها عليها شواهد
وقوله :

ولكنك الدنيا .. إليّ حبيبة فما عنك لي ، إلا إليك ، ذهاب

(ب) وكافراطه في المبالغة حتى الاحالة في مثل قوله :

١ قتل الحلاج عام ٣٠٩ بعد فتنته الشهيرة ببغداد ، والمتنبي صبي لم يتجاوز السادسة .

ولو قلم أقيت في شقّ رأسه من السقم ، ماغيّرت من خطّ كاتب
وقوله :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم
إذا رأى غير شيء ، ظنّه رجلاً
وقوله :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوّقه شيء عن الدوران
وحتى لو أدّى ذلك عنده إلى التهاون بالعقيدة في مثل قوله :
إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الاسلام
وقوله :

نتقاصر الافهام عن ادراكه مثل الذي الافلاك فيه والدُّنَا
وقوله :

او كان لحّ البحر مثل يمينه ما انشقّ حتى جاز فيه موسى .

ولا نكران ان هذا المذهب في الغلو « عاهة » — نقولها بلا مبالغة —
ابتلي بها الادب العربي . ولكن ليس المسؤول عنه المتنبي إذ كان نيه
عالة على سواه . وإنما يقع إثمها على الشعراء قبله — عباسيين وأمويين —
من اتخذوا الشعر صنعة صرفاً وزجّوه بضاعة للكسب في الاسواق .
ففتحوا بذلك الباب للعبث بالتراث العربي ، إذ دأب الشعراء بعدها
— وصاحبنا في الطليعة — على التلاعب بالمعاني التقليدية ، وتقليبها على
وجوه — مما دعوه « أخيلة شعرية » — امعاناً في الصنعة . حتى آل
بهم الأمر أخيراً إلى تقرير القاعدة المشؤومة : أعذب الشعر أكذبه .
ولا يكاد يقضي المرء عجباً من هذا الصراع الذي كان ينشب في

نفس المتنبي لجريه في هذا الشوط مع معاصريه إلى نهايته ، وهو يعلم انه معهم من عشوته في cul-de-sac لا ينتهي به إلى نافذ . فكان يتناكص عنه في الفينة بعد الفينة جرياً على طبعه الاصيل بين يدي المدوحين . مما أدّى بأهل عصره إلى الانتقاص حتى مما نهج فيه من الاقوال ما توحى به الفطرة في مستهل بعض قصائده ، كمثل قوله :

لا يحزن الله الامير ، فأنني لآخذ من حالاته بنصيب

وقوله :

« اوه » بديل من قولتي « واها » لمن نأت ، والبديل ذكرها

وقوله :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن امانيا

لا لشيء إلا لأنه لم يلتزم هنا - في عوض بضاعته - ما يلتزمون . (١)

ورفعت رايتها فئة خامسة هم الرواة سلطوا ضوءهم على عمود هذا الشعر المشرق فوجدوا فيه شيئاً لم يألفوه فيما سبق من علمهم هو ما سموه نزوح صاحبه إلى طريق الفلسفة ، مع ان عصرهم قد كان عصر علوم وفلسفة ، فرموه بالشذوذ في مثل قوله :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بدّ من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هي من كسبه

١ هذا العرض للبضاعة المصنوعة - وأهل العلم حتى القدامى منهم كانوا يفرقون لهذا بين « المطبوع » و « المصنوع » منها - هو الذي جعل عندهم لبيعها قواعد سلوك التزموها ، من براعة الاستهلاك ، و حسن التخلص ، وبيت القصيد ، والمسك في الحتام . وكلها - لو تأملت - من ملتزمات الصنعة التي اصطلحوا على وضعها بينهم . فأخذها عنهم المنخلفون كقضية مسلمة .

فهذه الارواح من جوّه وهذه الاجسام من تربّه
لو فكّر العاشق في منتهى حسن الذي يسببه لم يسبّه
لم يرقن الشمس في شرقه فشكّت الأنفس في غربه
يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طبّه
وربما زاد على عمره وزاد في الامن على سرّه
وغاية المفرط في سلمه كفاية المفرط في حربّه
فلا قضى حاجته طالب فواده يخفق من رعبه

وهذا أيضاً من ذاك ، فهو ينظر في البيت الاخير نظرتة العربية .
فماذا يقال هؤلاء ؟ ألا يكفي صاحبنا فخراً انه أول من شقّ
لنا في الشعر هذا الطريق .. وقد الفناه بعده ؟ إنه يقف فيه - وحده -
على رأس مدرسة كان من تلامذته فيها ابو العلاء .

• • •

ونجمت أخيراً نابتة - هي بين ظهرانينا اليوم - تتلمذت للغرب ،
شاءت ان تتجاهل أمر كل هذا التطور الزمني الذي شرق المتنبي فيه
وغرب ، فلم تجد ما تنعى عليه في كل ذلك إلا الترفّ والصغار .
لأنه عرض بضاعته في زمانه كما يعرض الناس ؟ وماذا كان يسعه في
عصر كمصره غير ذلك ؟ ثم كيف تقدّر لعبقريّ مثله الخروج على ما
كان - إلى أمس قريب - يعتبر في محافظتنا الادبية التزاماً على الشاعر
لطبيعة فنّه ؟ ومع هذا فهو قد كان أول الخارجين - كما رأينا -
على نوع هذا الالتزام ، إذ لم يقف بتراث هذا الشعر (الذي لولاه
لضلّ - وما هو فعلاً قد ضلّ - في هذه المتاهات سبيله) هادياً على
مفترق طرق سواه .

ويا ليت هؤلاء تلبّسوا روح ذلك العصر لتقييم اثر نوابغه . إذن
لبان لهم ان في هذا المذهب الشعري من تقصيد القصائد في باب المديح

الذي جرى عليه شعراؤنا إبان مجدهم ميداناً واسعاً للتنافس بينهم. شأنهم في ذلك شأن ميخائيل انجلو ورفائيل وغيرهما من فتاني أوروبا في العصور الوسطى ، إذ كانوا - مثلهم - يعلّقون بالقصور في عرض روائع آثارهم الفنية . وإنما أريد أن أقول تلك أمة خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فلو حاولوا تفهّم ذلك على الوجه الذي أراده ذووه إذن لرأوا شاعرنا « بجلّ عن الملام » .

لكن الجاهلية - جاهلية العصر - أبت إلا فتح الباب على مصراعيه ليمرق منه كبار قريش إلى اتهامه بكل شاردة وواردة . فهذا يتهمه بالقرمطية لقوله في بني قومه :

بكل منصلت ما زال منتظري حتى ادلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحلّ دم الحجاج في الحرم

وهذا يتهمه بالشعوبية لقوله في فارسي :

أبا شجاع ، بفارس ، عضد الدولة ، فتأخسرو ، شهنشاها
أساميا لم تزده معرفة وإنما لذّة ذكرناها

وهذا أخيراً يسمّه بجنون العظمة لقوله في نفسه :

أيّ محل ارتقي أي عظيم اتقي
وكلّ ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همّتي كشجرة في مفرقي

والمتنبّي باق موقفه من أكبر هؤلاء أبداً كموقفه من أصغر أولئك ، مصداقاً لقوله :

لساني بنطقي صامت عنه عادل وقلبي بصمّي ضاحك منه هازل
وأتعّب من ناداك من لا تجيبه وأغيط من عاداك من لا تشاكل

ومع هذا فقد بقيت للأولين منهم والآخرين فضيلة يشكرون عليها،
إذ ظلّوا يسدون للغة الضاد في ابنها البكر يداً بيضاء من حيث لا
يعلمون . فان تظافروهم جميعاً من كل حذب وصوب وفي مختلف العصور
والأزمنة على نبش التراب في منجم ديوانه ، وإثارة الغبرة حوله ترك
معدنه الوهاج عارياً للعيان .

وهذا ما كان من أمر المتنبي مع ناقدَي الديوان .

• • •

قال الاستاذ العقاد وهو من الذين خلعوا على الشاعر برد شبابهم
في حديث له منذ أيام :

المتنبي يمثل العبقرية العربية من الناحية العملية .

لقد عاش المتنبي قبل ألف عام (٩١٥ - ٩٦٥) متقللاً في هذه
البقعة المباركة من الأرض بين لبنان وأردنها وفلسطينها وعراقها ،
من بادية الشام جنوباً إلى الأناضول شمالاً ، ومن القاهرة غرباً إلى شيراز
شرقاً . ولم تكن الحضارة في عصره تتمتع بمعجزة العلم في بعض ما نراه
من هذه الوسائل الآلية الميسورة للناس اليوم في كل صقع ومكان . فكان
حاله في تنقله كما وصف نفسه قبيل مغادرته مصر :

واني لنجم تهدي صحبتي به	إذا حال من دون النجوم سحاب
غني عن الاوطان ، لا يستخفني	إلى بلد سافرت عنه ، إياب
وعن ذملان العيس ، ان ساحت به ،	والا ففي اكوارهن عقاب
وأصدي ، فلا أبدي إلى الماء حاجة	وللشمس فوق العملات لعاب
وللسرّ مني موضع لا يناله	نديم ، ولا يفضي إليه شراب
وللخود مني ساعة ، ثم بيننا	فلاة ، إلى غير اللقاء تجاب

يكشف صفحته للشمس ويقطع مفاوزها وحيداً من الخلان .

ولقد رأى المتنبي في هذه البقعة المباركة وجوهاً من الفن حيث سار ،

في الدويلات المتمزقة ، أنكرها قلبه ولسانه ، ربما لا تختلف حالها
عن الحال التي نراها قائمة لهذه الفتن فيها فننكرها مثله في ضمائرنا . ولم
يكتب له ان يرى كل النعم التي أنعم الله بها على البلاد رؤية عصرنا
لها ، وان أدرك بجوارحه طاقات ابنائها العرب ، ولعل أعداءنا يلمّون
بها خيراً منا . ولو شئت تعداد هذه النعم اليوم ، لما تعدّيت ما
قلته أمس ، في الدورة الرابعة لمؤتمر الادباء العرب بالكويت عام
: ١٩٥٨

فنحن لا غيرنا نشرف من هذه البقعة المباركة مما يسمونه
الشرق الاوسط على ممر تاريخي بين الشرق والغرب ولا
كالممرات ، كان بالامس جسراً بين حضارتين قديمتين قبل
بزوغ الاسلام بينهما ، وهو اليوم إن شئنا أو أبينا حلقة
اتصال بين حضارتين كذلك ، هما الحضارة التي يتعلّق
الشرق بأدق معانيها ، والحضارة التي يكدح لها الغرب في
أوسع مجالها ، حلقة لم تزدها هذه الطائرات التي تعمل في
سمواتنا كل ساعة من ليل أو نهار إلّا شدة من أطرافها
وإحكاماً . فهذه واحدة من النعم وما أجلها من نعمة ...
ونحن لا غيرنا نجثم من هذه البقعة المباركة فوق موارد غنية ،
بات لا غنى للعالم عنها في مجال صناعاته وأسلحته ، جعلها
الله تحت أقدامنا . فما علينا إلا ان نخلص لأنفسنا لنجني
منها كل ما نبتغي من الثمرات لصالحنا وصالح سوانا معاً .
فهذه ثانية من النعم وما أعظمها من نعمة ...

ونحن لا غيرنا نطل من هذه البقعة المباركة بين المذاهب
المتصاربة المتنافرة على الطريق السوي . فلا يجوز لنا ان نفرق
في روحانية الشرق التي تتنكر لواجبات الحياة وان اعترفت

بقيهما ، ولا يجوز لنا ان نغطس في مادية الغرب التي تتنكر
لقيم الحياة وان عرفت واجبها . وإنما يحسن بنا بحكم
وضعنا الخاص ، ان نجتمع بين قيم الحياة وواجباتها
قدوة مثلى للآخرين . فتلك ثالثة من النعم وما أظهرها
وأكبرها معاً ...

إن العرب لجديرون بهذه النعم وان خير سبيل للاستفادة منها
هو ان ينعموا عيناً بوحدهم في العروبة التي تفرضها عليهم
أرضهم ولغتهم وتاريخهم ، وان يسعوا إلى تحقيق ما أنيط
بهم من الرسالة ، رسالة الاعتدال التي يستحيل على سواهم
فهمها والاضطلاع بها في عالم انشطر على نفسه .

• • •

ما كان للمتنبى أن يدرك لبعد زمانه كل هذه النعم ، لكنه كان
يوثمن مثلنا بالوحدة في العروبة وهي هي سياجها المتين ، وظلّ يحلم
بها للعرب طيلة حياته . ومن منا لا يوثمن شرواه بوحدة العرب في الرسالة
التي بلغوها في فجر تاريخهم إذ كانوا على أعتاب الجاهلية ... جاهليتهم؟
وانهم لمكلفون بادائها ... إلى اليوم ... وهم عنى أعتاب جاهلية جديدة ..
جاهلية سواهم .

هذا ما عاش له المتنبى قبل ألف عام ومات قتيلًا ، تاركاً لنا
مخططات تلك « الرسالة » في هذا الديوان .

اليفتاح

لِثَرَاثِ الْعَرَبِ الشِّعْرِيِّ

من أغرب المظاهر التي يقف امامها المرء مشدوهاً ، والتي نفرص
« الفنون » بها نفسها على الناس في كل عصر وجيل ، صفة في الفنون
موغلة في القدم ، تبرز جليلة للعيان عند جميع الشعوب من إبّادها
وحاضرها على السواء . هي .
إنّ صاحب الفن لا يستطيع إلا أن يعيش لفنّه ، ولكنه لا يستطيع
ان يستأثر بفنّه .

هو لا يستطيع إلا أن يعيش لفنّه فيكرس كل حياته له مسيراً
لا غيراً ، لأنه لو لم يفعل ذلك . موقداً نفسه طبعاً في « لمجرة »
عوداً بين يدي ربه فنّه لما استطاع ان يتسامى بروحه حتى تنتشر
عبقاً في هيكल الفنون . ولذلك ترى هذا لحرص من الفنان على أن
يجعل صباح كل غد يستقبله ، خيراً من عشية أمس الذي أدبر ، بالنسبة
إلى تدرّجه الفني وتطوره فيما يبدع . ففي اليوم الذي يشعر هو فيه
بالعجز أو الكلال عن ذلك ، أي عن المضي في « المحاولة » مجبراً غير

مختار . فقد انتهى أمره كفنّان ، وينقسم « العقد » بينه وبين من كانت
ترعاه من آلهة الفنون .

ثم هو لا يستطيع ان يستأثر بفنه ، أو يلتزم به لنفسه دون الناس .
وأنّ يستطيع ذلك والاستئثار هنا إنما هو بمثابة الخروج على الالتزام
طبيعة فنّه ؟ لأنّ الفن أصلاً هو « تعبير » ولا شيء سواه ، وما دام
هو كذلك فالناس كلهم يكون لهم — أو يجب ان يكون لهم — نصيب
منه ، لا شراكتهم مع الفنان في الدواعي اليه وإلا كان زائماً لا يصدق
على موطنه ، إذ هو وسيلتهم أيضاً — ان لم يكن « خير » وسائلهم —
إلى أغراضهم التي تقتضيها ظروف هذا الوطن عن طريق التعبير .
فلا بدّ إذن في تاريخ كل فن من وجود ما يسمونه « الجمهور »
(Audience) ... هذا الجانب من المجتمع الذي يقابل جانب الفنان
كفرد فيه . ومن سخرية الاقدار ان يستغل سراً الجمهور (Patrons)
دائماً جهود الفنان بينهم ، في سعيهم الاقطاعي ، لينالوا بالفن — على
حساب الفن — مرامهم ، وسواء بعد ذلك لدى الجمهور وسراته إذا كان
الفنان قد بلغ أو لم يبلغ بفنه مراده منهم . (١)

ولكن هذا لا يهم مطلقاً ما دام الفن قائماً بنفسه ، فمكافأة الفنان
في مجال « القيم » تبقى كامنة في المحاولة الفنية نفسها ، كما ان ثواب

١ لقد صور العباس بن الاحنف ما يهدف اليه كل فنان في حياته وما ينتهي اليه في النهاية أمره ،
وذلك بصورة غير مباشرة ، في بيته الذين ليس بعدهما في تصوير « نذر الفنان » زيادة لمستزيد :

أحرم منكم بما « أقول » ، وقد نا ل به العاشقون ، من عشقوا
صرت كأنني ذبالة نصبت تضيء للناس ، وهي تحترق

فترى هنا مثلاً الاشارة إلى محاولات الفنان للتعبير عما يحس به ، تفصح عنها كلمة « أقول » في
صينة المضارع ، وهي الحالة التي تلازم كل فنان طيله حياته الفنية . ثم هو قد يظفر أو لا يظفر
من « المحاولة » بما يطمح اليه شأنه في ذلك شأن الشاعر هنا الذي كان نصيبه الحرمان . وأخيراً
وراء الموقف كله هذه الجمهرة من « المشاق » — في الحالين — و من الذين يتاح لهم ان ينالوا بفضل
جهوده الفنية مبتغاهم من الحياة دونه .

الفضيلة يبقى مستتراً في الحياة بها بين الناس ، لا فيما تجلبه من المنافع لذويها .

فهذان هما الوجهان لسكّة كل فنّ ، يكون ذهبها غير مغشوش .
صفة في الفنون موغلة في القدم تصدق على الفن الشعري عند العرب
كما تصدق على كلّ ما عند سواهم من الفنون ، فهم وأبناء سائر الأمم
فيها على السواء . فإذا هم اختلفوا بعد ذلك عن غيرهم من الشعوب
في مظاهرها الأخرى ، التي لم تثبت عندهم ، كما لا تثبت عند غيرهم ،
على حال - وان الاختلاف بيننا لكبير - ففي ما أتيح للعرب أصلاً
دون غيرهم وفيما حجّر عليهم خلاف سواهم من « المجال الحيوي »
بآية معيشتهم الخشنة في البادية وضراوتها .

* *

سقنا هذه الكلمة لتعليل ظاهرة فريدة تعمّ الأدب العربي كله وتفيض
من جانبيه (١) ، يقف أمامها من يحاولون درسها من رجال الاستشراق
مذهولين ، ألا وهي ظاهرة « المديح » الذي يشغل بفته معظم الصفحات
في دواوين جميع شعرائنا ، ومن قديم العصور . فلماذا كانت هذه
الظاهرة بالذات التزاماً من الشاعر العربي لطبيعة فنّه ، وظلت
كذلك عندنا إلى عهد جدّ قريب ؟ وأنتى كان منشؤها في
التاريخ ؟

وقبل أن نواصل الحديث نودّ ان نقرّر حقيقة ربما التبس أمرها
عند هؤلاء الناس . فيخطئ من يظنّ منهم ان لاخذ بهذا الالتزام
كان في تلك العصور يحمل أي معنى للزراية بالفنّ الشعري أو هوان
الشعراء ، فقد كان الممدوحون - وهم من الملوك والوزراء والقادة
والوجهاء - يبرزون بصفتهم ، ويتنظرون في المواسم وفود هؤلاء

١ في الادب الاسلامي بفارس والهند كليهما . فان ما ينظم من الشعر في اللغة الفارسية وشقيقتها
الهندية « اردو » هو على غرار الاوزان العربية ، ومذاهب قولها فيه هي مذاهب المتبعة عندنا .

الشعراء عليهم ، ويتهيأون لهم في صدور المحافل لكل مناسبة خاصة أو عامة . لأسباب ذات صلة بما طرأ من التطور على سكان هذه البقعة من العالم بعد الفتح الاسلامي ، فكأنما هم كانوا يدعون الشعراء لهذا المقام بلسان الحال . فمن لم يطرق بابه منهم كان مزريةً عند كل قبيل وتحاشى الناس بساطه بدعوى لؤمه وبخله وذمّوه بكل لسان . وهذا كان أخشى ما يخشاه من له بينهم - حتى من الاعاجم - أدنى وجاهة ، في مجتمع اسلامي دعم كيانه العرب فتغلغلت اليه التقاليد العربية .

ومعنى هذا ان القضية كانت نوعاً من المقايضة لمعنى من معاني « المجد » بين الشعراء ومدحويهم . فلا الشاعر كان بذى غناء عن محافل السراة ، لأنهم الطريق الاوحد إلى مجده ، فبدونهم تضرب عليه عزلة لا يحسّ به فيها انسان فكأنما هو يتنفس منها في قوقعة مغلقة على نفسه ، ولا السراة هم في غنى عن تردد الشاعر عليهم أو توظيفه عندهم ، لأنه كان - في بعض ما كان - بمثابة داعية لهم يرفع لواءهم بين الانام وينشر صحيفة امجادهم في الآفاق . (١)

لندع هذا إلى حينه .

فهذا الالتزام من قبل الشاعر لمذهب المديح - إذن - له عذره . ويرجع في أصول تطوّره على هذه الشاكلة إلى جملة أمور :

منها ان حياة العربي في البداوة كانت « بسيطة جداً » فلم يعرف

١ فلو ان هذا التهافت على المديح كان خالصاً لوجه الكبرياء في المدح أو ذلة في مادحه لما استطاع ان يسقط ابو تمام والبحري في زمانها - كما يروي التاريخ - خمسة شاعر ما منهم إلا مجيد لفنه ، ولا كان من أمر المتنبي ما كان مع شعراء عصره . وإنما الذي كان وراء ذلك هو شيء أكبر بحقيقته ، احتفل له الشعراء بكامل طاقاتهم الفنية ، قدرها لهم المدحون أحسن تقدير وذلك برفع طبقاتهم بين الناس . كما ان عناية المدحيين بأصحاب الشعر الرفيع هذا رفهم بدورهم - في مجتمع عاد يؤمن بالطبقات - عن أمثالهم من ذوي الجاه درجات .

من الحياة إلا لونين . فما لم يكن أبيض فهو أسود عنده ، إذ لم تكن في البادية التي يسرح فيها ظلال « ، (١) مما سدّ على العربي (الذي كان كلّ ما يأوي إليه بيت من صوف أو شعر) منابع الفنون كلّها ، سواء أكان نحتاً أو تصويراً أو موسيقى ، لاستحالة نبعها لديه فوق منسرح تلك الرمال ، وعدم قراره في بيئته الظامئة تلك على حال ، باستثناء نبع غزير واحد هو لغته . فقد وجدت مخيلته فيها وحدها ما يعيض عن كافة هذه المنابع . ومنطلقاً للاحتفال بزرعته الفنيّة . وقد نورّت براعمها على شفتيه في شعره الذي أنشده ملء شذقيه ، ممّا لا تحسنه إلا لغة الضاد .

ثم ان احتفال العربي في وحدته بهذه التزعة الفنيّة نشط أول الامر على مجرد وصف عابر مادّي لما يترك أثراً في نفسه المتطلعة من المناظر والمشاهد التي تقع حوله . كلما دار بنظره في البادية من فوق راحلته ، أو قلب من وراء خيمته طرفه في قبة سماءها ، والا على نجوى نفسه كلما ضاق بوحده فيها . وظهر الحشد الباني لهذه الاوصاف في محاولات هلاميّة جاءت بعدُ لضمّها معاً في سموط ، نرى اثرها عند أصحاب المعلقات من تقصيد القصائد لكن على غير نسق أو نظام ، وابتدائها بذكر الاطلاع وديار الأحبة . فهذا هو الداعي لصنع امرئ القيس :

قفا نبك ، من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدّخول فحومل

أو صنع طرفه :

لخولة اطلال بريقة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ولما جرى عليه الشعراء من العوائد — بعد — في مدائحهم التي صاروا يستهلونها مثلاً بوصف الاطلال .

* * *

١ راجع الفصل الثاني من « الشعر وقضيته في الادب العربي الحديث » للمؤلف .

ومنها ان الشعر عند هذا العربي تبلور في مجتمع البادية كفن « - اول ما تبلور - على غرار الخطابة . فكان يلقي به في المحافل والاسواق - كسوق عكاظ وغيرها - ليؤدي مثلها (أي مثل الخطابة) خدمة اجتماعية . وقد كان هذا لا بد منه بين أقوام نشأوا على الأمية فكل اعتمادهم في تأمين الحياة لأنفسهم لا يتجاوز آصرة نسب بين القبائل وقوة السلاح ، وكل اعتمادهم في صحة قضيتهم لا يتعدى عمل الذاكرة وما تتناقله ألسنتهم من الاخبار . » (١) ويظهر ذلك بأجلى صورة في معلقة عمرو بن كلثوم (وهي اخرى ان تسمى « خطبة العرب ») وقوله فيها :

أبا هند ! فلا تعجل علينا	وأنظرنا نخبرك اليقيناً
بأننا نورد الرايات بيضاً	ونصدرهنّ حمراً قد روينا
ورثنا المجد عن عليا معدّ	نطاعن دونه حتى بينا
كأنّ سيفنا منا ومنهم	مخارق بأيدي لاعبيناً
ألا لا يجهل أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأي مشيئة ، عمرو بن هند ،	تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
فان قاتنا يا عمرو أعييت	على الاعداء قبلك ان تلينا
وقد علم القبائل من معدّ	إذا قب بأبطحها بنينا
بأننا المطعمون إذا قدرنا	وانا المهلكون إذا ابتلينا
وانا المانعون لما اردنا	وانا النازلون بحيث شينا
وانا التاركون إذا سخطنا	وانا الآخذون إذا رضينا
ونشرب ان وردنا الماء صفواً	ويشرب غيرنا كدراً وطنينا
إذا ما الملك سام الناس خسفاً	أبينا ان نقرّ الخسف فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها	ونبطش حين نبطش قادرينا

١ راجع المصدر السابق . وسنعمل في بقية هذا الفصل على المخططات الرئيسية هناك .

ملأنا البرّ حتى ضاق عنا وماء البحر نملأه سفينا
إذا بلغ الفطامَ لنا صبيّ تخرّ له الجابر ساجدينا

فإنها ليست سوى خطبة أمدّها الشاعر العربي بنفسه الطويل . ونرجو
ألا تفوتك دلالة الاندفاع العاطفي من قبل صاحبها وراء كلماته .
فسترى كيف ساء اثره في العصور التالية عندما ولع الشعراء بالتهويل ...
وكيف أصبح - بعد - ضربة لازب في الشعر العربي كله .

وإذ كانت وظيفة الشاعر الاجتماعية آنذاك بحكم هذه الظروف القاسية
لا تتجاوز تمجيد القبيلة ورؤسائها وتسجيل أيامهم بين القبائل ومفاخرهم ،
لأنه لسانهم الناطق ، فإن هذه الوظيفة هي التي كانت تفرض عليه - في
بعض ما تفرض - ان يقوم بعمل السفارة أحياناً عند حلفائهم من القبائل
كلما دعا لذلك داع .

ومن هنا كان أول منبثق المديح بشكله المأثور في الشعر
العربي .

فقد نشأ المديح بمعناه الفني - إذن - أول ما نشأ ، في قصور الملوك
من المناذرة في العراق والغساسنة في الشام في عصر « الاحلاف » ، وذلك
قبيل الاسلام بقليل ، عندما كان يتردد عليهم الشعراء من أمثال النابغة
الذبياني وحسان بن ثابت ويشيدون بفضلهم ومعروفهم على الشاعر وقبيلته
بحكم سفارتهم في بلاطات هؤلاء الملوك . وعلى هذا الاساس يجب ان
يفهم ما قاله هؤلاء فيهم .

تأمل مثلاً قول النابغة في عمرو بن الحارث الغساني :

عليّ لعمرو نعمةٌ ، بعد نعمة لوالده ، ليست بذات عقارب
وثقت له بالنصر ، إذ قيل : قد غزت كئائب من غسان ، غير أشائب !
إذا ما غزوا بالجيش ، حلتى فوقهم عصائب طير ، تهدي بعصائب

إذا ما التقى الجمعان ، أول غالب
بأيديهم بيض ، رقاق المضارب
من الجود ، والاحلام غير عواذب
بهنّ فلول ، من قراع الكتائب
يحيتون بالريحان يوم السباب

جوانح .. قد أيقنّ ان قبيله ،
فهم يتساقون المنيّة بينهم
لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم
ولا عيب فيهم . غير انّ سيوفهم
رقاق النعال ، طيب حجزاتهم

أو قول حسان بن ثابت في جيلة بن الایهم :

يوماً ب «جلق» ، في الزمان الأول
مشي الجمال إلى الجمال البزل
والمشفقون على الضعيف المرمّل
قبر ابن « مارية » الكريم المفضل
« بردى » . يصنّفق بالرحيق السلسل
تدعى ولائدهم لتنف الحنظل
شمّ الانوف ، من الطراز الأوّل
ثم ادركت ، كأنني لم افعل

لله درّ عصابة ! نادمتهم
يمشون في الحلال المضاعف نسجها
والخالطون فقيرهم بغنيّتهم
أولاد « جفنة » حول قبر أبيهم
يسقون من ورد « البريص » عليهم
يسقون درياق الرحيق ، ولم تكن
بيض الوجوه : كريمة أحسابهم ،
فليث أزماناً طوالاً فيهم

لتدرك معنى هذه السفارة بوضوح .

وربما أدى العربي بمدح ثمن معروف اسدي اليه شخصياً ، كما فعل
الاعشى حين مدح المخلّق بقوله :

إلى ضوء نار باليفاع تحرق
وبات على النار الندى « والمخلّق »
بأسحم داج عوض لا نتفرّق
كما زان متن الهندواني رونق
وكفّ ، إذا ما ضنّ بالمال ، تنفق

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
تشبّ لمقرورين يصطليانها
رضيعي لبان ثدي أم تقاسما
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه
يداه بدا صدق ، فكفّ مبيدة

فكان ذبوع أبياتها سبباً لانقاذ المدوح من ازمة عائلية ، إذ كان مشهوراً

عن هذا الشاعر تكسبه بمدائح « الملوك » ، فرفع ذلك من قدر الممدوح .

وكان الاعشى في آخر عمره قد عزم الرحلة إلى « الداعي الهادي » بالحجاز بقصيدة أعدّها في مدحه ، فتعرض له القرشيتون وصرفوه عن عزمه باعطائه مائة من الابل تفادياً لعاقبة الرحلة ، مما يدلّك على ما أصبح للأعشى وأضرابه من منزلة مرموقة بين القوم ، لا تقلّ عن منزلة الصحافة الحزبية في عصرنا الحديث .
يجري هذا كله والاسلام في فجره .

* * *

ومنها انه لما جاء الاسلام بثورته الاجتماعية على الطبقات ، لم يتنكر لهذه العادة التي أصبحت مألوقة في البيئات العربية . فقد تردد الشعراء على النبي عليه السلام يمدحونه فاستمع اليهم وأثابهم .
ولحادث كعب بن زهير دلالة خاصة على ما نحن بصددده . فقد وفد على النبي فأنشده مشوبة في مطلعها غزل :

بانت سعاد ، فقلبي اليوم متبول	متيم اثرها . لم يفد ، مكبول
وما سعاد ، غداة البين ، إذ رحلوا	الأغن . غضيض الطرف . مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم ، إذا ابتسمت	كأنه منهل بالراح معلول

على جاري عادة القوم ، فأسبغ بمقامه هذا بين يدي النبي (الذي ألقى له برده) قدسية على سنة اتبعها الشعراء في المدائح منذ ذلك اليوم .
ويروى ان النابتة الجعدي أنشد بين يدي النبي :

بلغنا السماء ، مجدنا وجدودنا وانا لئرجو فوق ذلك مظهرها

فقال له النبي : . إلى أين يا أبا ليلى ؟

فأخرج الشاعر ، فقال : ... إلى الجنة : يا رسول الله .

فضحك النبي ، وقال له : ان شاء الله .

وقد عميت دلالة هذه الحادثة في حياة النبي على أكثر الرواة .

وهكذا اتسع للمديح صدر الاسلام ، وبقي يتناشده العرب بين أنفسهم ، وملتزمًا به لأنفسهم في السلم والحرب ، وهم الذين ما وعوا الحياة إلا قبائل وشعوباً . « فلما اجتمعت بالاسلام كلمة العرب وقام لهم به كيان كأمة ، ساروا تحت راية القرآن يحملون نوره إلى ما جاور الجزيرة من الآفاق ، ويؤدّون رسالته إلى أم تعيش من طبقاتها في ظلمات . فأمنت كرهاً برسالتهم وهي لا تكاد تفقه سرّ العربية » . (١)

أما الشعراء من بني الجزيرة فلم تبقى أمامهم — بعد ان توطّدت بالاسلام السنن — إلا أن يتخلّوا عن مهمتهم كخطباء في السياسة والحرب . وقد قاموا بها إلى حين على أحسن وجه ، فعادوا بما حذقوه من اسلوب الخطابة إلى المسامرة والحديث في ظل فردية طاغية ، يحاولون ان يشقّوا لهم بها في الشعر مسالك جديدة . فكان منهم من انطوى على نفسه يغني بالحب في نطاق لم ينكره الاسلام . كالعذريين من أمثال جميل بثينة :

أرى كل معشوقين . غيري وغيرها	يلذّان في الدنيا ويغبتطان
وأمشي وتمشي في البلاد كأننا	أسيران للاعداء ، مرتهانان
أصلي . فأبكي في الصلاة لذكرها	لي الويل مما يكتب الملاك ان
ضمنت لما ألا أهم بغيرها	وقد وثقت مني بغير ضمان

وقيس بن الملوح :

أعدّ الليالي . ليلة بعد ليلة وقد عشت دهرًا لا أعدّ الليالي

١ راجع المصدر نفسه .

أراني إذا صليت يمت نحوها بوجهي ، وإن كان المصلّي ورائيا
وما بي اشارك ، ولكن حبها كخلق الشجاعبي الطبيب المداويا
أحب من الاسماء ما وافق اسمها وأشبهه ، أو كان منه مدانيا

وكان منهم من عاد يتخذ الناس سخرى لأنه وجد مجتمعاً جديداً
قائماً بعضه أو كله على نفاق ... وكم تردّد في القرآن صدى كلمة
« المنافقين » ... كالحطيثة مثلاً الذي كان يعالج في نفسه شيئاً ولا يستطيع
الافصاح به إلا تجمجماً :

أبت شفتاي اليوم إلا تكلّما بسوء ، فلا أدري لمن أنا قائله
أرى ليّ وجهاً شوّه الله خلقه فقبح من وجه .. وقبح حامله
ويزعمون انه أنشد البيت الثاني مستقلاً ، عندما أطلّ برأسه في بئر ،
فرأى وجهه فيها .

وكان منهم من استمر في التنازع بالالقباب اظهاراً للشخصية ، بعد ان
ضاعت معالمها في قبيله ، كالثالوث الهجائي الذي شغلت نقائضه حتى
صفوف المحاربين من الخوارج :
لنستمع مثلاً إلى الفرزدق ، ويصدق الرواة ، فلولا شعره لذهب
ثلث العربية :

خالي الذي غصب الملوك نفوسهم وإليه كان حباء جفنة ينقل
أنا لنضرب رأس كل قبيلة وأبوك خلف اتانه يتقمّل
أو الاخطل :

قوم إذا استبح الضيفان كلهم قالوا لأهمهم : بولي على النار
فتمنع البول ، شحاً ان تجود به ولا تجود به إلا بمقدار

أو جرير :

قتل الزبير ، وأنت عاقد حبوة ؟ تبأ لحبوتك التي لم تحلل
وافاك غدرك بالزبير على « منى » ومجرّ جعثنكم بذات الحرم مل
بات الفرزدق يستجير لنفسه وعجان جعثن كالطريق المعمل

وكان منهم من مضى ممعناً في لهوه وعبه يخوض في شؤونها أمام
الناس ، كهؤلاء الغزليين الاباحيين من فتيان قریش . فهذا عمر بن ابي
ربيعة مثلاً ينشد :

« قومي تصدّي له ليصرنا ثم اغمزيه ، يا أخت ، في خفي »
قالت لها : « قد غمزته ، فأبى » ثم اسبطرت ، تمشي على اثري
قالت لها أختها تعاتبها : « لا تفسدن الطواف في عمر ! »

وانه ليتحدث بما حصل له كل يوم أثناء الطواف .

وهذا أبو دهل يتغزل في عاتكة أخت يزيد بن معاوية :

وهي زهراء . مثل لؤلؤة الغواص . ميزت من جوهر مكنون
وإذا ما نسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دون
ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء . تمشي في مرمر مسنون

فلا يستطيع ان يعمل فيه أمير المؤمنين ابوه شيئاً سوى أن يأمره
بالخروج من دمشق .

وقد اطلت في التحدث عن هذه الفترة التي أعقبت ثورة الاسلام ،
لأنها تركت آثاراً باقية لغوايتها فيما تلاها من الشعر العربي في القرنين
التاليين . إذ عاد الشعر على أثرها « مباهاة بالقول وفخراً وحماساً
في غير مجال بعد أن كان سجلاً للعرب حافلاً بجلائل الاعمال » . (١)
أما دولة المديح فقد ظلت قائمة في هذا الدور داخل دواوين

١ راجع المصدر نفسه .

الخلفاء وخارجها على عطايا الامراء والقواد وزعماء الفرق ورؤساء الاحزاب .

وكل حزب بما لديهم فرحون .

* * *

تلك هي الاسباب العريقة التي دفعت بالمديح في هذا المضيق ، كالترام من الشاعر لطبيعة فته ، منذ أيام الجاهلية ، وعلى هذه الشاكلة كان منشؤه في التاريخ العربي . أمّا ما جد بعد ذلك في القرنين التاليين من التطور على طبيعة هذا الفن فاني مبين أسبابه الآن .

وقبل أن أمضي في شرح هذه الاسباب يقتضيني الموضوع ان ألمّ هنا بحقيقة اسفر عنها وجه البيان في النضال العربي عبر التاريخ . فان الشعر الذي تدوول بين الناس في هذه الفتن كان في معظم الحالات — على غرار ما سبق من منابه أيام الجاهلية — يرسل ارتجالاً ، فلم يخل قط من مآخذ فنية تؤخذ عليه .

إنه كان يرسل بلا روية (إذ لم تكن لديهم فسحة للتروي والاختيار) مما كان يوقع صاحبه كثيراً في عثرات بيانية من اقتضاب للمعنى في مثل قول المتلمس الضبعي :

لا تأخذن ضيماً ، وتقبل ضؤولة وموتن بها حرّاً ، وجلدك املس
فما الناس إلا ما رأوا وتحادثوا وما العجز إلا ان يضاموا فيجلسوا
ومن حذر الاوتار ما حزّ انفه

« قصير » ، وخاض الموت بالسيف « بيهس »
« نعمة » لما صرع القوم حوله تبيّن في أثوابه كيف يلبس

فقد أراد أن يقول في بيته الثاني ان الرجل بأعماله الطيبة ، وان الناس لا يتحدثون إلا بما يلمسون من اثر هذه الاعمال في حياة الرجال ، وان الذكر عمر ثان ... كل ذلك في شطر من بيت . ثم أراد أن يتم

كلامه ان الحياة كلها مجازفات مخفوفة بالاخطار ، فمن العجز ان يقبل المرء ضيماً على نفسه طلباً للسلامة ، أو يجلس عن المعالي حباً في السلامة ... وذلك في شطره الآخر . فتأمل كيف التوى عليه القصد ، فأتى بالمعنى مقتضياً لا يكاد يبين .

أو من تطرف في حشر المعنى في مثل قول ضرار بن الخطاب القرشي :

ارى ابني لوئي اوشكا أن يسالها	وقد سلكت أبناؤهم كل مسلك
فيا ابني لوئي : إنما يمنع الحنا	اولو العرض والاحساب والمتمسك
فان انتم لم تشأروا بأخيككم	فدكوا الذي انتم عليه بمدك
ألم يك منا الجار فيكم ، فتغضبوا	لما نيل من عرض ، ومال منهك ؟

فقد أراد ان يقول لابني لوئي في بيته الثالث « ان هذا الذي جمعتماه من النوق لدفع الدية لا يخل المشكلة . فان الشر لا يدفعه إلا الشر ، وليس من العدل الا يأخذ الظالمون بنصيب مما جنوه . فلو كنتم تريدان عيشة السلم لما عكستما صفوه على الآخرين » . فتأمل كيف حشر هذه المعاني حشراً حتى أصبح كلامه رطانة لا تفهم .

أو من عدم ايضاح المعنى لمناسبة ماسة في مثل قول الوليد بن عقبة ابن ابي المعيط :

ألا أبلغ معاوية بن حرب	فانك من اخي ثقة مأم
قطعت الدهر كالسدم المعنى	تهدد في دمشق ولا تريم
فانك والكتاب إلى «علي»	كدابغة وقد حلم الاديم
لك الولايات ، اوردنا عليه	وخير الطالب الترة الغشوم
فلو كنت القتل ، وكان حياً	لشمر ، لا الف ولا سووم

فقد أراد الوليد أن يقول لمعاوية في بيته الاخيرين بعد أن لامه أشد

اللوم على تردّده في غزو العراق حيث استقر الامام ، « لو كان عثمان حياً وكنت أنت القتيل لأسرع إلى أخذ الثأر من الجانين عليك بلا كل هذه المطاولة » . فتأمل كيف انتقل إلى هذا المعنى اعتماداً على فطنة صاحبه ، دون ان يكون في سياق كلامه ما يؤدّي اليه ، مما اشكل معه أمر الضمير في قوله « ولو كان حياً » إلا على الملم بأحداث الاسلام .

أو من الحياد عن المعنى لغير مناسبة في مثل قول ابي خراش :

فوالله ما ربداء، أو علج عانة	وما ان تيس رمل مصمّم
أبتّ حبال في مراد يروده	فأخطأه منها كفاف محزّم
يطر إذا الشعراء حامت بجنبه	كما طار قدح المستضيف الموشم
كأنّ الملاء الحض خلف ذراعه	صراحيّة ، والآخنيّ المخدّم
بأجود مني إذ تكفّت غاديا	وأخطأني خلف الثنية اسهم

فقد أراد أن يصف فراره من الاعداء وكيف أخبّ عدوّاً حتى سلم من السهام . فتأمل كيف حاد عن القصد لغير مناسبة ظاهرة فأخذ في وصف التيس الذي زعم انه اشبهه في العدو . وقد كان يقتضي السياق أن ينتقل من بيته الاول إلى البيت الاخير مباشرة ، حتى يستقيم له وجه الكلام .

أو من التفاتات سمجة في مثل قول النابغة الجعدي :

وكان الخليل إذا رابني	فعاتبته ، ثم لم يعتب
هواي له ، وهوى قلبه	سواي ، وما ذاك بالأصوب
فاني حريّ على هجره	إذا ما القرينة لم تصحب
ادوم على العهد ما دام لي	فان خان خنت ، ولم اكذب

فقد أراد أن يقول انه يدوم على العهد ما دام له صاحبه ، فاذا رابه

ولم يجد معه العتاب تركه غير آسف عليه . فتأمل كيف شدّد الخناق على نفسه بهذه الالتفاتات السمجة التي جرّته اليها القافية ، حتى ذهبت برونق كلامه . وتذكر مدى تقصير هذا الشاعر إذا قارنت بين قوله وما يروى لعبد الرحمن بن حسان في معناه :

وكنّت إذا ما رأيت الصديق يأبى عن الوصل إلا انفتالا
تنكبت عنه ، وألفيت لي منادح أعمل فيها الجمالا

أو من حشو مخيل في مثل قول عمر بن حنبل الطائي :

كبرت فلم اسطع قتالا . وإن ترى أخا شنة يوماً عزيزاً كأوحدا
وإن رجال المرء في يوم ضيمه يردّون عنه كيد من كان أكيدا

فقد أراد أن يقول أن المرء قليل بنفسه كثير باخوانه . فأخذ بمطّط هذا المعنى حتى أفقده ما له من أثر حسن على السامع بهذا الحشو المخلّ الذي لم يزد الكلام إلا ضعفاً .

وحسبنا ما مرّ شاهداً على ما كان يرضى به القوم لأنفسهم من اللفظ السقيم والبناء المعقّد فيما ينظمون .

» . . «

ألّمنا بهذه المآخذ في مداولات القوم والقائهم الكلام على عواهنه ، لنخرج منها إلى تقدير هذا الذي حصل من التطور في طبيعة هذا البيان وخاصة في مذهب المديح الذي هو ركاز موضوعنا . بفضل عنصر جديد مررنا به لما هم « الموالي » الذين التحقوا بالعرب من أشتات هذه الأمم .

فانه « لم يمض القرن الاول حتى كان الموالي قد بدأوا ينازعون العرب جبل كل شيء ... حتى الشعر . فنافسوه في نظمه حسب تقاليد عربية . ولكن تدفعهم عليه دوافع لا عهد للعرب

بها . (١)

يروى عن بشار انه قال : ما زلت منذ طرق سمعي قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير . رطباً ويابساً لدى وكرها . العنّاب والحشف البالي
وأنا أحاول تشبيه شيتين بشيتين : حتى تمّ لي ذلك في قولي :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيفنا . ليسلّ هواى كواكبه
ولا تنس ان بشار كان أعمى .

وأيضاً دخل عليه أحد الأدباء وهو نائم في دهليزه كأنه جاموس ،
فقال له : يا أبا معاذ من القائل :

ان في برديّ جسماً ناحلاً لو توكتّ عليه لانهدم
قال : أنا . قال : من القائل أيضاً :

في حلّتي جسم فتى ناحل لو هبّت الريح به طاحا
قال : أنا . قال : فما حملك على هذا الكذب ؟ والله اني لأرى ان
لو بعث الله الرياح الي أهلك بها الامم الحالية ما حرّكتك من موضعك !
فهذا يقيناً ما كان يقع للشاعر العربي في جاهليّته .

فهم تارة يحاولون صياغة معاني العرب القديمة في قوالب فنية جديدة
اظهاراً لقبضهم على ناصية اللغة ، واستقطاراً لآمكانياتها ، وتنكيلاً
بالعرب البداءة .

يسمعون مثلاً قول الشماخ في راحلته :

إليك بعثت راحاتي ، تشكّسى كلوماً بعد محفدها السمين

١ راجع المصدر نفسه .

إذا بلغتني وحملت رحلي « عرابة » ، فاشرفي بدم الوتين
فيقول ابو نواس :

فلم اجعلك للغربان نحلا ولم أقل : اشرفي بدم الوتين
ويكررها في موضع آخر :

وإذا المطي بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطأ الثرى فلها علينا حرمة وذمام
ويسمعون قول حميد بن ثور يصف الذئب :

إذا ما غدا يوماً ، رأيت غمامة من الطير ، ينظرن الذي هو صانع
فيقول مسلم بن الوليد :

وعود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل
ويسمعون قول منصور النمري في ولي العهد :

رأيت المصطفى هارون يعطي عطاء ليس ينتظر السؤال
فيقول أبو العتاهية :

وإنّا إذا ما تركنا السؤال فلم نبغ نائله ، يتدينا
وان نحن لم نبغ معروفه فمعروفه أبداً يتغينا
ويسمعون قول الأعشى في الحمرة :

ترك القذى من دونها ، وهي دونه ، إذا ذاقها من ذاقها يتمطق
فيقول علي بن جبلة :

كأن يد النديم تدبر منها شعاعاً ، لا يحيط عليه كاس

ويسمعون قول حاتم الطائي في نفسه :

إذا كان بعض المال ربّاً لأهله فاني ، بحمد الله ، مالي معبّد
فيقول ابو نواس :

أنت للمال إذا أمسكته وإذا أنفقته فالمال لك

ويسمعون قول الخنساء في أخيها صخر :

وما بلغ المهدون نحوك مدحة وان اطنبوا ، الا وما فيك أفضل
فيقول ابو نواس :

إذا نحن أثينا عليك بصالح فأنت كما نثني ، وفوق الذي نثني
ويسمعون قول ابي جويرية في سليمي :

تزين الحلي ان لبست سليمي وتحسن ، حين تلبسها ، الثياب
فيقول بعضهم غير جاد :

وإذا الدّر زان حسن وجوه كان للدّر حسن وجهك زيننا
وتزيدن أطيب الطيب طيباً ان تمسيه ، أين مثلك ايننا !

ويسمعون قول النمري في الشباب :

وإذا توسّل بالشباب أخو الهوى ألفاه نعم وسيلة المتوسّل
فيقول ابو نواس :

كان المشفع في مآربه عند الفتاة ، ومدرك القبل

والشواهد على ذلك لا تحصى . وابو نواس هذا هو الذي قال ... بلسان
حالمهم جميعاً :

عاج الشقي على رسم يسائله وعجتُ أسأل عن خسارة البلد .
وهم طوراً يوغلون في استفسار أخيلة ملوثة ، اقتبسوا ظلالها من
آداب الفرس - في أكثر ما فعلوه - كان ينفر منها الذوق العربي
أحياناً ، لأن الفطرة التي فطر الله العرب عليها وطبيعة لغتهم في سماتها
الواضحة تأبأها كقول أبي نواس في جنان :

يا قمرأ أبصرت في مأتم يندب شجواً ، وسط اتراب
يبكي ، فيذري الدّر من نرجس ويلطسم الورد بعنّاب
وقوله في ثانية :

ألا يا قمر الدار	ويا مسكة عطار
ويا نفحة نسرين	ويا وردة أسحار
ويا جدول بستان	على شاطئ أنهار
ويا كعبين من عاج	ويا غرة دينار
ويا « نردأ » لفتيان	ويا « لعبة » ابكار
ويا مسواك جمّاش	ويا طنبور شطّار

ولا نريد أن نستقصي .

وهم يسرفون بعد في التلاعب بقيم الالفاظ واطهار محسناتها ، كهذا
الذي يرشح على الورد عطره ليجعله فوق الورد .

كقول أبي نواس :

بصحن خدّ لم يغض ماؤه ولم تخضه أعين الناس
أو قوله :

مباحة ساحة القلوب له يرتع فيها أطايب الثمر

أو قوله :

وإذا بدا اقتادت محاسنه قسراً اليه أعتة الحدق

أو قوله :

فنى لا تلوك الحمر شحمة ماله ولكن أباد ، عود وبواد
وفي شعر هذا الشاعر كفاية عن سواه .

وقد اتخذوا في كل هذا مقياس الحسن وحدة البيت ، لا القصيد ،
« أخذوا بها أنفسهم قسراً ، وفرضوه على الشعر العربي بعدهم
فرضاً » . (١)

فهذا الذي أحال المديح منذ ذلك اليوم إلى نوع من المقايضة بمعنى
« المجد العربي » بين الشعراء والممدوحين . حتى قال فيه أبو تمام :

لو يفاجي ركن المديح « كثيراً » (٢) بمعانيه ، خالناً نسيباً
طاب فيه المديح - والتذ - حتى فاق وصف الديار والتشبيهاً

« كل هذه تجارب كانت تمر خلال العصور بالعرب ولغتهم كالأمواج
التي تغشى الشاطئ بهديرها من مدّ إلى مدّ . وتنحسر - بعد لأي -
الأمواج ، ولسان حال البادية يسأل دائماً : هل استحدث العرب جديداً ؟
حتى كان هذا الجديد - بعد - في هذه الاخوانيات التي ابتدعها العصر
العباسي الاول ، وفي شعر ابي تمام الذي لفتح الشعر بالثقافة الجديدة ،
والبحتري الذي لحن الشعر بالموسيقى ، واين الرومي الذي جوّد الشعر
بفنّ التصوير . »

١ راجع المصدر نفسه .

٢ يعني كثير الشاعر .

فلا غرو ان يختلف الشعراء هؤلاء - بعد هذا النضج - في الاداء الفني الذي به تبين طريقة عن طريقة ، وكيف يجب أن يكون ؟ فنفترقوا إلى مدرستين :

رأى الأولون الذين انتهت إمامتهم إلى أبي تمام ، المثل الاعلى ان يُبتدع للشعر اداء خاص به ، يكون أعظم مميزات « البلورة » و « التركيز » ، وقياس الحسن هو البيت « الفرد » ، لعدم ارتباط اللاحق منه بسابقه إلا معنوياً . والعلاقة الخفية بين معاني القصيدة لا تحتم عندهم ربط العبارة بين قوالب أبياتها أو التأليف النحوي بين أجزائها ، وإنما تتعاقب المعاني في شعرهم كلمحات البرق لا صلة بين وميضه الاول والآخر إلا ما يصدع الدجى من نور ، في أفق من الخيال واسع يخلق فيه ذهن الشاعر المهيمن مطلق الجناح ، أو يرتد الطرف خاسئاً وهو حسير .

فمن هذا النوع مثلاً قول ابي تمام يرثي ابا نصر الطائي :

أصمّ بك الناعي ، وان كان أسمعا	وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا
للحد « أبي نصر » تحية مزنة	إذا هي حيت ممعراً ، عاد ممرعا
فلم أر يوماً ، كان أشبه ساعة	بيوم ، من اليوم الذي فيه ودّعا
مصيف .. أفاض الحزن فيه جدا ولا	من الدمع ، حتى خلته صار مربعا
ووالله لا تقضي العيون الذي له	عليها ، ولو صارت مع الدمع أدمعا
فتى كان شرباً للعفاة ومرتعا	فأصبح للهنديّة البيض مرتعا
فتى كلما ارتاد الشجاع من الردى	مفرّاً ، غداة المأزق ، ارتاد مصرعا
إذا ساء يوم في الكريهة منظرا	تصلاّه ، علماً ان سيحسن مصنعا
فان ترم عن عمر ، تدانى به المسدى	فخانك ، حتى لم تجد فيه مترعا
فما كنت إلا السيف ، لاقى ضريبة	فقطّعها ، ثم انثنى فتقطّععا

وهذا الاداء يجعل من الشعر وعاء مُعبأ لعمق غوره وغزر مادته . وهو أروع أنواعه وأبعدها منالا ، إلا على العالقة .

ورأى الآخرون الذين أفضت زعامتهم إلى البحري ، المثل الاعلى ان يعود الشعر - كسابق عهده - اداء مرسلأ ، بقدر ما يسع الوزن وتسمح به القافية ، لأجل المحافظة على النغم الشعري . وأهم مميزاته « الرصف » و « الانسجام » . وقياس الحسن هو في القصيدة كاملة من مستهلها إلى غتمها ، فلا اعتبار عندهم بالبيت لذاته الا لحسن موقعه من البيان . وتتعاقب الابيات في شعر هؤلاء كالامواج متصلاً أولاً بآخرها اتصالاً لا يدرك مداه أو يعرف منتهاه حتى ينتهي الشوط بروح الشاعر الرفافة - لا ذهنه المجتئح - في طوفان التجلي مبهورة الانفاس .

ومن هذا النوع مثلاً قول البحري يصف وفد الروم :

ورأيت وفد الروم ، بعد عنادهم	عرفوا فضائلك التي لا تجهل
لحظوك أول لحظة ، فاستصغروا	من كان يعظم فيهم ويبجل
أحضرهم حججاً ، لو اجتلبت بها	عصم الجبال ، لأقبلت تنزل
ورأوك وضاح الجبين ، كما يرى	قمر السماء السعد .. ليلة يكمل
نظروا اليك فقدسوا ، ولو أنهم	نطقوا الفصيح لكبروا ، ولهللوا
حضرُوا السباط ، فكلما راموا القرى	مالت بأيديهم عقول ذهل
تهوي أكفهم إلى أفواههم	فتحيد عن قصد السبيل وتعذل
متحيرون .. فباهت متعجب	مما رأى ، أو ناظر متأمل
ويود قومهم الألى بعثوا بهم	لو ضمتهم بالأمس ذاك المحفل
قد نافس الغيب الحضور ، على الذي	شهدوا ، وقد حسد الرسول المرسل

وهذا الاداء يجعل من الشعر نثراً منغماً لدقة سبكه ولطف مخرجه ... « السهل الممتنع » . وهو أصعب أنواعه وأكثرها تمنعاً إلا على الفحول .

وتلاحظ ان المدرستين قامتا لتعالجا (بالصنعة التي لا تبده العين لحفاؤها ، أو لا تكاد تبين) ما شاب الشعر العربي — حتى أيامهما — من أوشاب لصقت به ومآخذ فنية وقع فيها ، فيما سبق لنا من شواهد الكثرة . وان كان مرجع ذلك في الحقيقة إلى « اضطرار » الفنان — حسب طباعه — لا اختياره ، في الطريقة التي يسلكها ... كما مهّدنا للموضوع ببيانه . (١)

فهذا هو الاصل في اختلاف « الطريقة الشامية » عن اختها في العراق فيما ظهر من آثارهما ، قبيل مولد المتنبي ، في الديباجة أو التطريز .

* * *

ثم جاء المتنبي ، « فملأ الدنيا وشغل الناس » ... وذلك لسبب جدّ بسيط هو ان هذه التجارب كلها بلغت « الذروة » عنده .

لقد حاول هذا الشاعر — خاتم الشعراء بحق — ان يجعل شعره جماع ما مرّ باللغة .. وأهلها .. من تجارب قديمة كالذي عهدنا من وضع الاعراب وابداعهم ، وجديدة كالذي شهدنا من صنع الموالى واختراعهم . هي تجارب طويلة مرّت بلغة الضاد — تمرّسنا بها في حديثنا عوداً على بدء — كان بعضها في اعتبار رجال عصره شوائب وبعضها عندهم حسنات ، (٢) نختلف في تقييمها معهم الآن .

نختلف في تقييمها معهم لأنهم آمنوا — وكفرنا — بما كان على الشاعر من التزام لطبيعة فنّه في مذهب المديح ، ولذلك تقيّلوا — ونرفض — كل مستلزماته . ولئن كانوا هم أقرب بروحهم عهداً إلى ما استحدث

١ وراجع أيضاً « الاساليب الشعرية » للمؤلف .

٢ كما في « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للجرجاني ، و « يتيمة الدهر » للشعالبي ، وقبلهما عند الجاحظ في « البيان والتبيين » وكتبه الأخرى .

الموالي في الشعر العربي من تطوير وتزوير فانشرحوا له .. وأنكرناه ،
فأنهم أبعد صلة عن منابعه العميقة — لا في قوالب المعاني ، أو محتويات
الدواوين — بل في سرائر النفوس وسنن الحياة . منّا .

قال الأستاذ طه أحمد ابراهيم في طريقة المتنبي :

« المتنبي شاعر فذّ ، عبقرى لم يسر على نهج أحد ،
ولم يحاك أحداً ، ولم يترع إلى طريقة من طرق المحدثين
حتى تعدل به إليها . هو شاعر قد اجتمعت فيه كل العناصر
الشعرية قديمها ومحدثها ، هو قديم في الصباغة ، اللهم إلا
في مثل الابتداءات ، وحسن التخلص مما أصبح رسماً للشعر
عند المحدثين . فلا جناس ، ولا طباق ، ولا تلك المحسنات
التي التمسها مسلم وابو تمام ، ورضي عنها البحتري . وأفكار
المتنبي ، ومعانيه هي كل ما كان يقلقه ، فاذا ما تهيأت له
أفصح عنها أفصح مقتدر جبار . ولو نفرت اللغة ، ولو
نبت بعض الالفاظ .

للمتنبي نهج خاص في المحدثين . ونظرة خاصة إلى
الفن . »

شوائب وحسنات يزخر بها ديوان المتنبي ، لما مرّ بنا من أسبابها ،
ولكن فطرة المتنبي كانت أغلب ، فكان بالرغم من كل ما آخذه عليه
الناس من حق وباطل (١) ، أصدق صوت عربي أخذ من حضاراتهم
السائدة (التي أتاحت لعصره من يونانية أو فارسية أو هندية) بنصيب ،
بعد ان فطمته روح البادية التي تغذى بلبانها طفلاً عربياً .

° ° °

١ راجع فصل « المتنبي بين شراحه وناقديه » .

هذا ما رأيت ان أعرضه بين يدي دراستنا في الفصول التالية لديوان
المتنبي ، أيها القارئ الكريم ، « مفتاحاً » من معدن فنّه ، نلج به إلى
مدماك المتنبي الفني لا طرْقاً بلا طائل من الخارج ، بل استطلاعاً في
داخل ابهائه . وكلّتي أمل ان هذا المفتاح سيفتح أبواباً كانت غلقاً حتى
اليوم على فهم شراحه وناقديه ، لأنهم كانوا يلتمسون اصالته في
غير معدنها ، ويستجدون مساقط غيئه في واد من طوافهم به غير
ذي زرع .

فالى الملتقى - إذن - في الفصول التالية .

الباب الأول

صبي في المكتب

بن عامي ٣٠٨ - ٣١١ للهجرة كان يأخذ محله في كتاب العلويين في الكوفة ، ليتلقى دروسه مع أبناء الاشراف منهم هناك ، ويختلف إلى مكاتب الوراقين ، ليتزوّد مما يتعاطون من النسخ ، صبيّ توشك ان تفتتح عبقريته - كالبرعم - حتى في تلك السنّ الباكرة ، فقد كان لا يتجاوز الثامنة من العمر (١)

إن المؤرخين ما برحوا - منذ ذلك العهد - مختلفين في شأن هذا الصبيّ وحقيقة منشئه ، ومن كان أبوه وحقيقة نسبه ، فكل ما نعلم عن أمره وأمرهما ، على طول الاخذ والرد بين المحققين ، لا يتجاوز في مدلوله نصوص ومبطّنات العبارات القديمة التالية : (٢)

١ لقد حددنا هذين العامين لموضوعنا اليوم ، لأن المتنبي وهو صبي كان قد بلغ في أولها السادسة ، وهو قد اضطر إلى ان يغادر لأول مرة الكوفة مع أبيه (?) هارباً إلى البادية بعد ثلاث سنوات .. كما سترى .

٢ راجع « ذكرى ابي الطيب بعد الف عام » للأستاذ عبد الوهاب عزام .

أ) « ولد أحمد بن الحسين الجعفي بالكوفة ، في محلة تعرف
بكندة ، سنة ٣٠٣ من الهجرة » .

رواية الاصفهاني لبهاء الدولة في « ايضاح المشكل » .

ب) « اختلف إلى كتاب فيه اشراف العلويين ، فكان يتعلم دروس العربية
شعراً ولغة واعراباً » .

رواية الاصفهاني لبهاء الدولة في « ايضاح المشكل » .

ج) « كان وهو صبي يتزل في جوارى بالكوفة وكان يعرف ابوه
بعبدان السقاء ... يسقي لنا ولأهل المحلة (كذا) ويذكر انه
من جعفي » .

رواية الخطيب عن العلوي في « تاريخ بغداد » .

د) « كانت جدته همدانية صحيحة النسب ، وكانت من صلحاء النساء
الكوفيّات » .

رواية الخطيب عن العلوي في « تاريخ بغداد » .

هـ) « أكثر ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دفاترهم » .

رواية الخطيب عن العلوي في « تاريخ بغداد » .

و) « صحب الاعراب في البادية ، فجاءنا بعد سنين بدويّاً قحّاً »

رواية الخطيب عن العلوي في « تاريخ بغداد » .

ز) « نظر في أيام الناس ، وتعاطى قول الشعر في حديثه » .

رواية الخطيب في « تاريخ بغداد » .

فكلّ من جاء بعدهم عيال عليهم .

وظلّ الناس يلهجون مدى الف عام ان أباه كان يعرف بـ « عبّدان
 — أو عيّدان — السقّاء » . ولكن هذه الدعوى لم يتردد صداها في
 التاريخ إلا منذ عام ٣٥٢ بعد وقعة شعراء بغداد فيه باغراء الوزير
 المهلبّي (لأن المتنبي ترفع عن مدحه) ، وذلك قبيل سفره إلى فارس ،
 فشتم به ابن لنكك أحد شعراء البصرة ، إذ كان حاسداً له ، فقال
 — زاعماً (١) (العبارة للثعالبي) ان اباه كان سقّاء :

قولا لأهل زمان لا خلاق لهم ضلّوا عن الرشد، من جهل به، وعموا
 « أعطيتكم المتنبي فوق منيته فروّجوه ، برغم ، أمّها تكم »
 لكنّ بغداد — جاد الغيث ساكنها — نعالهم في قفا « السقّاء » تزدحم
 حتى كشف الدكتور عمر فروخ عن وجه المؤامرة الدنيّة . إذ عثر
 — مصادفة — في قاموس الفيروزآبادي على عبارة صغيرة بهذا النصّ :
 « إن عيّدان السقّاء بالكسر لقب والد المتنبي » . فقال : (٢)

« يبدو لي ان والد المتنبي كان طويل الاطراف دقيقها ولذلك
 شبّه بعيّدان السقّاء ، وهي العيّدان أو العصي التي تنصب
 ليقام عليها السقّاء . فلا يكون حينئذ لهذا اللقب صلة بسقي
 الماء ولا بالفقر والغنى والحمول والشهرة » .

وهذا يبرر إلى حد كبير ما كان ذهب اليه من قبل (٣) الأستاذ محمود
 محمد شاكر من ان المتنبي علويّ النسب . قال :

« ووجه القضية عندنا هو هذا : تزوج رجل من العلويين
 — ولا جرم ان يكون من كبارهم — بنت جدة المتنبي ،
 فحملت منه ووضعت أحمد بن الحسين (وهذا الحسين هو

١. راجع « يتيمة الدهر » للثعالبي .

٢ في مؤتمر الدراسات العربية للجامعة الأميركية العاشر ببيروت - ١٩٦٠ .

٣ في عدد المقتطف الخاص بالمتنبي الصادر عام ١٩٣٦ .

غير عبدان السقاء) . ولأمر ما أريد هذا الرجل على طلاق امرأته وفراقها . ففارقها وطلقها فرجعت إلى أمها بجنينها أو طفلها ، وحزنت حزناً أهلكها فاستلها الموت وذهب بها وبقي الطفل وكفلته جدته ... ثم صرحت له بحقيقة أمره وصحيح نسبه ... وحذرت الفتى من عواقب التصريح بنسبه ... حتى كان من أمره ادعاؤه العلوية بالشام فقبض عليه فاضطر إلى الاخلاص والتسليم . وحرص على أن يطيع جدته . وهذا الوضع لقضية المتنبي هو الذي يفسر لك طول تكتّم المتنبي على نسبه واخفائه جهده من أصحاب اللسنة المتنقلة بين الرجال . ويفسر أيضاً مخرج قصّة (أبيه السقاء) وحرصهم على حبكها ... ويأتيك بالدليل البين في أمره دخول كتاب اشراف العلويين في الكوفة » .

لندع هذا إلى حينه .

فانما الذي يهمنا في هذا الحديث هو ماذا كان يتلقى هذا الصبي في كتاب اشراف العلويين ، أو يفاد بعلمه عند الوراقين ؟ ثم أية أحوال كان يراها بعيني صغير - مع الناس - في بلده ، واهوال يعانها بعقل صبي - بين أبناء الاشراف - من زمانه ؟ ولعله من الخير ان نمهد للموضوع بالتحدّث أولاً عن هذه الاحوال ... وتلكم الاهوال .

* * *

كانت الكوفة في مستهلّ القرن الرابع موطىء قدم لأصحاب الدعوات من العلويين وثوار القبائل الذين كانت تتعرض لغاراتهم وغزو القرامطة الذين كانوا يكتسحون البلاد في فترات . (١)

١ راجع تاريخ الطبري (توفي سنة ٣١٠) وابن الاثير وابي الفداء .

كانت تكثر الدعوات العلوية في هذه الايام ، فقد جاء في حوادث
سنة ٣٠٣ عام مولد المتنبي :

« ظهر بالجامدة رجل زعم انه علوي فقتل العامل بها ونهبها
وأخذ من دار الخراج أموالاً كثيرة » .

وفي حوادث سنة ٣١٢ :

« ظهر عند الكوفة رجل ادعى انه محمد بن اسمعيل بن
جعفر الخ .. هو رئيس الاسماعيلية وجمع جمعاً عظيماً من
الاعراب أهل السواد واستفحل أمره في شوال ، فسير اليه
جيش من بغداد فقاتلوه فظفروا به وانهزم وقتل كثير من
أصحابه » .

أما غارات الاعراب وظهور بعض الخوارج فقد جاء في حوادث
سنة ٣١٥ :

« دخل جماعة من الاعراب الكوفة وأخربوا سورها وأخربوا
الحيرة أيضاً » .

وفي حوادث سنة ٣١٨ :

« أغار بنو نمير وبنو كلاب وعاثوا بظاهر الكوفة فخرج
اليهم أمير الكوفة فأسروه » .

كما ظهرت أعظم الفرق افساداً ... القرامطة ، فقد جاء في حوادث
سنة ٣١١ :

« جرت حروب كثيرة مع القرامطة ، وانتصر فيها كبيرهم

ابو طاهر ومعه سبعمائة فارس ومثلها رجالة . كسر مرة
اربعين الفاً وأسر أميرهم « يوسف بن ابي الساج » وأخذ
مرة الحجاج وأموالهم . وأخذ البصرة مرة وقتل عاملها
ونهب أموالها . وأخذ مرة الكوفة وما فيها . وأخذ مرة
الرحبة ونهب وسلب وسبى .

هذا إذا قصرنا نظرنا على موطن الصبي . أما إذا جاوزنا به إلى
الاطوان المجاورة فلن نجد لها ارفق حالاً ، فقد كانت عرضة أيضاً لمثل
هذه الغارات ونقمة أمثالهم من الناقمين .

فقد جاء في حوادث سنة ٣١٧ :

« في آخر هذه السنة دخل ابو طاهر القرمطي يوم التروية
إلى مكة ، فنهب الحجاج وقتلهم في المسجد الحرام ، ودخل
الكعبة وخلع الحجر الاسود ، ونقله إلى هجر ، وقتل
أمير مكة ، وقلع باب البيت ، وأصعد رجلاً ليقلع الميزاب
فسقط ومات . وطرح القتلى في بئر زمزم ، ودفن الباقيين
في المسجد الحرام حيث قتلوا ، وقسم كسوة البيت بين
أصحابه » ... كما ... « وقعت فتنة عظيمة ببغداد بسبب
تفسير قوله تعالى : « عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً »
ودخلت فيها الجند والعمامة . وقتل فيها خلق كثير . »

وراء هذا كله لم تكن الحال في رقعة البلاد الاسلامية الواسعة مما
يبعث على الطمأنينة وراحة البال . في هذه الدول الكثيرة الممزقة الأوصال
التي كان يكيد رجالها بعضهم لبعض ، تهالكاً على العاجلة وبعداً عن

رأية التوحيد . (١)

فقد جاء في حوادث سنة ٣٠٠ :

« أرسل المهدي الفاطمي (الذي قضى على دولة الاغالبية بافريقية سنة ٢٩٦) عبيد الله ثلاث مرات لأخذه مصر ، ويرسل المقتدر اليه عساكر يدفعه عنها بعد أخذه الاسكندرية وبلاداً معها . وبني المهدي « المهديّة » المشهورة ببلاد الغرب على جانب البحر ، وجعلها دار ملكه وجعل لها سوراً محكماً ، وأبواباً عظيمة ، وزن كل مصراع مائة قنطار ، وقال : الآن أمنت على الفاطميين ! »

وجاء قبلها عن المقتدر هذا في حوادث سنة ٢٩٦ :

« خلع القواد والقضاة المقتدر بالله ، وبايعوا عبد الله بن المعتز – الشاعر المعروف – ولقبوه الراضي بالله ، وجرت بسبب ذلك حروب كثيرة . وأمسك الراضي بالله وخنق وأعيد المقتدر ، فأنما ولي الخلافة يوماً واحداً . وكان يقول : ان وايت ما أبقيت علويّاً ! فأصابته دعوة العلويين . »

فلم يكن في أيدي العباسيين – اذن – إلا العراق والجزيرة ، حتى

١ كان عهدهم عهد الدول الكبيرة التي استقلت بالسلطان ، وان اعترفت للخلفاء اسماً بالخلافة :

ففي فارس وما وراء النهر وخراسان – دولة السامانيين (٢٦٩ – ٣٨٩) .
وفي طبرستان وجرجان – دولة الديلم .

وفي مصر والشام – دولة الاخشيدي محمد بن طنج (فقد استقل بالسلطان في مصر سنة ٣٢٢) وبعد قليل استولى على الشام والحجاز ، ولقبه الخليفة العباسي بهذا اللقب .

وفي افريقية وما يليها إلى الغرب – دولة الفاطميين (٢٩٦ – ٥٦٧) .

وفي شمالي الشام – دولة بني حمدان (٣٠٧ – ٣٩٤)

أما الاطراف فالبحر في يد ابن رائق ، والبحرين واليمامة في يد ابي طاهر القرمطي .

وفي الاندلس – دولة الامويين تولى أمرها عبد الرحمن الناصر عام ٣٠٠ .

استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ . (١)

* * *

أما مكاتب الوراقين الماثورة في كل مكان ، التي كان يجتمع فيها كبار الكتاب والمؤلفين لنسخ كتبهم ، - شأنها شأن المطابع اليوم - فاليك مشهداً مما كان يقع فيها :

جاء في رواية الخطيب عن محمد بن يحيى العلوي الزيدي قال :

« أخبرني وراق (كان يجلس اليه) (٢) قال لي : « ما رأيت أحفظ من هذا - ابن عبدان - قط » . فقلت له : كيف ؟ فقال : كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الاصمعي (سماه الوراق ونسبه العلوي) يكون نحو ثلاثين ورقة ليبيعه . قال فأخذ ينظر فيه طويلاً فقال له الرجل : يا هذا ! أريد بيعه وقد قطعني عن ذلك ، فان كنت تريد حفظه في هذه المدة فبيعه . فقال له : ان كنت حفظته فمالي عليك ؟ قال اهب لك الكتاب . قال فأخذت الدفتر

١ لم يكن الامر في هذه البقاع - في الواقع - بأيدي الخلفاء ، بل كان السلطان المتنبلين من القواد والكبراء . جاء في حوادث سنة ٣١٧ :

« أنكر الجند والقواد على المقتدر استيلاء النساء والخدام على الامور ، وأخذ الاموال الكثيرة ، واجتمعوا إلى مؤنس الخادم ، وألجأوا المقتدر إلى ان اشهد عليه انه خلع نفسه ، وبايعوا أخاه محمد بن المتضد ولقبوه بـ « القاهر » ، ونهبوا دار الخلافة ، ونبشوا من بيت ام المقتدر سبائة ألف دينار ، وثالث يوم بكر الناس وازدحموا على « القاهر » فاستخفى وهرب جماعة ، فساد الناس إلى بيت مؤنس الخادم فطلبوا منه المقتدر فأخرجه ، فحملوه على رؤوسهم حتى أدخلوه دار الخلافة ، وحضر اليه أخوه القاهر بالامان ، فرحب به وأقام عنده ، وحبه عند أمه فأحسنّت اليه ووسعت عليه ، وسكنت الفتنة » .

٢ الاشارة إلى المتنبّي صبيّا .

من يده فأقبل يتلوه إلى آخره ، ثم استلبه فجعله في كمّته ،
وقام . فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن . فقال : ما إلى
ذلك سبيل ، قد وهبته لي . قال فمنعناه منه وقلنا له : انت
شرطت على نفسك هذا للغلام . فتركه عليه .

رواية الخطيب عن العلوي في

« تاريخ بغداد »

وهذه الحادثة ان لم تكن وقعت للمتنبّي في الفترة التي نحن بصددّها ،
فإنّها لا تتخلّف عنها كثيراً ، فقد عاد الصبي إلى الكوفة مراراً ،
بعد رحلته الأولى إلى البادية فراراً من عدوان القرامطة ، الذي
ورد ذكره .

* * *

والآن ماذا كان يتلقّاه الصبية في كتاب اشراف العلويين ؟ تقول
رواية الاصفهاني : دروس العربية شعراً ولغة واعراباً .

ودونك التفصيل :

لا يعقل ، إذ كانت دعوات العلويين تكثّر في هذه الايام ، إلا ان
صبيّتهم كانوا يحفظون لشعراء العلويين أول أول . ولو تأملنا في أدب
القرن السابق لقرن المتنبّي أو قبله لوجدنا فيه بضعة اسماء لامعة للشعراء
العلويين هؤلاء . فلنستمع إلى بعض ما كان يتناشدونه منهم كالسيد
الحميري مثلاً في قوله :

همة تنطح الثريا ، وعز نبوي يقلقل الاجبالا

وعطاء ، إذا تأخر عنه سائلوه ، اقتضاهم استعجالا (١)

١ في الديوان : شرف ينطح النجوم بروقي — ه ، وعز يقلقل الاجبالا

وقوله :

وان مسيري من ذراك ضرورة
وما رحلتي إلا تبشر عاجلا
ولولا اضطراري ما رضيت بذلك
بأنني اقيم الدهر تحت ظلالكا (١)
وكالعوني في قوله :

حُبّ ابن بنت المصطفى وأزوره
وما قدمي في سعيه نحو قبره
زيارة مهجور نحن إلى الوصل
بأفضل منه رتبة مركز العقل (٢)
وقوله :

يا صاحبي ! بعدتما ، فتركتما
أبكى وفاءكما وعهدكما ، كما
قلبي رهين صباة وتصابي
بيكي المحبّ معاهد الأحباب (٣)
وقوله :

وانتي ليسري بي أغرّ محجّل
ويصحبني ، من نسل اعوج ، ضمّر
سرى لا يبالي فيه بالنحس والسعد
عناق هداة ، لا تجور عن القصد
حياء، فهم بالبعد في صورة المرد (٤)
وقوله :

مضى الربيع ، وجاء الصيف يقدمه
كأنّ بالجو ما بي من جوى وهوى
جيش من الحرّ، يرمي الأرض بالشرر
ومن شحوب ، فلا يخلو من الكدر (٥)

١	لعل الله يجعله رحلا	يعين على الإقامة في ذراكا
٢	خير أعضائنا الرؤوس ، ولكن	فضلتها بقصدك الأقدام
٣	وفاؤكما كالريح - أشجاء طامسه -	بأن تسعدا ، والدمع اشفاء ما جمه
٤	تبدل أيامي وعيشتي ومنزلي	نجائب ، لا يفكرون في النحس والعد
وأيضاً	وأوجه فتیان حياء تلتّموا	عليهن ، لا خوفاً من الحر والبرد
٥	سأطلب حقي بالقنا ومشايخ	كانهم من طول ما التثّموا مرد
	كأن الجوى قاسى ما أقاسى	فصار سواده فيه شحوباً

وكالناشيء في قوله :

إلى الله من ميل اليكم لتائب
وأقصدكم عنه ظنون كواذب
وتبعدكم سمر القنا والقواضب
كرام . لهم في السابقين مراتب ؟
وهم أظهروا الاسلام . والكفر غالب
مثالب قوم عند قوم مناقب (١)

اليكم بني العباس ! عني ، فاني
تركتم طريق المجد بعد اتضاعه
سيظعن أهل الحق بالحق عاجلاً
أترضون أن تطوى صحائف عصبه
ألم تعلموا ان التراث تراثهم
فلا تذكروا منهم مثالب ، انما
وقوله :

عقلاً ، وأسبغهم فيه إلى الأمد
بالرأي والعقل ، لا بالبطش والجلد
يضعف قوى عقلك الصافي ، ولم يجد
دون العقول ، لكان الفضل للأسد (٢)

يا أكرم الناس أخلاقاً وأوفرهم
أصبحت أفضل من يمشي على قدم
لئن ضعفت وأضناك السقام ، فلم
لو كان افضل ما في الخلق بطشهم

وكالهيثم بن الاسود النخعي :

ترفع عن تدنيسها بسؤال
عن الناس ، لم يلبس ثياب جلال (٣)

إذا نال بالسيف الفتى سؤل نفسه
ومن لم يصب في حاجة ماء وجهه

وكموسى بن عمران :

من السيوف ومن خوض الردى فرق
يلقونها بنفوس ما بها قلق (٤)

أصبحت من معشر ، ما في قلوبهم
يستسهلون صعب الحادثات ، فهم

مصائب قوم عند قوم فوائد
أدنى إلى شرف من الانسان
واغتصاباً ، لم يلتصمه سؤالا
كثير الرزايا عندهن قليل
ولليص في هام الكفاة صليل

بذا قضت الايام ما بين أهلها
لولا العقول لكان أدنى خيئهم
من أطباق الناس شيء غلابا
وانا لتلقى الحادثات بأنفس
لمن هوّن الدنيا على النفس ساعة

١ في الديوان

٢

٣

٤

وكأبي سعيد المخزومي :

لم يترك الجود فيه غير عادته
فلا يلام على اتلافه كرمأ
حفظ المروءة يؤذي قلب صاحبها

ولم يشن وعده كذب ولا خلف
أمواله ، والذي لم يعطه ، تلف
والحب مغرى به المستهتر الكلف (١)

وكتميم بن خزيمه :

وليس يضرنني قومي إذا ما
زنادي غير مصلدة ، وسيفي
فلا تستحقروني لانفرادي

غزاهم في ديارهم كلاب
عليه من دماهم قراب
فان التبر معدنه التراب (٢)

وكالمستهل بن الكميث :

واني وان ألبست ثوب خصاصة
ومن رام مدح الباخلين فانه
نصحتك لا تكرم عدوآ ، ولا تهن
وما أربي في العيش لولا محبتي

فلست لعمرى للبخيل بمادح
ضعيف أساس العقل بادي القبايح
صديقاً ، لك الخبرات ، فاقبل نصائحي
لنفع محب ، أو مضرة كاشح (٣)

وكسعيد الخطيب :

وما كنت أدري ان في كفك الغنى
وقد كنت في ليل من الشك مظلم
تبرعت بالأموال من غير كلفة

وانك قد أصبحت للمجد عنصرا
إلى ان بدا صبح اليقين فأسفرا
وحزت بها عني الثناء المحجرا (٤)

١ تلذ له المروءة وهي تؤذي
٢ وما أنا منهم بالعيش فيهم
ومن يعشق يلذ له الفرام
ولكن معدن الذهب الرغام
وهذا المعنى يتكرر عند المتنبي كثيراً .

٣ لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها
٤ ومادى محبيه بقول عادته
سرور محب ، أو اساءة مجرم
وأصبح في ليل من الشك مظلم

وكاسمعل بن محمد الراداني :

كأنما الناس مخلوقون من ظلم
تهتز كالغصن عند الجود من طرب
وأنت وحدك مخلوق من النور
وتستغير بقلب غير مذعور (١)
وكابن هفآن المهروي :

جلست ، فقام الدهر فيما تريده
وأنت لأرباب المكارم كلهم
ونمت عن الاشغال والجدّ ساهر
امام ، وان غابوا فأنتك حاضر (٢)
وكابراهيم الكاتب :

أحاول أمراً ، والقضاء يعوقه
ولولا الذي حاولت صعباً مرامه
فبيني وبين الدهر فيه طراد
لساعدني فيه عليه شداد (٣)
وكزريق البصري :

فلا تحسبوا الاقتار عاراً عليكم
كذا عادة الدهر الخوئون ، ولم يزل
وأيت الغنى عند الاراذل محنة
على الناس ، مثل الفقر عند الافاضل (٤)
وكبشر بن هدية الفزاري :

أرى الحرب في عينيّ مثل عقيلة
فيؤنسني غشاها وعناقها

-
- | | | |
|--------------|-------------------------------|------------------------------|
| ١ في الديوان | فلو خلق الناس من دهرهم | لكانوا الظلام ، وكنت النهارا |
| ٢ | أشدهم في الندى هزة | وأبعدهم في عدو مغارا |
| ٣ | ودانت له الدنيا ، فأصبح جالسا | وأيامه فيما يريد قياما |
| ٤ | وكل أناس يتبعون إمامهم | وأنت لأهل المكرمات إماما |
| | أهم بشيء ، والليالي كأنها | تطاردني عن كونه ، واطارد |
| | وحيد من الخلان في كل بلدة | إذا عظم المطلوب ، قل المساعد |
| | والغنى في يد اللئيم قبيح | قدر قبح الكريم في الاملاق |

ومن لوئم طبع الجاهلين اجتنابهم ورود المنايا. وهي أرى.. مذاقها (١)
وكأبي محمد الخراساني :

وكم مهمه قد جتته بعد مهمه ، وكم مسلك وعر ، وكم منهل ففر
يلين بعزمي كل صعب ارومه وهل خطب دهر لا يهونه صبري (٢)
وكأبي عمران الضزير الكوفي :

لست أدري كيف ابتليت بقوم لا يخافون ربهم . حسادي
حسدوني على الحياة ، ومن لي بحياة أنال فيها مرادي (٣)
وكمحمد بن مسلم المعروف بابن المولى :

مازات تفرعهم في كل معترك ضرباً يحل محل الشيب في اللمم
تري الجماجم منه غير آمنة وسائر الجسم منها صار في حرم (٤)
وكمسلم بن عيَّاش العامري :

وخيل مؤدبة ، لا تزال قوائمها ، عالكات اللجم
تحنّ إلى الحرب من غير أن تقاد ، وما أفلقتها الحزم
وقد ستر النقع اعرافها فأذائها كروؤوس القلم (٥)

-
- ١ يرى الجبناء ان العجز عقل وتلك خديمة الطبع اللثيم
أما عشق الحرب فقد تكرر عنده كثيراً .
- ٢ اعلى الممالك ما يبنى على الاسل والطمع عند محبين كالقبيل
- ٣ قد هون الصبر عندي كل نازلة ولين العزم حد المركب الحشن
ولكنني حسدت على حياتي وما خير الحياة بلا سرور
- ٤ خص الجماجم والوجوه ، كأنما جاءت اليك جئومهم بأمان
- ٥ في الديوان قاد الجياد إلى الطعان ، ولم يقـد
ان خلعت ربطت بأداب الوغى فدعاؤها يغني عن الأرسان
في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يصرن بالأذان

وكمعوج الرقي :

كم وقفنا على الطلول ، وجدنا بسحاب من الدموع يهل
يا محلّ الآرام والعين ! أهلاً ، لك في القلب منزل ومحلّ (١)

وكجميل بثينة :

ونقص دهر الشيب عيشي ، ولم يكن
نخصّ زمان الشيب بالدم وحده
بنقصه إذ كنت والرأس اسود
وأني زمان يا بثينة ! يحمد ؟ (٢)

وكجابر السنيسي :

خيل شواذب أمثال الصقور ، لها
كأنهم خلقوا والحيل تحتهم
فوارس ، لا يخافون الردى ، بسل
وهم أسود ، وفي أنيابها الاجل (٣)

وكمعقل العجلي :

ما في الملابس مفخر لذوي النهى
ليس اللثيم تزينه أثوابه
ان لم يزينها الجود والاحسان
كالميت ليس تزينه الأكفان (٤)

وكأبي نصر الحيزأرزي :

حصلت منكم على ما ليس يقنعني
وليس سكناي نقصاناً لمنزلي
وكيف يقنع سوء الكيل والحشف
فيكم ، كما الدر لا يزري به الصدف (٥)

فهذا بعض ما كان يحويه دفتر محفوظات الصبية ، مما تردد صداه
عميقاً - بعد - في شعر المتنبي ، وقد رها العميدي من رجال القرن

- | | | |
|---|-------------------------------|-------------------------------|
| ١ | لك يا منازل ! في القلوب منازل | أقبرت أنت ، وهن منك أو اهل |
| ٢ | من خص بالدم الفراق ، فاني | من لا يرى في الدهر شيئاً يحمد |
| ٣ | وكانها نتجت قياماً تحتهم | وكانهم ولدوا على صهواتها |
| ٤ | لا يعجن مضيأ حسن بزته | وهل تروق دفيناً جودة الكفن ؟ |
| ٥ | لو كان سكناي فيك منقصه | لم يكن الدر ساكن الصدف |

التالي من سرقاته . (١)

والصبية يستظهرون في الغزل مثل قول ديك الجن :

دعص ، يقلّ قضيب بان ، فوقه شمس النهار ، تقلّ ليلاً مظلماً (٢)

وقول أبي نصر الحزأرزي الذي كان من شعرائهم المعاصرين فقد
توفي في البصرة سنة ٣١٧ :

وأسقمني ، حتى كأني جفونه وأثقلني ، حتى كأني روادفه (٣)
وقوله أيضاً :

فوا عجباً ، حتام يطر ناظري إذا هو أبدى من ثناياه لي برقاً (٤)
وقوله أيضاً :

وما حاجة الركب السراة ، إذا بدا لهم وجهه ليلاً ، إلى طلعه البدر (٥)
وقوله أيضاً :

وشادن زرتة فرحب بي ترحيب جان على مواليه
جنيت ورداً من خدّه بفمي فعشت ، لا عاش من يعاديه
تحيي رفات العظام قبلته لأنّ ماء الحياة من فيه (٦)

وقول الخليل الأول :

وزائرة ما ضمت قط ثوبها بمسك ، ومن أثوابها المسك يسطع

١ راجع « الابانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى » للعميدي .

٢ غصن - على نقوى فلاة - نابت شمس النهار تقل ليلاً مظلماً

٣ أعارني سقم عينه ، وحلني من الهوى ثقل ما تحوي مآزره

٤ تبل خدي كلما ابتسمت من مطر ، برقه ثناياها

٥ وما حاجة الأنظمان حولك في الدجى إلى قمر ، ما واجد لك عادمه

٦ فذقت ماء حياة من مقبلها لو صاب ترباً لأحيا سالف الأمم

ينمّ عليها ريحها ، وحليتها : وغرتها في الليل ، والليل أدرع (١)

وقول علي بن يحيى المنجم :

وجه . كأنّ البدر ليلة تمّه
وأرى عليه حديقة ، أضحي لها
منه استعار النور والاشراقا
حدقي وأحداق الانام نطاقا (٢)

وقول علي بن مهدي الكسروي :

لم أنس يوم تعانقنا وعللني
ابصرته فرأيت الشمس طالعة
هذا على أنّ حول الشمس من شعر
أنا القليل ، وطرفي قالي ، ودمي
من ريقه صافياً ، ما شابه كدر
تغشى العيون ، فيعشى دونها البصر
ليل . يقال له الاصداع والطرر
— ما بين قلبي ومن علّقه—هدر (٣)

وقول الناشئ :

لما عطفن رؤوسهنّ
قدّرتهنّ لعشقهنّ
إلى الظعائن في الكلل (٤)
طلبن منهنّ القبل

وقول ابن الرومي :

ان أقبلت فالبدر لاح ، وان مشت
فالمسك فاح ، وان رنت فالريم (٥)

كما انهم كانوا يتمثلون في قضايا كثيرة بمفردات الابيات مثل قول
العلوي الكوفي المعروف بالجماني :

تيهاء ، لا يتخطاها الدليل بها
الا وناظره بالنجم معقود (٦)

١ في الديوان	أت زائراً ، ما خامر الطيب ثوبها	وكالمسك من أردانها يتضوع
٢	وخصر تثبت الابصار فيه	كأن عليه من حدق نطاقا
٣	وانا الذي اجتلب المنية طرفه	فمن المطالب ، والقليل القاتل؟
٤	ويغيرني جذب الزمام ، لقلبها	فمها اليك .. كطالب تقييلا
٥	بدت قمراً ، ومالت خوط بان	وفاحت عنبراً ، ورنّت غزالا
٦	عقدت بالنجم طرفي في مفاوزه	وحر وجهي بحر الشمس ، إذ أفلا

وقول محمد بن كناسة الاسدي :

تري خيلهم مربوطة بقبابهم وفي كل قلب من سنابكها وقع (١)

وقول صالح بن حبان الطائي :

صبرت ، ومن يصبر يجد غب صبره ألدّ وأحلى من جنى النحل في الفم (٢)

وقول بعض الاعراب :

بصير بأعقاب الامور برأيه كأن له في اليوم عيناً على غد (٣)

وقول الخليلع الاكبر :

وخير بلاد الله عندي بلدة أنال بها عزّاً ، واحوي بها حمدا (٤)

وقول أبي راسب البجلي :

ولو كنت تحوي عمر من قد نهبت بسيفك في الدنيا ، لكنت مخلداً (٥)

وقول السيد الحميري :

تحفى على أغبياء الناس منزلي اني النهار ، وهم فيه الخفافيش (٦)

وقول منصور النميري :

رضيت بأيام المشيب ، وان مضى شبابي حميداً ، والكريم ألوف (٧)

١	قيام بأبواب القباب جياهم	واشخاصها في قلب خائفهم تعدو
٢	فنب ، واثقاً بالله ، وثبة ماجد	يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم
٣	ماضي الجنان ، يريه الخزم قبل غد	بقلبه ، ما ترى عيناه بعد غد
٤	وكل امرئ يولي الجميل محب	وكل مكان ينبت العز طيب
٥	نهبت من الأعمار ما لو حويته	لهنت الدنيا بأنك خالدا
٦	وإذا خفيت على النبي فعاذر	ان لا تراني مقلّة عياء
٧	خلقت الوفا ، لو رجعت إلى الصبا	لفارقت شبيبي موجه القلب باكياً

وكانوا كثيراً ما يتفكهون بأبيات في الشيب في مثل قول العطوي :

أبعدك الله من يياض بيّضت من عيني السوادا (١)

وقول المتورد :

حلّ المشيب بمفرقي فكأنه سيف صقيل

أقبح بضيف قال لي (لما أتى) : قرب الرحيل ! (٢)

* * *

والآن لعله يهكم ان ترى كيف قام هذا الصبي في المكتب بمحاولانه
الاولى في النظم . تعال إذن نردّد معه النظر في أبيات علي بن جبلة
نراه مكباً عليها :

بأبي من زارني مكتما حذراً من كل واش فزعا

طارقاً ، نمّ عليه نوره كيف يُخفي الليل بدرّاً طلعا (٣)

رصد الخلوة حتى أمكنت ورعى السامر حتى هجعا

كابد الأهوال في زورته ثم ما سلّم حتى ودّعا

وسرعان ما يرفع رأسه ، فلا تضحك عليه إذا رأيت في لوحه
هذه النتيجة :

بأبي من وددته ، فافترقنا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

-
- ١ ابعد ! بعدت يياضاً ، لا يياض له لأنت أسود في عيني من الظلم
٢ ضيف ألم برأسي غير محتشم والسيف احسن فعلا منه باللم
٣ واليك محاولة ثانية للصبي في هذا المعنى عندما خرج من المكتب .

أمن ازديارك في الدجى الرقباء اذ (حيث كنت من الظلام) ضياء
قلق المليحة (وهي مسك) هتكها ومسيرها في الليل (وهي ذكاء)

فافترقنا حولاً ، فلما التقينا كان تسليمه عليّ وداعاً
فلما أول محاولة له .

ولكنّ هذا الصبي ما كادت تستقيم له المحاولة بين أترابه أياماً حتى
أخذ ينظم الشعر ارتجالاً ... ويجيد . قيل له وهو في المكتب : ما أحسن
هذه الوفرة ، فهزّ رأسه بها تعالياً وقال :

لا تحسن الوفرة حتى تُرى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتىٍّ معتقل صعدةً يعلتها من كل وافي السبال

ولعلك تفهم الآن ما كان يرمي إليه ، ومن هؤلاء الذين يعنيهـم
بقوله « من كل وافي السبال » ، ولا أظنّك في حاجة — بعد — إلى شرح
الشارحين .

فذاك هو المتنبي صبيّاً .

الباب الثاني

على ضوءِ ما نظمَ الصَّبِيُّ

بوادِر كثيرة .. ربما لاحظناها - بعضها أو كلها - ونحن نرقب المتنبي - صبيّاً - في كتاب الاشراف العلويين في الكوفة ، ولكن الذي يجوز اننا لم نلاحظه بالمرّة هو كيف ان هذا الشاعر - منذ حدائته - كان ينهج للنظم العربي نهجاً ، تميّز بخصائصه فيما بعد ، ان دلّ على شيء فعلى قبضه على ناصية اللغة .. قبض عزيز مقتدر ، حتّى في تلك السنّ الناعمة .

فهو إذا تعرّض لنظم معنى من المعاني - التي لا صلة لها مباشرة بظرف القول ، مما يمكن اعتباره التزام الشاعر لطبيعة فنّه - تعمّل له ، وجردّه من كلّ ملابساته العينيّة تجريداً ، واختزل له البيان كلّ الاختزال .

ففي قوله مثلاً :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث كنت من الظا ضياء

قلق المليحة وهي مسك هتكها ومسيرها في الليل وهي ذكاء
تراه إنما يصوغ نظماً ما يقرّره المنطق .. لحمه وسداة ، ولا مساس لما
يسوق كحجة - رغم قوتها الاقناعية - بالعاطفة الحية . فلو انك أتيت
بعبارة على وجهها البنائي لما كانت إلا :

١ أمن الرقباء ازديارك في الدجى ، إذ (لا يكون إلا) ضياء
حيث كنت من الظلام

٢ لأنّ .. قلق المليحة (وهي مسك) ومسيرها في الليل (وهي
ذكاء) هتك لها

فهذا كلّ ما هنالك إذا تأملت رصفه ، وليس كل هذا التقديم
والتأخير في تركيب العبارة إلا اقتصاداً منه في الالفاظ . اختصاراً
للطريق .

بينما تراه إذا اقتضى ظرفه المائل ان يعبر عن شيء يختلج في صدره
لحينه ، أرسل الكلام مرتجلاً - أو في حكم المرتجل - ملتبساً بشعوره
الحي . كما رأينا في قوله :

لا تحسن الوفرة ، حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتي معتقل صعدة يعلّنها من كلّ وافي السبال

فهنا لا تجد أي اقتصاد في الالفاظ .. اختصاراً للطريق . وإنما عاطفة
متأججة يعبر عنها الصبي باطلاق حرارتها في الكلمات المواتية لها .
وهذه قاعدة تصحّ في شمولها على شعر المتنبي كله .. طرداً وعكساً .
فحيث تجد مثلاً تعملاً من الشاعر - في الديوان - واختزالاً في البيان
بغية الاقتصاد ، وتجريداً من الملابس ، فهناك يوجد ما لا صلة له
بظرف الشاعر الزمني مطلقاً . وحيث تجده يرسل الكلام مرتجلاً - أو
في حكم المرتجل - ملتبساً بشعوره الحي ، فانما هو يعبر هناك عن

شيء اقتضت ظروف حياته الافضاء به ، لأنه مما اختلج في صدره حينه .

هما خيطان من غزله الدقيق تجدهما في سلك قلائده كلها : أحدهما دائماً صارخ الالوان ملوناً بشتى عواطفه ، والآخر لا لون له غير البياض لأنه ومض العقل المحض .

فمن شواهد الحيط الملون — مما ارتجله في الفترة الأثرى من صباه (٣١١ — ٣١٧) — قوله وقد مرّ برجلين قتلا جرذاً وابرزاه يعجبان الناس من كبره :

لقد أصبح الجرذ المستغبر
رماه الكناني ، والعامري
كلا الرجلين أتلى قتله
وأيتكما كان من خلفه ؟
أسير المنايا ، صريع العطب
وتلآه للوجه ، فعل العرب
فأيتكما غلّ حرّ السلب ؟
فانّ به عضّة في الذنب

وقوله في بعض العامة :

رمانى خساس الناس من صائب استه
ومن جاهل بي ، وهو يجهل جهله
وقوله يرفع شعاراً :

عش عزيزاً .. أو مت وأنت كريم
فروؤوس الرماح أذهب للغيظ ،
لا كما قد حيت غير حميد
فاطلب العز في لظى ، وذر الذ
بين طعن القنا ، وخفق البنود
وأشفى لغلّ صدر الحقود
وإذا متّ ، متّ غير فقيّد
لّ ولو كان في جنان الخلود

ومثلها قوله في الفترة التالية (٣١٧ — ٣٢٤) أثناء هبوطه الشام :

أملك الملك (والأسياف ظامئة ،
من .. لو رأني ماء ، مات من ظماً
ميعاد كلّ رقيق الشفرتين غداً
والطير جائعة) لحم على وضم ؟
ولو عرضت له في النوم ، لم ينم ؟
ومن عصي ، من ملوك العرب والعجم

وقوله وقد كتب إلى الوالي لما صار معتقلاً في الحبس : (١)

بيدي ، أيها الأمير الأريب لا شيء إلا لأنني غريب

١ يروى أنه كتب إليه من السجن قصيدة يستعطف بها أولها :

أيا خدد الله ورد الحدود وقد قدود الحسان القدود
يقول في أثناءها في استعطاف ذلك الأمير والتنصل إليه مما أتهم به :

لقد حال بالسيف دون الوعيد وحالت عطاياه دون الوعد
فأنجم أمواله في النحوس وأنجم سؤاله في السمود
ولو لم أخف غير أعدائه عليه ، لبشرته بالخلود
قيل : ولما وصل الوالي إلى هذا البيت وهو :

وبيض مسافرة ، لا يقيم لا في الرقاب ، ولا في الغمود
قال : لقد تصبب عرقاً وتقلب أرقاً حتى استنبط هذا المعنى من قول أبي بكر النحوي المعروف
بمرفه وهو :

وبيض تسافر ، ما إن تقيم لا في الرقاب ، ولا في القرب
بطيء رضاهن ، لكنهما - غداة اللقاء - سراع الغضب
وارجوك أن تلاحظ هنا كيف كان ينظر الوالي إلى هذه البضاعة .
إلى أن قال :

أمالك رقي ، ومن شأنه هبات اللجين ، وعشق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت مني كجبل الوريث
دعوتك لما براني البلا وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيها في النمل فقد صار مشيها في القيود
وكنت من الناس في محفل فها أنا في محفل من قروود
تعجل في وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود
مبالغة شعرية لا نحدد لنا زمن نظم القصيدة .

ولعلك تبين الآن كيف تحوي القصيدة الواحدة على الخيطين ، ما يمدد الطبع ملوياً على ما
تحبكه الصنعة .

وقيل عدوت على العالمين بين ولادي وبين القمود
فمالك تقبل زور الكلام وقدر الشهادة قدر الشهود
فلا تسمع من الكاشحين ولا تبأن بعجل اليهود
وكن فارقاً بين دعوى « اردت » ودعوى « فعلت » بشأ بعيد
وفي جود كفيك ما جدك لي بنفسي ، ولو كنت أشقى ثمود
ومنها أيضاً نيتين كنه ما أتهم به ، فلم يكن غير « مصاولة الاحداث ونية الخروج على السلطان » .

أو لأمّ لها - إذا ذكرتني - دم قلب ، بدمع عين ، يذوب
 ان اكن ، قبل ان رأيتك ، أخطأ ت ، فانتني على يدك اتوب
 عائب عابني لديك ، ومنه خلقت في ذوي العيوب .. العيوب
 ومن شواهد الحيط الابيض مما نعمته في تلك الفترة الأولى قوله :

كفّني ! أراني -ويك- لومك ألوما همّ ، أقام على فؤاد .. أنجما
 وبخيال جسم .. لم يخلّ له الهوى لحماً - فينحله السقام - ولا دما
 وخفوق قلب .. لو رأيت لهيه يا جنّتي ، لظننت فيه جهنما

فقد أداره حول معنى .. همّ أقام على فؤاد انجم (أي طار لحبها
 شعاعاً) ، فهذا الهم أراه انّ لوم اللائمة آياه هو أحق
 باللوم ، ولذلك هو يطلب منها ان تكفّ . ووراء هذا
 الهم جسم أصبح خيلاً ، لأنه لم يخلّ له الهوى لحماً ولا
 دماً ، فأنّى ينحله السقام ؟ ووراء هذا الجسم خفوق قلب
 لو رأت لائمته (أسماها « جنّتي » للمطابقة) لهيه ، لظنّنت
 فيه جهنما .

وقوله بين يدي بطل شاب من العلويين :

يا حاديبي غيرها ، وأحسّني أوجد ميتاً ، قبيل أفقدما
 قفا قليلاً بها عليّ ، فلا أقلّ من نظرة ، أزودها
 ففي فؤاد المحبّ نار جوى أحرّ نار الجحيم أبردها

فقد أداره حول معنى .. فراقها : فهو يطلب من حاديبي غيرها ان
 يقفا قليلاً بها عليه ، فلا أقلّ من نظرة تزوده بها : لأنه
 يخشى أن يموت قبيل فقدها . ولماذا هو يخشى الهلاك ؟ ذلك
 لأنّ في فؤاد المحبّ نار جوى أحرّ نار الجحيم هي هذه النار
 أبرد ما تكون . وتلاحظ انه يكرّر هنا نفس المعنى الأول ،

بعد ان أدخل عليه عنصر المبالغة .

ومثلها قوله أول وروده منبج في طريقه إلى الشام :

أحيا ؟ وأيسر ما قاسيت ما قتلا	والبين جار على ضعفي ، وما عدلا
والوجد يقوى ، كما تقوى النوى ، ابدأ	والصبر ينحل في جسمي ، كما نحلا
لولا مفارقة الاحباب ، ما وجدت	لها المنايا ، إلى أرواحنا ، سبلا
بما يجفنيك من سحر ، صلي دنفا	يهوى الحياة ، فامّا ان صددت .. فلا
الآ يشب ، فلقد شابت له كبـد	شيباً ، إذا خضبته سلوة .. نصلا
يجنّ شوقاً ، فلولا ان رائحة	تزوره ، من رياح الشرق ، ما عقلا

فقد أداره حول معنى .. الحياة بعد فراقها ، فهو يسأل كيف يستطيع الحياة وأيسر ما قاساه مما يقتل . فقد جار على ضعفه «البن» غير عادل ، وهو لا يزداد على البعد إلا وجداً ، وينحل صبره في جسمه نحول الجسم نفسه ، وكل ذلك لمفارقة الاحباب .. فلولا هذه المفارقة لما وجدت لها المنايا سبلا إلى الارواح (وسوف تراه يكرّر هذا المعنى في الديوان) . ثم هو يناشدها بحقّ جفنيها الساحرتين أن تصل فيه دنفاً ، يحبّ الحياة لأجلها ، الا إذا مني منها بالصدود . وإذا كان هو لم يظهر عليه الشيب من ألم الفراق فقد شابت كبده من الوجد شيباً لو حاولت «سلوة» ان تخضبه لنصل هذا الخضاب لعجزه عن السلوان ، وكم هاج شوقه فكاد يجنّ وإنما الذي يهدّئ من أعصابه رائحة تزوره من رياح الشرق .. موطن الاحباب .

وقوله غداة هبوطه سوادها :

أظبية الوحش ! لولا ظبية الأنس لما غدوت بجدة ، في الهوى ، تعسـ

ولا سقيت الثرى - والمزن مخلفة - دمعاً ، ينشّفه - من لوعة - نفسي

فقد أداره حول معنى .. تعاسة الجّد ، فهو يقول - مخاطباً طيبة

البرّ - لولا انّ من عشقها من ظبى الانس نافرة ، لما غدا

بجدّ تعس في الهوى ، ولا بكى دمعاً فسقى به الثرى إذ

المزن مخلفة ، دمعاً ينشّفه نفّسه الحار الصادر عن لوعته.

فكلّ هذه القطع أو القصائد انما نظمها وهو قريب العهد بالبادية ،

تبيّن فيها بوضوح معالم طريقته . (١)

خيطان كأنعم الحرير يغزلهما المنبهي معاً - على التناقض الظاهر بينهما

سلكاً موحداً لقلائده ، هما اللذان جعلاً لشعره تلك الصبغة التي تميّز

بها ... صبغة ما كان ليشاركه فيها أحد ... هي هي طريقته في الالتزام

لطبيعة فنّه .

فقد انتهى به الخيط الابيض - في كمال نضجه - إلى أن يستخرج

العبرة بعد العبرة من حياته الحافلة بالعبر ، بعد تجريد كلّ عبرة من

ملايساتها ، بحيث تتألق في غيوم التجارب « حكمة » يسري حكمها على

البشر في كل زمان ومكان .

وانتهى به الخيط الملون - في نهاية المطاف - إلى أن يورد كلّ عبرة

من هذا النوع - بوعي الفطرة - حيث يقتضي سياق القول في ظرفه

الخاص ، فلا تجدها - في الديوان - إلا جزءاً من ذلك الظرف من

حياته لا يمكن ان تتجزأ عنه ، ولا هي مقحمة عليه إقحاماً ، كما هو

الشأن في الحكميّات عند سواه ، وما أروع الحكمة إذا أوتيت منطق

الفطرة الواعية (٢) .

١ لاحظ انك لا تستطيع ان تنثر أبياته - حتى في هذه السن - في أقل من الفاظه ، ولا أن تغير الفاظه

بأحسن منها (شهادة المعري) ... مهما بلغت عبارته أحياناً من التعقيد .

٢ ومن هنا صح فيه القول ان لغة الفساد ولدت فيه ابنها البكر ، فهو لسان غيبها المبين ، وميله

شعرائها على الاطلاق . راجع « الشعر وقصيته في الادب العربي الحديث » للمؤلف .

لقد طبق اليوم - فيصلها - الحافقين .

وهكذا أصبحت الحكمة عند المتنبي - كما سبق ان قرّرت (١) - امتداداً في الزمان ، بلا تعيين مكان ، لحكم سار « كالقضاء » على الخلق ، تطبقه الفنون (على اختلافها عبر القرون) عند غيرنا من أبناء الأمم الآخرين ، على مكان بعينه في زمنه الخاص بالتمثيل .

أخشى اني خرجت بالموضوع إلى غايته البعيدة ، فانما الذي اريد أن أتحدث عنه في هذا الفصل هو : كيف يجب ان ندرس المتنبي . ولذلك أقول لا بد لمن يحاول درس المتنبي - درساً جاداً - ان يمسك أولاً برأس السلك من هذين الحيطين في كل ما يمرّ به من كلامه - حيث وقع من كلامه - وإلا ضلّ عن قصد السبيل ، وفاته من المتنبي جوهره الاصيل .

* * *

فهذه واحدة ، وهي أبرز المعالم في طريقة المتنبي الفذة .

غير ان هناك معالم أخرى لا تقلّ عنها شأنًا ، تقوم كالدليل للساري على طول الطريق ، على رأسها ما يتعلّق بحالته العاطفية . فلقد ذكرت في صدر الحديث ان المتنبي « إذا اقتضى ظرفه القائم ان يعبر عن شيء يختلج في صدره لحينه ، أرسل الكلام مرتجلاً - أو في حكم المرتجل - ملتبساً بشعوره الحي ، بحيث لا تجد هناك الا ... عاطفة متأججة يعبر عنها بأطلاق حرارتها في الكلمات المواتية » .

وقد تستغرب إذا قلت لك انه يختلف في هذا عن سائر الشعراء ، ولكن هذا هو الواقع . لأنهم إنما « يتمثلون » العاطفة بينما هو يحيا فيها .

وجلية الأمر ان الشعراء - بدون استثناء ، فيما عدا صاحبنا - يلتزمون

١ في الدورة الرابعة لمؤتمر الدراسات العربية للجامعة الاميركية ببيروت المنعقد عام ١٩٥٤ .

لأنفسهم نوعاً من التزمّت الاجتماعي ، مثلهم كمثل ذي سلطان أو صاحب مركز لا يجوز لنفسه أن يخرج إلا بكامل أهبته امام الناس . فهم لا يرون من صفحة هؤلاء إلا الجانب الذي يبرزونه لهم ، لا ذلك الذي تواريه الخبايا عن أعينهم فيما يجاوز العلاقات العامة إلى خواص الشؤون . والشعراء عادة يلتزمون لمثل هذه الطلعة الفنية وجهاً واحداً في جلّ ما ينظمون ، تجعل لأثرهم طابعاً لا يعدوه .

بينما لا ترى المتنبي يلتزم هذا التزمّت الاجتماعي ، فانه يقف أمامك مدلاً بكل ما يغالب أسارير وجهه من العوامل العاطفية في جميع حالاته ، فهي ليست حالة (لنفسية فنان يعرض ما يقصد منه) واحدة يتعمّد تمثيلها بغيره ممن يعرضون بضاعة المديح ولا يسعهم غير تعمّد هذا التمثيل .

ومعنى هذا انه لا يقتصر موقفه بين يدي ممدوحيه على المسامرة الفنية في حفل مشهود ، كما هو مألوف عند سائر الشعراء ، بل يتجاوز بها إلى نوع من المخادنة التي لا ترعى مقتضيات الحفل وانما تقضي بالحق الصراح ، كما يجري بين الاخدان . (١)

هذا الاستبطان لحالات نفسية ، والقدرة على الاستجابة لها تواءم — مهما اختلفت البواعث وتنوّعت المناسبات — كان من أثرهما مثل قوله بين يدي سيف الدولة يعتذر على تخلفه عن المديح :

أرى ذلك القرب صار ازوارا	وصار طويل السلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلة	أموت مراراً وأحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحييا	وأزجر في الخيل مهري سرارا
واعلم اني إذا ما اعتذرت	إليك أراد اعتذاري اعتذارا
كفرت مكارمك الباهرات	ان كان ذلك مني اختيارا

١ تأمل قوله : شاعر المجد .. خدنه شاعر الف — ظ ، كلانا رب المعاني الدقاق

ولكن حمى الشعر إلا القليل
وما أنا أسقمت جسمي به
فلا تلزمني ذنوب الزمان
همّ حمى النوم إلا غرارا
ولا أنا أضرمّت في القلب نارا
التي أساء واياي ضارا

وهنا تكمن أسرار مأساته .

وقوله وقد بلغه ما جرى في مجلسه بعد ان فارقه إلى مصر :

تحملوا ! حملتكم كلّ ناجية
ما في هواجسكم من مهجتي عوض
فكلّ بين عليّ اليوم مؤتمن
ان مت شوقاً ، ولا فيها لها ثمن

• • •

رأيتكم لا يصون العرض جاركم
جزاء كل قريب منكم ملل
وتغضبون على من نال رفقكم
فغادر الهجر ما بيني وبينكم
تجبر الرواسم من بعد الرسم بها
ولا يدرّ على مرعاكم اللّبن
وحظّ كل محبّ منكم ضغن
حتى يعاقبه التنغيص والمنن
يهاء تكذب فيها العين والاذن
وتسأل الأرض عن اخفافها الثفن

حالة نفسية معقّدة قلّ ما تجد لها مثل هذا التعبير عند سواه . ثمّ
قوله وهو يتنكّر لكافور أخيراً :

.. ويلمّها خطّة ويلمّ قابلها
وعندها لذّ طعم الموت شاربه
من علّم الاسود المخصيّ مكرمة
أم اذنه في يد النحاس دامية
اولى اللّثام كويضير بمعدرة
وذاك ان الفحول البيض عاجزة
لمثلها خلق المهرية القود
ان المنية عند الذلّ قنديد
أقومه البيض أم آباؤه الصيد ؟
ام قدره وهو بالفلسين مردود ؟
في كل لؤم ، وبعض العذر تفنيد
عن الجميل ، فكيف الحصية السود

والتي خرج على اثرها من مصر هارباً على وجهه .

• • •

فهذه ثانية في المعالم ، وقد كانت « القدرة على استبطان الذات والتعبير عنها تعبيراً حاراً . »

وتغلغل الحديث إلى ذات المتنبي يؤدي بنا إلى صفة أخرى في هذه الذات اشتبه أمرها على كثير من أهل الحصافة والرأي ، فانساقوا إلى أحكام جائزة وهم لا يعلمون ، وهي أيضاً من معالم الطريق لأنها تتعلق بالذات الناطقة في الشاعر .

فان هذه الذات التي ينطق بلسانها الشاعر ليست دائماً ذاته كفرد (١) فهو كثيراً ما يلبس ذاتاً أكبر من ذاته عندما يفرض عليه التزامه لطبيعته الفنية ذلك ، أي ان ينطق أحياناً بلسان حال الجماعة الذين هو أحد أفرادهم . وقد رأيت في بدء منشأ الصبي من كانوا هذه الجماعة ، وبماذا كانوا يتساندون أو يتواصون .

فلا غرو إذا رأيت في شعر المتنبي ما يمثل لسان حال تلك الجماعة ، دون أن يسري حكم منطق الغائي عليه إلا كفرد منهم . والغفلة عن هذه الحقيقة هي التي جعلت الناس في ريبة من أمره كلما ردّد صدى أهواء تلك الجماعة بروح ناثر ولهجته .. كما هو المبغي منه . فاذا سمعوا قوله ، وقد مرّت عليك أبيات منها :

لقد تصبّرت حتى لات مصطبر	فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركنّ وجوه الخيل ساهمة	والحرب أقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها ، والزجر يقلقها	حتى كأن بها ضرباً من المم
قد كلّمته العوالي فهي كالحة	كأنّما الصاب مذرور على اللجم
بكلّ منصلت ما زال منتظري	حتى أدلت له من دولة الخدم

(وأنت تدري أيّ خادم يعني) . وقوله على نفس الوتيرة :

وان عمرت جعلت الحرب والدة والسمهرى اخا . والمشرقي أباً

١ راجع الفصل الأول من « الشعر وقضيته » للمؤلف .

بكلّ اشعث يلقى الموت مبتسماً
قحّ يكاد صهيل الخيل يقذفه
فالموت أعذر لي ، والصبر أجمل بي
وَقوله مصرّحاً أكثر :

أقراراً ألدّ فوق شرار ؟
دُون ان يشرق الحجاز ونجد
ومراماً أبغي ، وظلمي يرام ؟
والعراقان - بالقنا - والشّام
قال العكبري معلقاً : ولعلّ هذه البلاد قد كانت لآبائه ، فاغتصبت
منهم ، فهو يحاول أن يستردها ..! وأضاف قائلاً : وهذا من حماقته
المعروفة ، ولا بد له في كل قصيدة من مثل هذا .

فهل ظنّ العكبري انها ملك آباء وأجداد هؤلاء ؟... فلا يجوز
استخلاصها منهم ؟ لقد مرّ بك وصف واقع العالم الاسلامي الممزق
آنذاك ... وما كان عليه حال المسلمين في مستهلّ القرن الرابع ...
وكيف كان ينطبق على عصره قوله :

انما أنفس الأنيس سباع بتفارسن جهرة واغتيالاً

فماذا كان ينكر الجماعة من حال العالم الاسلامي ؟
لقد أوجزت لك فيما مضى أية أحوال كانت تبده عيني الفتى وهو
يرى العرب وسط هذا الخضم من العالم الاسلامي كالزورق التائه ، وأية
أهوال كان يعانيها من الهموم الفكرية وهو يتلظى مع اشراف قومه من
غبن الزمان . (١)

يقول الاستاذ مالك بن نبي الفيلسوف المعاصر (الجزائري) (٢) في
المشكلة الاسلامية :

١ المتنبي لم ينقطع عن الانحاء باللائمة على الدهر طول حياته .

٢ راجع « مستقبل الاسلام » لمالك بن نبي .

« القاسم المشترك بين جميع هذه المشاكل (التي يعانيها العالم الاسلامي اليوم) هي المشكلة الاسلامية وتسلسلها التاريخي منذ الهجرة . فإذا ما مثلنا سير هذا التسلسل بنقط منحني عثرنا في مكان ما من هذا الخط على نقطة تقع حوالي عصر ابن خلدون انقلبت عندها القيم الاسلامية إلى قيم لا وزن لها . ولم يكن هذا الانقلاب فجائياً بل هو نهاية البتر القديم الذي حدث في « صفين » وأحلّ السلطان الملكي محل السلطان الديموقراطي الخلفي وفصل الدولة عن الضمير الشعبي ، وذلك لأن هذا الانفصال كان نذيراً بجميع الانفصالات المقبلة والتناقضات السياسية المتأخرة داخل الاسلام . وإذا نظرنا إلى الحوادث من الناحية السياسية بدا لنا هذا الانفصال الاول كأزمة من الازمات التي تغير عبر التاريخ نظام بلد من البلدان ثم يأتي زمن ليس فيه من فرد يقوم على حفظ السلطان والاستيلاء عليه للتوفيق بينه وبين النظام الجديد . فإذا بالصوبلحان يهوي من تلقاء نفسه ويتحطم فيسارع صغار الملوك إلى الاستيلاء على اشلائه المتناثرة . »

ويقول في أسباب حرب صفين :

« فلقد شهد العالم الاسلامي أول تفسخ فيه في معركة صفين سنة ٣٧ هجرية ، وذلك لأنه كان يعاني - رغم حداثة مولده - تعارضاً داخلياً فيه . هذا التعارض هو النضال بين روح الجاهلية وروح القرآن ، فكان ان قضى معاوية الفاتر الايمان على هذا التوازن بين الروح والزمن . فقد العالم الاسلامي منذ هذا التفسخ توازنه الاول بالرغم من استمرار المسلم في تعلقه بعالم الروح الكائن في نفسه

المؤمنة ... لم يعيش العالم الاسلامي بعد هذه الازمة الاولى في تاريخه إلا بفضل ما بقي فيه من الدفعة الحية القرآنية . فقام على رعايته رجال ... تجسدت فيهم فضائل الاسلام الكبرى البسيطة ... تلك هي الفضائل - القائمة على احتقار المجد ورفض السلطان ومجابهة الظلم - التي حفظت في العالم الاسلامي خميرة الحياة التي وضعها القرآن فيه . »

ويقول في المدينة الاسلامية :

« ان المدينة الاسلامية لم تكن سوى توفيق بين عقائد الاسلام وواقع الامر الذي نتج عن صفتين - . ولقد لقيت المدارس التشريعية عناء كبيراً لتحقيق هذا التوفيق والوقوف في وجه سلطان ماكي مستبد . وهكذا فليست المدينة الاسلامية مستقاة من العقيدة الاسلامية بل ان هذه العقيدة قد انسجمت ، على العكس ، بقدر الامكان مع نظام زمني اجبرت عليه . »

ويقول في الجذور العريقة لاختطاطنا اليوم :

« لأن القرآن كان في مذهبه الفلسفي علماً يتجاوز آفق الضمير الجاهلي . نشأ عن ذلك انفصال بين من تمثلوا الفكر الجديد وبين من ظلوا متعلقين بالتقاليد والنظريات الاجتماعية وظروف الحياة التي جاء القرآن للقضاء عليها . »

« ولقد كان هذا التأخير في العالم الاسلامي سبب معركة صفتين ... هذه الحادثة هي أساس التاريخ الاسلامي منذ ثلاثة عشر قرناً ، وهي تكمن وراء أحداث تاريخية أخرى وتكشف عنها المنازعات الشديدة اثر كل ازمة . وما مذهب

الحوارج والمعتزلة في الميدان السياسي وفي الميدان الفكري سوى محاولة للرجوع إلى الفكر القرآني الذي لم يخضع بعد للضمير المتأخر . ولقد كان موضوع هذه المنازعات الانفصال بين العالم الاسلامي الزماني وبين الفكر القرآني . وإذا كان الانحطاط نتيجة لهذا الانفصال فان النهضة ، على العكس ، إنما هي محاولة العالم الاسلامي (اليوم) في الميدان النفسي للحاق بالفكر القرآني والفكر العلمي الحديث . « (١)

إن الذي يعيننا من هذه النصوص القيمة هنا العرض التاريخي ، فإذا كان هذا ما يبرر للحوارج والمعتزلة موقفهم فكيف بالعلويين الذين لم تنقطع ثورتهم قط منذ القرن الاول - وقد كانوا بحسب معتقدهم هم « الحصم » في القضية ؟ ولعل هذا يلقي ضوءاً على نغم الثورة الذي يتردد صدهاء في شعر المتنبي كله .

* * *

فهذه ثالثة في العالم ، وقد كانت « الاخذ بشعار الجماعة وتوطيد مبادئهم في النفوس » ايذاناً بالثورة المدوية . بقي أخيراً أمر يتعلق بطريقة المتنبي في الصميم من وجهة تطورها الفني .

فان هذا الشعر الذي يحفل به الديوان هو نتاج عمر لأنسان ثائر منذ شبّ وليداً حتى شارف على ما يسمونه « شباب الشيخوخة » . وينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

(أ) ما كان منه قبل الاتصال بسيف الدولة ٣١١ - ٣٣٦

(ب) ما كان في صحبة سيف الدولة ٣٣٧ - ٣٤٥

١ راجع « مستقبل الاسلام » للملك بن نبي .

وهذا التقسيم الذي يساير حياة المتنبي يحتمل من وجهة الصنعة تقسيماً فرعياً آخر ، ففي القسم الاول شطر قد نظمه - كما رأيت - وهو صبي بالكوفة ، وشطر نظمه وهو يشد رحاله بين القبائل قبل نزوحه بالتالي إلى الشام . وفي القسم الثاني شطر نظمه في مدح الامير العربي خالصاً لوجهه وشطر تناول فيه وصف حروبه ، وفي القسم الثالث شطر هو ما أنشده بين يدي كافور أو بسبب منه في مصر وشطر هو ما نظمه - آخر ما نظم - في فارس ، غير ما كان ينشده كنجوى بينه وبين نفسه محلاً معللاً ، أو ينظمه جهوري الصوت مكبراً لذاته (الناطقة بلسان الجماعة) (١) في كل هذه الفترات .

ولا مشاحة ان شعراً يستغرق نظمه كل هذه السنوات (٣١١ - ٣٥٤) يظهر عليه من اثر المعاناة حسن الاختيار ما يظهر على صاحبه من الاتعاظ وطول الاختبار ، ومع هذا فقد مضى أكثر الادباء محاسبون المتنبي لأنه لم ينهج في ديوانه كله على غرار ، (٢) أو لأنه لم يثبت من نفسه السائلة على قرار . (٣)

فيسأل بعضهم لماذا بدأ حياته « بمدح القريب والغريب ، ويصطاد ما بين الكركي والعندليب (٤) » ؟ والجواب على ذلك : بآية ما رآه مفروضاً عليه - في عصره - من الالتزام لطبيعة هذا الفن . فقد كان

١ فكأنما هي أناشيد الثورة - في عصرهم - لاستظهار الأحداث . ولعل الجزائريين هم الناس اليوم الذين يفهمون هذه اللهجة .

٢ من معجزة هذا الشاعر العربي ان كل بيت نظمه بلا استثناء (وتبلغ المجموعة ٥٤٩٤ قافية) هو موضع أخذ ورد عند الأدباء منذ نظمته إلى اليوم ، فكأنما هو ينطق بلسان الغيب حين قال :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

٣ ان كانوا يعنون لماذا أحب ثم أبغض أو مدح ثم هجا ، فقد كشفنا لك جلية أمره في بعض هذه المعالم لطريقته . ونضيف هنا : لأن الرجل لم يكذب نفسه قط !

٤ راجع « يتيمة الدهر » للعلابي .

لا بدّ له كفتان ان يبرز في الميدان هذه البرزة ، حتى إذا جاء سباقاً
أمكنه ان يبلغ صوته اسماع الجماهير . ولذلك نجشّم منذ صباه الاسفار
البعيدة .

وهو نفسه كان يشعر أحياناً بوعورة هذا المسلك ، فقد قال في ساعة
من ساعات الضيق تلك الأيام :

إلى كم ذا التخلّف والتواني ؟ وكم هذا التهاذي في التهاذي ؟
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد ؟
وما ماضي الشباب بمستردّ ولا يوم يمرّ بمستعاد

ولكن لم يمكنه غير ذلك . فكيف يؤاخذ المرء أو يلام على مماشاته
الزمن وتدرّجه مع الأيام ؟ إن احداً ليكون اليوم غيره أمس ، فكيف
نطلب من « داعية » كالتنبي ألا يختلف غده عن أمسه ؟

ولكننا في ديوان هذا الشاعر مع ذات حيّة ، لا يهتمها إلا أن تحيا
حياة « فتية » ، فستراها إذ يعيش بها صاحبها مرّ النفس صعب الشكيمة ،
تصعد كلّ أنفاسها ... لقومها ... لشعارها ... لفنّها ، من يوم إلى
يوم ... في الانتظار . حتى إذا شاء لها الله أن تلفظ نفسها الاخير
وجدنا كلّ ذلك - ينتفض من جديد - بين دفّتي هذا الديوان .
فهذا - ان شئت - هو جوابي على سؤال من سألي مرة : كيف
يجب إذن أن ندرس المتنبي ؟ وذلك على ضوء ما نظمه في صباه .

الباب الثالث

لمن كان ينظمُ المتنبى

لقد لاحظنا على ضوء رفقتنا للصبي ، منذ أيام الحداثة ، كيف انه كان يحاسب نفسه كشاعر على كل لفظة ينطق بها ويعرف بالدقة موقعها من البيان ، وكيف انه كان يغزل لسلك قلائده خيطين ناعمين ، يلويهما معاً أحياناً ، تقتل للملون منهما .. العاطفة الجاحمة ، ويحبك للأبيض .. العقل الرصين . (١)

فأما الخيط الملون .. الأداء المرسل .. فقد كان يطلقه في المواقف التي لا يستطيع ان يملك فيها زمام نفسه ، وحيث لا مجال للتروي . وأما الخيط الأبيض .. الأداء المعقّد .. فقد كان يتعمّده حيث يسمح الظرف بغربة القول — على مهل — والخلاص إلى لبّه وطرح النخالة منه . يظهر من هذا ان معوّله على النهج الاول — خاصّة — انما يكون في

١ لسان حاله اليوم بالنسبة إلى العرب — في كلا الحالين — ما أنشده الغزالي :

غزلت لهم غزلاً دقيقاً ، فلم أجسد لغزلي ناسجاً ، فكسرت مغزلي

نجوى نفسه بالاستبطان (Soliloquy) (١) ، وليست لهذا الاستبطان
اية علاقة بالنس . فها هو في طريق الشام ينشد لنفسه وحدها :

وأونة على قلب البعير وأنصب حرّ وجهي للهجير كأنني منه في قمر منير على تعبي بها . شروى نقير وعين ، لا تدار على نظير ينازعني .. سوى شرفي وخيري بشرّ منك . يا شرّ الدهور ! لحلت الاكم .. موغرة الصدور لجذت به ، لذي الجذّ العثور وما خير الحياة ، بلا سرور ؟	أواناً في بيوت البدو رحلى أعرض للرماح الصمّ نحري وأسري في ظلام الليل وحدي فقل .. في حاجة ، لم أقض منها ونفس ، لا تجيب إلى خسيس وكفّ ، لا تنازع .. من أثنائي وقلّة ناصر : (جوزيت عني عدوّي كلّ شيء فيك ، حتى فلو انني حسدت على نفيس ولكنني حسدت على حياتي
---	--

ويشبهه قوله وقد خرج من مصر هارباً :

إلى من اختضبت اخفافها بدم ولا أشاهد فيها عفة الصم (المجد لل سيف ، ليس المجد لل قلم فانما نحن للأسياف كالخدم) ! فان غفلت فدائي قلّة الفهم أجاب كل سؤال عن « هل » ب « لم »	مازلت اضحك ابلي كلما نظرت أسيرها بين أصنام أشاهدها حتى رجعت وأقلامي قوائل لي : اكتب بنا ابدأ بعد الكتاب به أسمعتني ، ودوائي ما أشرت به من اقتضى بسوى الهندي حاجته
---	--

وكذلك قوله وهو يتذكّر سيف الدولة بعد مفارقتها :

عشية شرقيّ « الحدالي » و « غرب » وأهدى الطريقين الذي اتجنّب	ولله سيري ما أقلّ تيّنة عشية احفى الناس بي من جفوتّه
--	---

١ راجع كتاب « الاساليب الشعرية » للمؤلف .

أو قوله في آخر صنيعة معه :

فلو كان ما بي من حبيب مقنّع
رمى واتقى رميي، ومن دون ما اتقى

أو قوله يناجي قلبه والهاً عليه :

حبيبتك قلبي ! قبل حبك من نأى
واعلم انّ البين يشكيك بعده
فانّ دموع العين غُدر بربتها

عذرت ، ولكن من حبيب معمم
هوى .. كاسر كفتي قوسى واسهمي

وقد كان غداً رآ ، فكن أنت وافيّا
فلست فؤادي ان رأيتك شاكيّا
إذا كنّ اثر الغادرين جواريا

أو قوله وهو يرثي أخته الكبرى من الكوفة :

قد كان كلّ حجاب دون رؤيتها
ولا رأيت عيون الانس تدركها
وهل سمعت سلاماً لي ألم بها ؟
وكيف يبلغ موتانا ، التي دفنت

فما قنعت لها ، يا أرض ، بالحجب ؟
فهل حسدت عليها أعين الشهب ؟
فقد أطلت ، وما سلّمت من كُثب
وقد يقصّر عن أحيائنا الغيب ؟

ومثلها قوله قبيل الاتصال بسيف الدولة :

اليّ لعمرى قصد كل عجيبة
بأي بلاد لم أجزّ ذؤابتي ؟
كأنّني عجيب في عيون العجائب
وأني مكان لم تطأه ركائبي ؟

فهو في هذا إنما كان ينظم خالصاً لنفسه .

* * *

وكذلك هو كان يعوّل على هذا النهج - عموماً - في مطارحة حديث
لا معدى له عن الافضاء به لتوّه ، حسب مقتضى الظرف الماثل من
حياته . وقد كانت له قدرة « المايسترو » (Maestro) على التوقيع في
هذا النهج على كلّ الغموط (Gamut) من مراقي العواطف - هابطة
صاعدة - على اختلاف ألوانها ، فلم تعيه - ولا مرّة - الكلمة « الدالة »

لتحديد الغرض وأصابته في الصميم .

مثل قوله في أوائل عهده بالنظم :

أين فضلي ؟ إذا قنعت من الدهر ر بعيش معجل التنكيد ؟
ضاق صدري ، وطال في طلب الرز ق قيامي ، وقلّ عنه قعودي
أبدأً أقطع البلاد ، ونجمي في نحوس ، وهمتي في سعود

وقوله وقد اطمأنت به الحال بعد عشرين عاماً :

انا الذي بينّ الاله به الاق مدار والمرء حيثما جعله
جوهرة .. تفرح الشراف بها وغصّة لا تسبغها السفله
ان الكذاب الذي أكاد به اهون عندي من الذي نقله

(اول اشارة له - كما ترى - إلى التهمة الباطلة التي روجوها - وقتها -

بإدعائه النبوة)

فلا مبال ، ولا مداج ، ولا وا ن ، ولا عاجز ، ولا تكله
ودارع سفته ، فخرّ لقي في الملتقى ، والعجاج ، والعجله
وسامع رعته بقافية يحار فيها المنقح القوله
وربما اشهد الطعام معي من لا يساوي الخبز الذي اكله
ويظهر الجهل بي ، وأعرفه والدرّ درّ .. برغم من جهله

أما كيف تعجّ موسيقى عواطفه إذا أثارها هادئة هنا صاحبة هناك .

فها هو يقول بين يدي الموت ، راثياً أخت سيف الدولة الصغرى :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس ، وأشهى من أن يملّ ، وأحلى
وإذا الشيخ قال : أف ! فما مـ لّ حياة ، وانما الضعف ملاّ
آلة العيش صحّة ، وشباب : فاذا ولّيا عن المرء ، ولّيا
أبدأً تستردّ ، ما تهب ، الدنـ يا ، فياليت جودها كان بخلا

فكفت كون فرحة تورث الغم ، وخلّ يغادر الوجد خلاً
وهي معشوقة على الغدر ، لا تحفظ عهداً ، ولا تتمم وصلاً
كلّ دمع يسيل .. منها . عليها وبفكّ اليدين عنها تخلّي
شيم الغايات فيها . فما أدري .. اذا أثث اسمها الناس ، ام لا ؟

او وهو يصف دخول رسول ملك الروم عليه :

وأنتى اهتدى هذا الرسول بأرضه وما سكنت ، مذ سرت فيها . القساطل ؟
ومن أي ماء كان يسقي جياده ولم تصف من مزج الدماء المناهل ؟
أناك .. يكاد الرأس يجحد عنقه وتنقدّ تحت الذعر منه المفاصل .

أو وهو يصف هزيمة « وهشودان » في آخر عمره :

أرضيت وهشودان ! ما حكمت وأرضيت وهشودان ! ما حكمت
وردت بلادك غير مغمدة وردت بلادك غير مغمدة
والقوم في أعيانهم خزر والقوم في أعيانهم خزر
فأتوك . ليس لمن أتوا قبل فأتوك . ليس لمن أتوا قبل
لم يدرك من بالرّي أنهم لم يدرك من بالرّي أنهم
وأيت معترماً .. ولا أسد وأيت معترماً .. ولا أسد
يعطي سلاحهم ، وراحهم ، يعطي سلاحهم ، وراحهم ،
أسخى الملوك ، بنقل مملكة ، أسخى الملوك ، بنقل مملكة ،
لولا الجهالة ، ما دلفت إلى لولا الجهالة ، ما دلفت إلى

فهو في هذا انما كان ينظم لمن يطارحهم القول على رسله ، وذلك .
بحكم كونه فرداً بين جماعة ، يعرب لهم بلسانه .. وهم يفهمون بلسانه .
بينما لم يكن له غناء عن النهج الثاني حيث كان يلزمه التعمق في
الفكرة ، أو التوغل في الخيال ، أو الاغراب في الصنعة ، أو التغلغل
إلى دقائق المعاني ، مما استقام له السير فيه بعد مراس طويل . فقد-

(مرّ بنا (١) كيف) أدّت به هذه الطرق الضيقة المتوية إلى مرتع واسع خصب صحّ له التعبير به عن « طبائع النفس ومشاعل الناس ، واهواء القلوب ، وحقائق الوجود ، وأغراض الحياة » (٢) . وكأنما هو في كلّ ذلك ينطق بلسان الحياة « الأم » نفسها .
ولا نودّ أن نطرق باب الموضوع فلسنا بصدد شرحه الآن .

~ ~ ~

أما باعتباره فناناً بين زمريته من الفنانين فقد وجب عليه ، وإن عاش لفنه ، ألا يستأثر بهذا الفن . وهذا الذي جرّه إلى المزاحمة والطراد في ميدان كان لا بدّ له أن يجلي فيه ليجوز امتحان وتقدير أهل الحل والعقد . من « الحماة » الذين يقفون على رأس كلّ جبل ، ويتحكّمون — بحكم مركزهم — في أذواق بنيه .

تأمل مثلاً جوانب هذا المحفل الذي كان عليه أن يقوم فيه مادحاً بعد نباهة ذكره .. محفل آل حمدان . (٣)

فآل حمدان الذين تقلّب في كنفهم (لا أقلّ من عشر سنوات) كان كلّ امرئهم يقولون الشعر على السليقة . فقد كان فيهم القائل ...
كأبي فراس :

صبور ، ولو لم تبق مني بقيّة قوول ، ولو أن السيوف جواب
وقور . وأحداث الزمان تنوشني وللموت حولي جيئة وذهاب
ستذكر أيامي نكير ابن عامر وكعب — على علاقتها — وكلاب

١ راجع الفصل السابق .

٢ تاريخ الادب العربي للزيات . راجع كذلك « بين الحكمة والفن » للمؤلف .

٣ اعترف المتنبي لابن جني أن أحسن قصائده ما كان في سيف الدولة ، وإن أعلاها جميعاً قوله :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في أقدامك القسم ؟

لأنها كانت وداعاً . وتراجع شعره بعد مفارقتها ، وسئل عن السبب عن ذلك فقال : قد تجورت في قولي ، وأغفيت طبعي ، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان .

أنا الجار . لا زادي يطبيء عليهم ولا دون بابي ، للحوادث ، باب

وفيهم القائل ... كأبي زهير بن مهلهل بن نصر بن حمدان :

وقد علمت بما لاقته منا قبائل يعرب وبني نزار
لقيناهم بأرماح طوال تبشّروهم بأعمار قصار

وفيهم القائل ... كأبي العشائر :

أأخا الفوارس ! لو رأيت مواقفي والحيل من تحت الفوارس تنحط
لقرأت منها ما تخطّ يد الوغى والبيض تشكل ، والاسنة تنقط

وحتى سيف الدولة (١) كان يتعاطى الشعر بينهم فيحسن . فمن قوله
في فاتنة رومية وقعت له في السبي فاستأثر بها نفسه وأنزلها في قصر ..
بعيداً عن العاصمة :

راقبتني العيون فيك . فأشفق ت ، ولم أخل قطّ من اشفاق
ورأيت العذول يحسدني فيه لك اغتباطاً ، يا أنفاس الاعلاق !
فتمنيت ان تكونني بعيداً والذي بيننا من الودّ باق
ربّ هجر : يكون من خوف هجر وفراق ، يكون خوف فراق

فكان على شاعرنا ان يصدقهم في الوصف ويأتي به خلاّباً حتى
يستأنس الأمراء بحديثه ، حسب عرفهم وعاداتهم .. وقد حصل ذلك
فعلاً .

كان سيف الدولة يميل إلى ابي العباس النامي ميلاً شديداً إلى أن
جاءه المتنبي ، فمال عنه اليه . فغاض ذلك ابا العباس ، فلما كان ذات
يوم خلا بسيف الدولة وعاتبه وقال للأمير : لم تفضّل عليّ ابن عيدان

١ قال ابو الطيب : ما رد عليّ أحد شيئاً فقبلته إلا سيف الدولة ، فاني أنشدته : من جيف القتل ،
فقال : مه ! قل جثث القتل . فقبلت ، وقلت كما قال لي .

السقاء ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه . فلبّج وألحّ عليه وطالبه
بالجواب ، فقال : لأنك لا تحسن ان تقول كقوله :

يعود من كل فتح .. غير مفتخر وقد أغدّ اليه .. غير محتفل

* * *

فاذا جاوزنا أمر هؤلاء الامراء إلى من كان يحفّ بهم من الشهود ،
فهناك نرى أولاً شعراءهم . فقد كثر الشعراء حول سيف الدولة ينالون
جوائزهم ويشيدون بذكره ، حتى لقد اختار كاتبان حضرا مجلسه من
مدائح سيف الدولة وحدها عشرة آلاف بيت . كان منهم في مجلس
سيف الدولة خاصة ابو العباس النامي الذي ذكرناه وعلي الناشيء والسري
الرفاء وابو فرج البيغاء والأواء الدمشقي وابو الفتح كشاجم وابو نصر
ابن نباتة والصفري وابن كوجك وابن دينار والخالديان والرقّي والشيطمي ..
غير أبي ذر أستاذ سيف الدولة ، وبعض هؤلاء ممن كان يحفظ لهم
المتنبي في صغره ، درساً واستظهاراً ، وقد جدّت له معهم مواقف
الآن . فانه لما انشدهم قوله :

وخصر تثبت الابصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

قال السري : هذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون ، ثم أوردته
في شعره :

احاطت عيون العاشقين بخصره فهنّ له دون النطاق نطاق
وقد فتن بقوله :

يخدن بنا في جوزه ، وكأننا على كرة ، أو أرضه معنا سفر
فأورده :

وخرق .. طال فيه السير ، حتى حسبناه يسير مع الركاب

وفتن بقوله :

هام الفؤاد باعرايئة ، سكنت بيتاً من القلب ، لم تضرب به طنباً
فأورده :

وأحلتها من قلب عاشقها الهوى بيتاً بلا عمد ولا أطناب
وفتن بقوله :

ليت الغمام الذي عندي صواعقه يزيلهنّ إلى من عنده الديم
فأورده :

وإنا الفداء . لمن مخيلة برقه عندي ، وعند سواي من انوائه
وهناك غير السري أبو الفرج البيغاء ، يفتن بقوله :

وقد أخذ التهام البدر فيهم وأعطاني من السقم المحاقا
فيقول :

يا من يحاكي البدر عند تمامه ارحم فني يحكيه عند محاقه
والكاتب أبو الفتح البستي ، يفتن بقوله :

وان تكن تغلب الغلباء عنصرها فان في الخمر معنى ليس في العنب
فيجهد حتى يقول :

أبوك حوى العليا ، وأنت ميرز عليه ، إذا نازعته قصب المجد
وللخمر معنى ليس في الكرم مثله وفي النار نور ليس يوجد في الزند
وخير من القول المقدم — فاعترف — نتيجة ، والنحل يكرم للشهد

كما يفتن بقوله :

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

فيصيره إلى :

لا غرو ان لم نجد في الدهر مخترفاً فقد أتيناه بعد الشيب والخرف
وابو الحسن السلامي يفتن بقوله :
هي الغرض الأقصى ، ورويتك المنى ، ومترك الدنيا ، وأنت الحلائق
فيقول :

وبشرت آمالي بملك .. هو الورى ، ودار .. هي الدنيا ، ويوم .. هو الدهر
وابو القاسم الزعفراني ، يفتن بقوله :
لم تزل تسمع المديح ، ولك من صهيل الجياد غير النهاق
فيقول :

وتغنيك - في النداء - طيور انا وحدي ما بينهنّ الهزار
والشواهد لا تكاد تحصى . (١)

فكان لزاماً عليه ان يتصرف في غرائب المعاني وتوليدها . ويدأب
على التفوق فيها بين هؤلاء حسب شروطهم وموازينهم .

* * *

وهناك ثانياً العلماء والادباء من أمثال ابن خالويه ، وابي علي

١ قال ابو العباس النامي مرة : كان قد بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبي وكنت أشتهي ان أكون
سبقته إلى معنيين قاهلها ، ما سبق اليهما ، اما احدهما فقواه :

رمانني الدهر بالارزاء ، حتى فزادي في غشاء من نبال
فصرت .. إذا أصابني سهام تكمرت النصال على النصال
والآخر قوله : في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان
ونحن نعلم الآن من أين أخذ المتنبي مادته الخامة . (راجع فصل « صبي في المكتب ») .

الفارسي ، وابي الطيب اللغوي ، والقاضي التنوخي ، وابن نصر البازيار ،
والشمشاطي ، والفياض .. غير الفيلسوف ابي نصر الفارابي .

يحضر المتنبي مجلس ابن نصر البازيار - وكان وزير سيف الدولة -
وعنده ابن خالويه ، فيماريان في اشجع السلمي وابي نواس . فقال
ابن خالويه : أشجع اشعر إذ قال في هارون الرشيد :

وعلى عدوك ، يا ابن عمّ محمد رصدان ، ضوء الصبح والاضلام
فاذا تنبه رعته ، وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

فقال المتنبي لأبي نواس ما هو احسن في بني برمك ، وهو :

لم يظلم الدهر ، إذ توالى فيهم مصيباته دراكا
كانوا يحبرون ، من يعادي ، منه ، فعاداهم لذاكا (١)

وقصة ابي علي الفارسي مع المتنبي مشهورة . فقد كان - وهو
بشيراز - يستثقل المتنبي ، كلما مرّ على داره في طريقه إلى عضد
الدولة ، على قبح زيّه وما يأخذ به نفسه من الكبرياء . وكان لابن
جنّي هوى في ابي الطيب ، كثير الاعجاب بشعره ، لا يبالي بأحد
يذمه أو يحطّ منه ، وكان يسوّه اطناب ابي علي في ذمّه . واتفق
ان قال ابو علي يوماً : اذكروا لنا بيتاً من الشعر نبحت فيه . فبدأ
ابن جنّي وأنشد :

حلت دون المزار ، فالיום لو زر ت ، لحال النحول دون العناق
فاستحسنه ابو علي واستعاده ، وقال لمن هذا البيت ؟ فانه غريب
المعنى .. فقال ابن جنّي : للذي يقول :

ازورهم .. وسواد الليل يشفع لي وأنثني .. وبياض الصبح يغري بي

١ لاحظ كيف كان المتنبي حتى في نقده يهتم بالمعنى دون الديباجة .

فقال : والله هذا احسن ، بديع جداً . فلمن هما فقال للذي يقول :
أمضى ارادته ، ف « سوف » له « قد » واستقرب الأقصى ، ف « ثم » له « هنا »
فكثّر اعجاب ابي علي واستغرب معناه ، وقال : لمن هذا ؟ فقال
ابن جني : للذي يقول :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلی

مضرّ ، كوضع السيف في موضع الندى

فقال : وهذا احسن ! والله لقد أطلت يا أبا الفتح ، فأخبرنا من
القائل . فقال : هو الذي لا يزال الشيخ يستقله ، ويستقبح زيّه
وفعله ، وما علينا من القشور إذا استقام اللب . قال ابو علي : اظنك
تعني المتنبي ؟ قال : نعم . قال : والله لقد حبّبه إليّ .
ونفض ودخل على عضد الدولة ، فأطال في الثناء على ابي الطيب .
ولما اجتاز به استنزله واستنشدته وكتب عنه أبياتاً من الشعر في جزء من
كتاب التذكرة .

ويقول ابن جني : قال لي المتنبي يوماً أتظنّ ان عنايتي بهذا الشعر
مصرفه إلى من امدحه به ؟ ليس الأمر كذلك ، لو كان لهم لكفاهم
منه البيت . قلت : فلمن هي ؟ فقال : هي لك ولأشباهك . (١)

١ قال ابن حمزة البصري : كنت حاضراً بشيراز وقد سئل المتنبي عن معنى البيت :

وكان ابنا عدو - كسائرهم له ، يائي حروف أنيسان

وقت عرضه القصيدة ، فالتفت إلي وقال : لو كان صديقنا ابو الفتح (ابن جني) حاضراً لفسره لهم .
وقال المتنبي في كلمة تفاح (تفاعل من فاح) في بيته :

إذا سارت الاحداج فوق نباته تفاح مسك الغانيات ورنده

لما قلت هذه الكلمة تناولها شعراء مصر ، فاستعملوها في أشعارهم .

وسأل المكبري شيخه أبا الحرم : ما بال شعر المتنبي في كافور أجود من شعره في عضد الدولة وأبي
الفضل بن العميد ؟ فقال : كان المتنبي يعمل الشعر للناس لا للمدوح . وكان ابو الفضل بن العميد
وعضد الدولة في بلاد خالية من الفضلاء . وكان بمصر جماعة من الفضلاء والشعراء ، فكان يعمل
الشعر لأجلهم ، وكذلك كان عند سيف الدولة بن حمدان .

راجع « ديوان أبي الطيب المتنبي » تحقيق عزام .

ثم ان المتنبي كان مثلهم عالماً حجة في اللغة . وإذا كان كذلك فقد أخذ على نفسه ان يلم في شعره اشتاتها . ولا يبالي بمطاريحات العامة ، في سبيل افادة الخاصة ، وماله والعامة ؟

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضباناً عليّ لئامها

فان ديوانه على صغر حجمه بين الدواوين يحتوي من الفصحى على صيغ والفاظ لا يضارعه عليها ديوان آخر إذا استثنينا المعري ، مع ان المتنبي لم يكن يتكلف ادخال الغريب في شعره تشدقاً ، أو ينظم أوراقاً بعد أوراق لمجرد سلك القوافي المتجانسة في نظام ، كما فعل شاعر المعرة في لزومياته . وان ما ورد في شعره من مصطلحات فنون اللغة وحدها في معرض الوصف الفائق للدليل - اقنع القوم - على تفننه في التعبير . كما في قوله واصفاً صدق العزيمة :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى ، قبل ان تلقى عليه الجوازم
أو واصفاً كثرة قلة :

وكان ابنا عدو - كاثراه - له - يائي حروف أنيسيان

أو واصفاً ما دون العناق :

دون التعانق ، ناحلين ، كشكلتي نصب ، أدقهما وضم ، الشاكل

أو واصفاً تواري المنهزمين :

« قشير » و « بلعجلان » فيها خفية كرائين في ألفاظ ألغ ناطق

مما يدخل عندنا في باب « الاستقصاء الفني في التمثيل » .

فكان لزاماً عليه الا يترك في شعره ثغرة يوتئ منها بين انداده هؤلاء . وإنما يكافح للظفر باعجابهم حسب علومهم وثقافتهم اللغوية .

ولا نودّ أن نتعرّض لحسد الحاسدين .

* * *

ووراء ذلك كان عليه - وهو داعية « قومه » - ان يقوم ببثّ الدعوة ... في غصون الحديث أحياناً . فهو حتى إذا مدح استباح لنفسه ان يقول في المدوحين هؤلاء .

مدحت قوماً ، وان عثوا ، نظمت لهم قصائداً من اناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوافيها مضمّرة إذا تنوشدن ، لم يدخلن في الأذن
يقول مثلاً في قصيدة مدح بها الحصبي :

أفكر في معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادي
زعيم للقنا الخطي عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي

ويقول في قصيدة مدح بها عليّاً التنوخي :

سأطلب حقي بالقنا ، ومشايخ كأنهم من طول ما التشموا مرد
ثقال إذا لاقوا ، خفاف إذا دعوا ، قليل إذا عدّوا ، كثير إذا شدّوا
وطعن ، كأن الطعن لا طعن عنده وضرب ، كأنّ النار من حرّة برد
إذا شئت ، حفّت بي على كل سابح رجال ، كأنّ الموت في فمها شهد
ويستبطئ المطلب فيقول :

لله حال ، ارجيها .. وتحلفني واقتضي كونها دهري .. ويمطلني
وكل هذه أبيات أنشدها بين يدي ممدوحين في الشام ، في قصائد
مدحهم بها ، في الثمان سنوات التي أعقبت سجنه (٣٢٥ - ٣٣٣) ،
وسنّه لم تتجاوز الثلاثين . (١)

١ يقول الثعالبي : وما زال وهو في برهجه . د إلى أن خلق برد شبابه ، وتضاعفت عقود عمره ،
يدور حب الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه ، في الخروج على
السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الاطراف ... (كذا) .
ولم يسأل الثعالبي نفسه ، ولا مرة : لماذا ؟
راجع « يتيمة الدهر »

فهو في هذا إنما كان ينظم بلسان حال جماعة على أهبة ثورة ،
عرف - ونجهل - دخائلها ويسوق حديثه اليهم . بينما لسان حاله من
الدعوة كما قال :

و « كلمة » في طريق ، خفت اعربها فيهندي لي ، فلم أقدر على اللحن

• • •

وباعتباره أخيراً فنّاناً فذاً - ولا كالفنّانين - كان عليه ان يشامخ
عصره ، ويمدّ نظره إلى ما وراء الآفاق ، ويتحدث بلسان الغيب
للأجيال التي تقصر في الخطى دونه ، بما تحمل لهم الأيام من
عبرة واستعبار ، ويستطلع الوحي من مظان النفوس وأهواء
القلوب .

فإذا اكتفوا هم بقول القائل فيهم :

تلك آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

قال هو لهم :

تختلف الآثار عن أصحابها حيناً ، ويدركها الفناء ، فتتبع

ويقول في مجلس سيف الدولة :

شرّ البلاد مكان لا صديق به وشرّ ما يكسب الانسان ما يهيم
وشرّ ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم
وقد أخذ مادّتهما بلحناً من قول صاحب العلوي ، الداعي
بطبرستان :

انا من جناب سواك في مرعى ند وأقيم عندك في جناب مجذب
ان كنت ذا بصر ، فميز فضل ما بين الفراء وبين صيد الأرنب
فأحاله في بوتقة فنّه نضاراً لمن يعي من قومه ، لو كانوا يعقلون .

وهو في هذا إنما كان ينظم للعرب في كل عصر وجيل ، ويلخص لهم في قنينة طيب عصارة ما تحمله بشائر ربيع البشرية كلها - على تنوع الحضارات - من ورد « الحق » وريحانه ، لا يقتنيها إلا الطيبون منهم الطاهرون .

وحالفه التوفيق في جلّ - إن لم نقل كلّ - ما نظم ، على الرغم من تعدّد جهات المستمعين إليه ، واختلاف مشاربهم . ولكنه لم يحاول قط أن يتخطى بروحه مبادئ العرب القومية ، ولا غاياتهم المثلى في كلّ ما قاله .

لأولئك جميعاً نظم المتنبي ديوانه في القرن الرابع للهجرة ... آية الفن العربي ، وصدق أبو الطيب :

ما نال أهل الجاهلية كلّهم	شعري ، ولا سمعت بسحري بابل
وإذا اتتك مذمتي من ناقص	فهي الشهادة لي بأني كامل

الباب الرابع

تفصيل القصائد عند المتنبي

لقد رأينا في فصل « المفتاح » كيف ان الشعر العربي — في منتصف القرن الثالث — كان قد انتهى بطريقة نظمه إلى مدرستين ، على رأس أولاهما ابو تمام ، وعلى رأس الثانية البحتري ، وكلاهما طائفتان . والاختلاف بينهما يقوم على الاداء الفني ، إذ كان اعظم مميزات الاداء المحبك عند مدرسة ابي تمام « البلورة » و « التركيز » ، مرصعاً بالمحسنات البديعية ، كما ان اهم مميزات الاداء المرسل عند مدرسة تلميذه كان « الرصف » و « الانسجام » ، موقّعاً بنغم الألفاظ . (١)

١ يروى عن البحتري — وقد سئل عن نفسه وعن ابي تمام — انه قال : هو أغوص على المعاني ، وأنا أقوم بعمود الشعر .. ولعلك تستطيع ان تلمس الفارق الفني بينهما في قول ابي تمام :

وقد يكهم السيف المسمى منية	وقد يرجع المرء المظفر خائباً
فأفة ذا ان يصادف مضرباً	وآفة ذا ان لا يصادف ضارباً
وقول البحتري رمى كلب الاعداء عن حد نجدة	بها قطعت تحت العجاج مناصله
وما السيف الا بز غاد لزينة	إذا لم يكن أمضى من السيف حامله

هذا الانعكاف الكلتي على المحسنات البديعية من جهة اولى
المدرستين ، وبالتنغم اللفظي من جهة ثانيتهما كان من جرأته ان استهدفت
الطريقتان إلى الامتحان . فأما أذاه عند ابي تمام فقد كان « تكلفه » ،
وكأنما هو يتعكز على ألفاظه في كل خطوة .

من دوحه الكلم الذي لم ينفكك وقفنا عليك رصينه ، محبوسا
مما دعا اسحق الموصلي — وقد سمعه مرة ينشد في مجلس الحسن بن
وهب — ان يقول له : « يا هذا ! لقد شققت على نفسك . إن الشعر
لأقرب مما تظن » . واما اذاه عند البحري فقد كان في هذا « العبث »
الذي جعله مرة سخرية في ديوان المتوكل . (١)

وكلاهما ينظر إلى قول ابي العتاهية في هاشمي :

وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا
فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخا
أرى قومك ابطالا وقد أصبحت بطلا

واستطاب المتنبي ان يقول بعدهم في هذا المعنى :

ان السيوف مع الذين قلوبهم
تلقى الحسام على جراءة حده
كقلاوبهن إذا التقى الجمعان
مثل الجبان ، بكف كل جبان

١ قال الصيمري : كنت عند المتوكل والبحري ينشد :

عن أي ثغر تبسم وبأي طرف تحتكم
حتى بلغ إلى قوله قل للخليفة جعفر الـ متوكل بن المعتصم
المجتدي للمجتدي والمنعم بن المنتقم
اسلم لدين محمد فاذا سلمت فقد سلم

قال : وكان البحري من أبغض الناس انشاداً يتشادق ويتزاور في مشيه ، مرة جانباً ومرة القهقري
ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولوا
أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن احد ان يقول مثله . فضجر المتوكل من ذلك وأقبل علي وقال :
أما تسمع يا صيمري ما يقول ؟ فقلت : بل يا سيدي ، فرني فيه بما أحببت . فقال : بحياتي اهبه
على هذا الروي .. انشدني . فقلت : تأمر ابن حمدون ان يكتب ما أقول . فدعا بدواة وقرطاس ..

أما المتنبي فإنه تحاشى — منذ أول لحظة — ما تجرّه الطريقتان من عقابيل الصنعة . فقد كان له هدف وراء ما التزم لطبيعة الفن الشعري — ممثلاً فيه — هو أكبر من مجرد تحجير الكلام ... سبائك كأبي تمام ، أو لحوناً كالبحري ... حتى ولا ارضاء الممدوحين . فعاد بالشعر إلى الطريقة المثلى عند بني قومه ، ولكنه أسبغ على تلك الطريقة — المعبدة منذ القدم — خير ما في المدرستين المحدثتين من الصفات .

فهو قد اتخذ مقياس الحسن — شأنه عند أبي تمام — البيت الفرد ولكن غير عابىء مثله بالترصيع ، كما انه اتخذ مقياس الحسن — شأنه عند البحري — القصيدة كاملة من مستهلها إلى مختتمها دون أن يفقد البيت الفرد ركيزته ، وغير عان مثله بالتعيم .

... وحضرنى على البديهة ان قلت :

ادخلت رأسك في الرحم	وعلمت انك تنهزم
يا بحري ، حذار ويحك	من قضاضة غنم
فلقد اسكت بوالديك	من الهجا سيل العرم
فبأي عرض تعصم	وهتكه جف القلم
والله حلقة صادق	وبقبر احمد والحرم
وبحق جعفر الامام	بن الامام المعتصم
لأصبرنك شهرة	بين الميل إلى العلم
حيث الطلول بنى سلم	حيث الاراكة والحيم
يا ابن الثقيلة والثقل	على قلوب ذوي النعم
في أي سنخ ترتطم	وبأي كف تلتقم
يا ابن الباحة للسورى	امن العقاب ام الفهم
إذ رحل أختك للعجم	وفراش أمك في الظلم
وباب دارك حانة	في بيته يؤتى الحكم

قال فغضب وخرج يعدو وجعلت أصبح به :

أدخلت رأسك في الرحم وعلمت انك تنهزم

والتوكل يضحك ويصفق حتى غاب عن عينه .

ولا تنس ان المتوكل كان من أشد الخلفاء بغضاً للعلويين ... ومن ينتمي إلى مذهبهم من الشعراء .

وبذلك كان أول شاعر عربي رأى أن يجمع بين تحقيق معنى الوحدة تركيزاً في البيت المفرد ، وتحقيق معنى سياقها بنائياً في القصيدة كلها ، بحيث لا يندّ فيها بيت عن بيت ، ومن هنا استحال ان تقدّم وتؤخر في أبياته لهذا التلاحم الحديدي بين معانيها . (١)

أما أنّه هو بدوره لم يسلم من الامتحان فصحيح . فقد تعرّض لأذاه في اعتساف الطريق إلى غايته من اللفظ الجارح أحياناً ، أو من

١ ويدلّ على حرصه الشديد على تنسيق معانيه ، ما يروى من أن سيف الدولة قال له مرة :
لقد انتقدتهما عليك ، يعني قوله :

وقفت ، وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى ، وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح ، وثغرك باسم
كما انتقد على امرئ القيس قوله :

كأنني لم اركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ، ولم أقل لخلي : كري كرة ، بعد اجفال
فبيتاك لم يلتئم شطراهما ، كما لم يلتئم شطرا بيّ امرئ القيس ، وكان ينبغي له ان يقول :
كأنني لم اركب جواداً ، ولم أقل لخلي : كري كرة ، بعد اجفال
ولم أسبأ الزق الروي ، للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
وكذلك كان ينبغي ان تقول :

وقفت ، وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح ، وثغرك باسم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبي : ان صح ان الذي استدرك على امرئ القيس هذا هو اعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا . ومولانا يعلم ان الثوب لا يعلمه البزاز كما يعرفه الحائك ، فان البزاز يعلم جملة والحائك يعرف تفاصيله . وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، والشجاعة في منازلة الاعداء بالسباحة في شراء الخمر للأضياف . وأنا كذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره ، ليكون احسن تلاؤماً . ولما كان وجه الجريح المنهزم عبوساً وعينه باكية قلت : ووجهك وضاح ، وثغرك باسم
لأجمع بين الأضداد في المعنى .

فأعجب سيف الدولة بقوله ، ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات .

أو تقصياً

البناء المعقد (١) - لكن توليداً أو تقصياً للمعاني - في أكثر الاحيان . وفي هذا انعكاس ، إذا تذكر ، لما كانت عليه الطريقة عند العرب الاقحاح (٢) . فهو لم يأت فيها ببدع من عنده . وكل ما أخذ معاصريه عليه (٣) إنما هي من وجهة نظر النقد الأدبي وتطوره في ذلك العصر عن نشأة المدرستين . فإذا نحن نختلف في تقييمها معهم الآن فذلك لأننا لا نرى رأيهم في الموضوع .

كما اننا نختلف معهم في تقييم ما كانوا يرونه حسنات في هذا « التوليد للمعاني » التي كان الشعراء يغالون في عرضها بين الممدوحين ، وكما كانوا يرضون به نزعتهم الفنية . وذلك بتقليبها على وجوه ، والاغراب فيها ... حتى الاحالة . فهي لا تصح رائجة - كبضاعة - إلا في سوق الممدوحين ، ولا شأن لنا اليوم مطلقاً بهذه « الكسوة » التاريخية - التي خدمت غرض الممثلين منهم آنذاك على المسرح - وقد أكلتها العثة لطول ما خزنها التاريخ . (٤)

بقي أن نرى كيف كان يسلك المتنبي طريقته الفذة في تقصيد قصائده .

ولامتثال الطريقة نرى ان نسوق لها شاهدين ، لم يكن هو في احدهما معنى بالممدوحين وما تستلزمه الصنعة لارضائهم ، فهو من هذه الناحية شعر « خالص » ، وكان في الثاني كالذي يرى نفسه لأول مرة بين يدي ممدوح عظيم يختلف عن سائر الممدوحين في كونه (على حد قوله) .

تجاوز قدر المدح ، حتى كأنه بأحسن ما ينشئ ، عليه ، يعاب

١ راجع الفصل السابق « المتنبي بين شراحه وناقديه » .

٢ راجع الفصل السابق « المفتاح لتراث العرب الشعري »

٣ راجع « الوساطة بين المتنبي وخصومه » الجرجاني .

٤ راجع « يتيمة الدهر » الثعالبي . وسنوفي هذا الموضوع بحثاً في الفصل التالي « تطوير المعنى التقليدي » .

لأنّ المعاني التقليدية مما جرى على نظمها الشاعر حتى تلك الساعة
— لوحدها — وجدها تقع في المجد الحربيّ دون مستواه العالي .
تسمي الأمانيّ صرعى دون مبلغه فما يقول لشيء : ليت ذلك لي !
هذان الشاهدان هما :

(أ) رثاؤه لجدّته بعد فراق دام أربع عشرة سنة (٣١٧ - ٣٣٠)
— أي منذ فارقتها صبيّاً — لم يرها خلالها ، حتى ماتت سروراً
ببشرى لقائه .

(ب) أول قصيدة أنشدها بين يدي سيف الدولة الحمداني ، وذلك
عام ٣٣٧ .

* * *

ولنلمّ أولاً بظروف المروية .

فها هو بعد خروجه من الحبس يضرب في الآفاق من جديد .
ويجتاز في بعض أسفاره ، وهو وحده في الليل ، بمكان يعرف
بالفراديس ، من أرض قنّسرين ، فيسمع زئير الاسد فيرتجل :

أجارك ، يا أسد الفراءيس ! مكرم	فتسكن نفسي ، ام مهان فمسلم ؟
ورائي وقدّامي عداة كثيرة	أحاذر من لص ، ومنك ، ومنهم
فهل لك في حلّفي على ما أريده ؟	فأنّي بأسباب المعيشة اعلم
اذن لأتاك الرزق من كلّ جهة	وأثريت مما تغنمين ، وأغنم

وإثناء ما هو ينتقل في ربوع الشام يرد عليه كتاب لجدّته العليّة من
الكوفة تستجفيه فيه ، وتشكو شوقاً إليه وطول الغيبة عنها ، فتوجّه
نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حاله تلك (لأسباب لا زال
يجعلها التاريخ) ، فانحدر إلى بغداد فبعث برسالة إلى جدّته يسألها المسير
إليه فقبلت كتابه وحمّت لوقتها سروراً به وغلب الفرح على قلبها
فقتلها ، فريثها بهذه القصيدة :

إنه يستهملها بالتعليق على أحداث الدهر كما خبرها ، مقررأ اننا ننتهي
إلى النقصان ، كتر ايدنا شروعاً ... عوداً على بدء .

ألا لا أري الأحداث حمداً ولا ذماً فما بطشها جهلاً ، ولا كفتها حلماً
(ابيض) إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى يعود كما أبدى ، ويكرى كما أرمى
ثم يغمره الحزن :

لك الله من مفجوعة بحبيها قتيلة شوق ، غير ملحقتها وصما
(ملون) أحنّ إلى الكأس التي شربت بها وأهوى لمشاها التراب وما ضما
بكيت عليها خيفة في حياتها وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما
ويتذكر طيبتها بين أهل البلد ، فيقرر :

(ابيض) ولو قتل الهجر المحبين كلهم مضى بلد باقٍ أجدت له صرما
يعني ان أهل البلد كانوا كلهم لها من المحبين ، فلو ان الهجر يقتل
كل مفجوع في محبة لهلك هؤلاء جميعاً حزناً على فراقها ، فكيف هي
لم تستطع تحمل فراقه ؟ واختصتها وحدها الفجيعة فيه .

منافعها ما ضرّ في نفع غيرها تغذى وتروى ان تجوع وان تظما
فذلك هو اثر انعامها على هؤلاء ، إذ كان غذاء جدته وربها في
ان تجوع وتظما لهم ، ومنافعها في ان تنفع غيرها مما يؤدّي إلى
الاضرار بها . (١)

عرفت الليالي ، قبل ما صنعت بنا فلما دهتنا ، لم تزدي بها علما
فهذا ما دهتهما (هو وجدته) ليالي الدهر به ، مما كان هو على علم
به من شيم الليالي . ثم تأخذه الحسرة على فقدها :

١ هذا المعنى لا يقول به الشارحون .. سوى ابن فورجة . ويوضحه قول عروة بن الورد :
اقسم جسدي في جوم كثيرة وأحسو قراح الماء ، والماء بارد

أناها كتابي بعد يأس وترحة (ملون)
حرام على قلبي السرور فأنني
فماتت سروراً بي . فمت بها غماً
أعدّ الذي ماتت به - بعدها - سماً
ويصف كيف تلقّت كتابه :

(ايض) تعجّب من خطّي ولفظي ، كأنها
(ملون) وتلثمه . . حتى أصار مسداده
ترى بحروف السطر أغربة عصما
محاجر عينيها ، وأنيابها ، سحما
وكيف انتهى بها حبه إلى السلوان القاتل فرحاً بمقدمه (بعد ان كانت
تقضي أيامها بكاء عليه) :

رقا دمعها الجاري ، وجفّت جفونها
(ايض) ولم تُسلها إلا المنايا ، وانما
وفارق حبّي قلبها ، بعد ما أدمى
أشدّ من السقم الذي اذهب السقما
ويتذكر أيام الفراق وما انتهت اليه :

(ملون) طلبت لها حظاً ، ففاتت ، وفاتني
فأصبحت استسقي الغمام لقبرها
وقد كنت استسقي الوغى ، والقنا الصّما
(ايض) وكنت قبيل الموت استعظم النوى
وقد رضيت بي ، لو رضيت بها ، قمما
فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى

ويغمره اليأس من عجزه أمام الموت :

(ملون) هبيني أخذت الثّار فيك من العدى
وما انسدت الدنيا عليّ لضيقها
فكيف بأخذ الثّار فيك من الحمى ؟
ولكنّ طرفاً ، لا أراك به ، اعمى

ويشتد عليه الاسف :

فوا أسفاً الا أكبّ مقبلاً
وآلاً الا في روحك الطيّب ، الذي
لرأسك والصدر اللذيّ ملثا حزما
كأنّ ذكيّ المسك كان له جسماً

ويأخذه الاعتزاز بها :

(ايض) ولو لم تكوني بنت اكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لي أمّا

(لكنه يعكس اذ يجعل نفسه موضع الاعتزاز) . وعودة تفكيره إلى نفسه يذكره بالشامتين .

(ملون) لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت منّي لآنفهم رغما
فيتحدث حديث الواثق عن نفسه . وكيف قضى أيام غربته :

تغرب .. لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الا لحالقه حكماً
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة ولا واجداً الا لمكرمة طعماً
يقولون لي : « ما أنت ؟ » في كل بلدة « وما تبغي ؟ » .. ما ابتغي جلّ أن يسمي
ويُنوّه بما ينتظر هؤلاء (الذين لقيهم) في مستقبل الايام على يده :
كأنّ بنهم عالمون ، بأنني جلوب اليهم من معادنه اليتما
ويدرك صعوبة مرامه :

(ابيض) وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع الجدل والفهما
فبحث في الوسائل المؤدية :

(ملون) ولكنني مستنصر بذبابه ومرتكب - في كل حال - به الغشما
وجاعله يوم اللقاء تحيّي والا فليست السيّد البطل القرما

وينظر مستيقناً إلى امكانية التحقيق :

(ابيض) إذا قلّ عزمي (عن مدى) خوف بعده فأبعد شيء .. ممكن لم يجد عزمًا

(ملون) ويأخذه الاعتزاز بقومه .. طالبي المستحيل :

وانتي لمن قوم .. كأنّ نفوسنا بها أنف ان تسكن اللحم والعظما

ثم يعود إلى نفسه ، وموقفها من دنيا الناس :

كذا انا يا دنيا ! إذا شئت فاذهبي ويا نفس ! زيدي في كرائها قدما

ثم يتمنى منيته فإذا هي :

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما
تلك هي القصيدة (وكلها ٣٤ بيتاً) التي رثى بها المتنبي جدته .
وكان عمره إذ ذاك سبعاً وعشرين سنة . نتيّن فيها بوضوح كيف كان
المتنبي يسلك في تقصيد القصائد طريقته الفذة ، إذا كانت من هذا
النوع الذي ينظمه الفنّان خالصاً لنفسه ، لا لعرضه للبيع في
الاسواق .

فهو قد نام بها على هذا الوجه (١) ، فجعل قومٌ يستعظمون ما قاله
في آخر القصيدة ، فقال :

يستعظمون أحياناً نأمت بها ! لا تحسدن - على ان ينأ - الاسدا
لو انّ ثمّ قلوباً يعقلون بها أنساهم الذعر ، مما تحتها ، الحسدا

* * *

بقي النوع الثاني الذي نظمه مضطراً بحكم الالتزام لطبيعة فنه .
نزولاً على رغبة العصر ، وقد اخترنا له الشاهد ، أوّل قصيدة أنشدها
الشاعر بن يدي سيف الدولة (وقد كانا متكافئين في السن) عند نزوله
انطاكية ، ومنصرفه من حصن « برزويه » وفتحته :

« وكان جالساً تحت شراع ديباج عليه صورة ملك الروم ، وصور
وحش ، وحيوان » (وكان المتنبي قد اشترط انه إذا أنشده مدحاً
لا ينشده إلا وهو قاعد وانه لا يكلف بتقبيل الأرض بن يديه - فنسب
إلى الجنون - ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط (٢) .

استهلّها بمعنى كان يتردّد صده في نفسه منذ كان يستظهر الشعر

١ عارض شوقي - على جاري عادته - هذه القصيدة في رثاء جدته ، ولكنه وارى مرثيته ، فلم تنشر
إلا بعد وفاته .

٢ راجع « الصبح المتنبي » للبديعي .

مع الصبية العلويين . وسنتناول القصيدة مقطوعات لا أبياتاً بغية التحليل :
 وفاؤكما كالربع (أشجاء طاسمه)
 وما انا إلا عاشق ، كلّ عاشق
 وقد يتزيّناً بالهوى غير أهله
 بليت بلى الاطلاع ، ان لم أقف بها
 كثيراً .. توقاني العواذل في الهوى
 بأن تسعدا ، والدمع .. أشفاه ساجمه (١)
 أعقّ خليليه الصفتين لائمه
 ويستصحب الانسان من لا يلائمه
 وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه (٢)
 كما يتوقى ريتض الخيل حازمه

* * *

فهو قد تحدّث في هذه القطعة (التي استهلّ بها القصيدة ، لا البيت)
 عن حرصه على ان يقف على الاطلاع باكباً ، وصاحبيه اللذين خيّباً
 ظنّه باللوم وعدم الاسعاد ، وكيف انه هو يستعصي أمره على العذال ،

١ سبقت الاشارة إلى قول العوني :

يا صاحبي ! بعدتما ، فتركتما
 أبكي وفاءكما ، وعهدكما ، كما
 قلبي زهين صباية وتصابي
 يبكي المحب معاهد الأحباب

وقد حاول أن يحشد البيت بالمعنى حشداً .

٢ قيل كان ابو العلاء المعري إذا ذكر الشعراء يقول : قال ابو نواس كذا قال البحرّي كذا قال ابو تمام
 كذا فاذا أراد المتنبي قال قال الشاعر كذا تعظيماً له . فقليل له يوماً لقد أسرفت في وصفك المتنبي
 قال أليس هو القائل :

بليت بلى الاطلاع ، ان لم أقف بها
 وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

وكان المعري يذهب مذهباً غريباً في تأويله .

يقول : كم قدر ما يقف الشحيح على الخاتم ؟ يقف اربعين يوماً .

فقليل له : من أين علمت ذلك ؟

قال : سليمان بن داود (عليهما السلام) وقف على طلب الخاتم اربعين يوماً .

فقليل له : ومن أين علمت انه بخيل ؟

قال : من قوله تعالى « وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » . وما كان عليه ، ان يهب الله
 لعباده أضعاف ملكه .

وحديثه هذا عن « الشح على خاتم ضاع ، والملك الذي لن يكون لأحد مثله » يومي إلى شيء . فهل
 البيت « رمز » لما كان يحلم به « الداعية » ؟

وكلتها معانٍ مما حام حولها الشعراء قبله ، ولكن لا بمثل هذا البيان .
ثم انتقل إلى الغزل .

قفي تغرم الأولى ، من اللحظ ، مهجتي	بثانية . والمتلف الشيء غارمه (١)
سقاك ، وحيانا بك الله ، انما	على العيس نور ، والحدود كئامه (٢)
وما حاجة الأظعان حولك في الدجى	إلى قمر ؟ ما واجد لك .. عادمه (٣)
إذا ظفرت منك العيون بنظرة	أثاب بها معيي المطي ورازمه (٤)
حبيب .. كأن الحسن كان يحبه	فآثره ، أو جار في الحسن قاسمه
تحول رماح الخطّ دون سبائه	وتسبى له من كل حي كرائمه
ويضحى غبار الخيل أدنى ستوره	وآخرها نشر الكباء .. الملازمه

* * *

وهو هنا ينوّه -- لأول مرة في الشعر العربي -- بتأثير « النظرة الأولى » ، نظرته إلى ذلك « النور » في الاكمام ، وكيف كادت تقضي عليه ، فما من سبيل لتلافي أثرها الا بنظرة ثانية ، وكيف أن فاتنته تقوم مقام البدر ، لهذا الحسن القاهر الذي ما لها فيه ثان ، فنظرتها هي

١ قال الخبزأرزي: إلى كم أذل واستطف وأنت تجبور ولا تنصف
أيا يوسف الحسن صل مدنفاً مدامعه لم تزل تذرف
أعيذك من ظالم غاشم سوى الخلف في الوعد لا يعرف
ولي مهجة أنت أتلقتها عليك غرامة ما تتلف

٢ جلا السري الرفاء عن وجه معناه : حيا به الله عاشقيه فقد أصبح ريحانة لمن عشقا

٣ قال الخبزأرزي: وما حاجة الركب السراة ، إذا بدا لهم وجهه ليلا ، إلى طلعة البدر ؟

٤ أنشد في مجلس المعتمد بن عباد - صاحب اشبيلية - قوله :

إذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها معيي المطي ورازمه
وجعل المعتمد يردده استحساناً له ، وكان في مجلسه ابن وهبون الأندلسي ، فأنشد ارتجالاً :
تنبأ ، عجباً بالقريض ، ولو درى بأنك تروي شعره ، لتألها

غاية الثواب للمجهودين ، ثم هي بين كرائم قومها كانسان العين ،
تشرع دونها الرماح ، وتشترّف بخدمتها السبايا . الا أن الوصول اليها
دونه أنفة رجالها وما تثيره خيوطهم من الغبار ، ومن القرب ما يفوح
حول خبائها من دخان الطيب . وكذلك فان هذا النهج في التغزل بـ
« ربيب ملك » كان بدعاً في الادب العربي لم يسبق المتنبي اليه .

ثم ينتقل إلى القطعة الثالثة :

وما استغربت عيني فراقاً رأيته	ولا علّمتني غير ما القلب عالمه (١)
فلا يتهمني الكاشحون ، فانّتي	رعبت الردى ، حتى حلت لي علاقمه (٢)
مشبّ الذي يبكي الشباب مشبيه	فكيف توقّيه . وبانيه هادمه ؟ (٣)
وتكملة العيش الصبا وعقيقه	وغائب لون العارضين وقادمه (٤)
وما خضب الناس البياض لأنه	قبيح ، ولكن احسن الشعر فاحمه

° ° °

١ مرقوله في مرثية جدته : عرفت الليالي ، قبل ما صنعت بنا فلما دهتنا ، لم تزدني بها علماً
٢ قال الخويزمي : لقد وقرّتي الحادثات ، فما أرى لنازلة من ربيبها أتوجع
وسترى المتنبي يبسطه ويزيده تمثيلاً في قوله :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى	فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابني سهام	تكررت النصال على النصال
وهان .. فما أبالي بالرزايا	لأنني ما انتفعت بأن أبالي

وغريب ان يورد المتنبي معنى معرفة الليالي في هذا العارض - مباشرة بعد الغزل - فهل دهي بشيء
في كنف سيف الدولة ، ذكره بالصدمة التي مني بها في جدته ؟

٣ يشرحه قول ابن الرومي :

تضمضه الاوقات ، وهي بقاؤه	وتغتاله الاقوات ، وهي له طعم
إذا ما رأيت الشيء يبلية عمره ،	ويغنيه « ان يبقى » ، ففي دانه عقم

٤ ينظر فيه إلى قوله أيضاً :

سلبت سواد العارضين ، وقبله	بياضهما المحمود ، إذ انا أمرد
----------------------------	-------------------------------

وهو في هذه القطعة إنما يكرر موضوع عبرته من الايام وخبرته
للياليها ، على غرار ما أسمعناه في المراثية . فحديثه عن الشيب وسؤاله :
كيف توقيه وبانيه هادمه ؟ هو اعادة ما قاله هناك من ان كل شيء
ينتهي إلى النقصان بعد التكامل ... عوداً على بدء ، فتلك هي سنة
الحياة .

وبحسن تخلصه من هنا - كعادة شعراء عصره - فيخرج إلى وصف
الخيمة التي تظلتهم ، وجمالها :

وأحسن من ماء الشبيرة كله	حيا بارق ، في فازه ، انا شائمه
عليها رياض ، لم تحكها سحابة	وأغصان دوح ، لم تغنّ حمامه
وفوق حواشي كل ثوب موجّه	من الدرّ سمط ، لم يثقبه ناظمه
ترى حيوان البرّ مصطلحاً بها	بحارب ضدّ ضدّه ، ويسالمه
إذا ضربته الريح ماج ، كأنه	تجول مذاكيه ، وتداى ضراغمه

* * *

وفي صورة الروميّ ذي التاج ذلّة	لأبلج ، لا تيجان الا عمامه
تقبّل أفواه الملوك بساطه	ويكبر عنها كمّه وبراجمه
قيماً لمن يشفي من الداء كيّه	ومن ، بين أذني كل قرم مواسمه
قبائعها تحت المرافق هيبة	وأنفد مما في الجفون عزائمه

* * *

وهذا الوصف للخيمة يعيد إلى الذهن بدائع البحري في وصف ايوان
كسرى ، والقصور العباسية ، من ناحية الدقّة في التصوير . كما ان
حديثه عن الحضرة المهيبة لمملوحه لم يكن غير تقرير للواقع ، فلم يجاوز
به قدر سيف الدولة .

ويدخل بعد ذلك في صميم المدح ، حسب ما كان مألوفاً عند القوم ، وهم يتوقعونه . فيبدأ بالاغراب في وصف العسكر :

له عسكرا خيل ، وطير ، إذا رمى	بها عسكراً ، لم تبق إلا جماجمه
أجلتها ، من كل طاغ ، ثيابه	وموطئها ، من كل باغ ، ملاغمه (١)
فقد ملّ ضوء الصبح مما تغيره	وملّ سواد الليل مما تراحمه
وملّ القنا مما تدقّ صدوره	وملّ حديد الهند مما تلاطمه
سحاب من العقبان ، يزحف تحتها	سحاب إذا استسقت ، سقتها صوارمه (٢)

* * *

فقد غربّ في المعنى أولاً ان جعل العسكر - برفقة الطير المحلق فوقه - لا يبقى من عسكر العدو ، إذا دهمه غير جماجم قتلاه ، ثم غربّ فيه ثانياً ان جعل السحاب (الذي هو تحت) من المحاربين ، يسقي السحاب (الذي هو فوق) من العقبان ، كلما استسقاه . وهذا مذهب في المديح كان موضع الفتنة عند أصحاب المدرستين .

وينتقل بعد هذا الاغراب في الصنعة إلى وصف حاله وكيف كان يضرب في الآفاق قبل الاتصال بسيف الدولة :

سلكت صروف الدهر حتى لقيته	على ظهر عزم مؤيدات قوائمه
مهالك .. لم تصحب بها الذئب نفسه	ولا حملت فيها الغراب قوادمه

١ قال أبو تمام حوافرها مخضوبة بدمائه
٢ ينظر إلى قول النابغة: إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
جوانح ، قد أيقن أن قبيله
وقول أبي تمام بعده: وقد ظلت عقبان اعلامه ضحى
أقامت مع الرايات ، حتى كأنها
ومن غنمها تيجانه ، وخلاخله
عصائب طير ، تهتدي بمصائب
إذا ما التقى الجمعان ، أول غالب
بعقبان طير ، في الدماء نواهل
من الجيش ، إلا أنها لم تقاقل
فكما أن أبا تمام جعل الاعلام عقباناً ... مع العقبان ، فانه قد جعل الجيش من تحت والطير المحلق
فوقه سحابين ... اغراباً في الصنعة .

فأبصرت بدرأ ، لا يرى البدر مثله وخاطبت بجرأ لا يرى العبر عائمه
غضبت له لما رأيت صفاته بلا واصف ، والشعر تهذي طماطمه
وكنت إذا يمت أرضاً بعيدة سریت ، فكنت السرّ والليل كاتمه (١)

* * *

فقد ذكر مصارعته الدهر بعزيمة لم يفلّ من حدّها الدهر ، والمهالك
التي كان يقطعها وحيداً ، وكيف كان يتخذ الليل غطاءً يحجبه عن العيون .
ولاحظ انه يشهد لأول مرة كيف ثارت ثائرة نفسه لأن هذا البطل
القومي لم يجد في الشعراء حوله من يوفي صفاته حقّها من التمجيد .

ثم يأخذ في البناء حول معنى السيفيّة في اسم سيف الدولة (٢)
فيبدع ، وكان هذا أيضاً جديداً على القوم نال منهم غاية الاعجاب :

لقد سلّ سيف الدولة المجد ، معلماً فلا المجد مخفيه ولا الضرب ثالمه
على عاتق الملك الأغرّ نجاده وفي يد جبار السموات قائمه (٣)
تجاربته الاعداء ، وهي عبيده وتدّخر الاموال ، وهي غنائمه
ويستكبرون الدهر ، والدهر دونه ويستعظمون الموت ، والموت خادمه
وانّ الذي سمى عليّاً لمنصف وان الذي سماه «سيفاً» لظالمه
وما كلّ سيف يقطع الهام حده وتقطع لزبات الزمان مكارمه

وهكذا يوفّق المتنبي أخيراً في عرض هذه البضاعة ، التي كان
يشكو كساد سوقها في صباه ، بين يدي مستحقّها من الرجال . فقد

١ أخذه صاحب فقال :

تجشمتها ، والليل وحف جناحه كأنني سر والظلام ضمير
(وكان صاحب كثير الأخذ منه ، حتى في رسائله ، رغم تشنيعه عليه) .

٢ كان الخليفة المتقي قد أنعم بهذا اللقب عليه عام ٣٣٠ لبلائه مع أخيه الأكبر الذي حاز لقب ناصر
الدولة ، في الدفاع عن الخلفاء .

٣ قال أبو تمام : لقد خاب من يهدي سويداء قلبه لحد سنان ، في يد الله عامله

حسن موقعه عنده فقرّبه وأجازته الجوائز السنيّة ومالت نفسه اليه وأحبّته فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة . (١)

• • •

وهكذا خرج المتنبي من هذه الحلبة مسروراً ، فقد سرّ نزعته الفنيّة في قصيدة لم تزد على ٤٢ بيتاً .. فأبدع في الوصف حيث يطيب ، وخصّ بالاشادة ما هو جدير بالاشادة ، وأغرب في التخيل حيث يستحبّون الخيال ، ولم يعد في كل ذلك واقع ممدوحه العظيم . وهنأ نفسه على ان نزلت هذا المنزل الكريم عند ملك .. ولا كالمملوك ، يحفل بلاطه بهذه النخبة من العلماء والكتبة ، الذين لا يجوز عليهم الا الدرّ الدرّ من البيان في مجال الاحسان .

ومما دغدغ كبرياءه ان الشعراء في بلاط سيف الدولة لم يكونوا قبله يتجاوزون عون المعاني إلى ابكارها ، ولا يحطّون معدن دراهمها — في مذهب المديح — لرفع دينارها ، فقد تفتّن عليهم في القول حتى فتنهم عن أنفسهم ، بحيث أصبحوا من ساعتها عيالاً عليه ، يودون اللحاق به فلا يستطيعون ، ويحاولون الصعود اليه — بدون جدوى — فيفتضحون .

لأنه بقي دائماً المجلّي في السباق . (٢)

فهذا هو الذي دعاه ، وقد تعبّد له الطريق قوياً ، ان يقف فيهم متباهياً — بعد مضيّ ست سنوات على موقفه هذا — وهو ينشد سيف الدولة في يوم الاضحى سنة ٣٤٢ على رؤوس الاشهاد :

أزل حسد الحساد عني بكتبهم فأت الذي صيرتهم لي حسداً

١ راجع « الصبح المنبي » للبديعي .

٢ قال فيهم مرة : إذا شاء ان يلهو بلحية أحسق اراه غباري ثم قال له : الحق !

إذا شدّ زندي حسن رأبك فيهم
وما الدهر إلا من رواة قصائدي
فسار به من لا يسير مشمرا
أجزني ، إذا أنشدت شعرا ، فإنما
.. ودع كل صوت غير صوتي فاني
ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا
إذا قلت شعرا ، أصبح الدهر منشدا
وغنى به من لا يغني مغردا
بشعري اتاك المادحون مرددا
انا الطائر المحكي ، والآخر الصدى

* * *

تركت السرى خلفي لمن قلّ ماله
وقبّدت نفسي في ذراك محبة
إذا سأل الانسان أيامه الغنى
فهل كان يعلم انه سيضطر إلى
أخرى ؟
وأنعلت افراسي بنعماك عسجدا
ومن وجد الاحسان قيّدا ، تقيّدا
وكنت على بعد ، جعلتك « موعدا »
مغادرته قبل مضيّ اربع سنوات

ولكنه — بأية حال — نعم خلالها بأسعد الايام .

الباب الخامس

دلالة المكر من شعر المتنبى

أول ما يلاحظه الشارحون في ديوان أبي الطيب عمق محتواه من المعاني وغزر مادته ، كالحضم الزاخر الذي يغشى برشاش موجه — عن متأنى — سواحه ، ولا يعرف الساحل عن أغواره شيئاً . ولكننا إذا دققنا النظر — بعد — وجدنا في الديوان تكراراً لبعض هذه المعاني .. كالأمواج التي لا تني ترتفع وتهبط في الحضم . وهذا التكرار لا يقتصر شأنه على عهد دون عهد من معاناة الشاعر لأحداث زمانه ، وإنما ينتظم عقود حياته كلها .

إن لهذه الظاهرة دلالتها البعيدة ، فهي أقوى شاهد على انشغال ذهنه — طيلة الوقت — برواسب بعض هذه المعاني ، بحيث إذا انساق إلى تكرارها فلا عن افتعال ، وإنما بوحى من فطرته الواعية أو انفعاله .

فهو يقول مثلاً أول عهده بأبي العشائر :

فسرت إليك في طلب المعالي وسار سواي في طلب المعاش

كما يقول أول عهده بكافور :

وما رغبتني في عسجد أستفيده ولكنّها في مفخر أستجده

وبين القولين فترة عشر سنوات على الأقل ، مرّ خيرها عليه - كما رأينا - في كنف سيف الدولة .

ثم ان بعض تلك المعاني تحمل بتكرارها دلالة أخرى ، هي استجابة الشاعر لتزعمته الفنية في محاولته الدائبة للتفوّق على نفسه في مجال التطوير .. بعد أن يكون قد تفوّق على منافسيه في مجال التعبير . سواء أكان ذلك من ناحية الكشف عن وجوه المعاني الفاتنة وابتزازها في ثوبها القشيب ، وهو مطمح الشاعر الأصيل في كل عصر وجيل .

كقوله ، وهو من أول ما نظم في صباه :

وتفوح من طيب الثناء روائح لهم ، بكل مكانة تستنشق

مسكية النفحات ، الا انها وحشية ، بسواهم لا تعبق

وقوله بعدُ بين يدي ابي العشائر :

ومعالٍ .. اذا ادّعاها سواهم لزمته جناية السراق

ام من ناحية تقليبها على وجوه ، والاغراب فيها ... حتى الاحالة ، وقد كان هذا هو سلّم الرقيّ في عصره - كما رأينا - إلى التفوّق والبروز .

كقوله لحفيد البحري بمنبج أول هبوطه الشام :

وعظم قدرك في الآفاق أوهمني اني بقلّة ما أثنيك .. اهجوكا

وقوله من بعد في رثاء عمّة عضد الدولة وهو بشيراز :

وكان من عدد احسانه كأنما اسرف في سبّه

بحيث نجدها كذلك - ولنفس الاسباب - تردّد .. مكرّرة .. عند الشعراء الآخرين .

والذي يهمنا من أمر هذه المعاني هنا ما كان يكرّره الشاعر بوحي من انفعاله الصادق وفطرته الواعية : لانشغال ذهنه بها طيلة الوقت ، إذ هي تدلّنا - مبدئياً - على موقف الشاعر الذاتي ، كأحد النظّارة ، من مجتمع عصره : ونظرته الخاصة إلى دور ابطال المسرحيّة فيه . وسنجد بين هذه المعاني ما يضرب بجذوره الأصلية في خيم الشاعر وخلقه ، كما سنجد ما تأصل بعد في نفسه بحكم طول مكثه - صبيّاً - بين الحيام .

ولا مشاحة ان معظمها ينتظم سلوكها تحت أوليات لا تتجاوزها هي التي يصطبغ بأثرها الديوان كله ، اذ هي تدور - أكثر ما تدور - حول قضايا الساعة ، ولا تخرج عن العناوين التالية :

(أ) موقفه من استبداد الانسان .

(ب) موقفه من كرامة الانسان .

(ج) موقفه من نبل الانسان .

(د) موقفه من غرور الانسان .

فتحت عنوان موقفه من استبداد الانسان . يقع مثلاً ما قاله في الدول والملوك . وأحوال الناس ، وأثرّة الاثرياء وعجز العجزة ، والحظ والسعادة ، ومعاكسة الدهر وجور الزمان . وتحت عنوان موقفه من كرامة الانسان ، يقع ما قاله في كبر النفس والاعتداد بها ، والهمم والهموم ، والمجد والمال ، وصلابة الرأي وصدق الحدس ، وروعة

البيان . وتحت عنوان موقفه من نبل الانسان ، يقع ما قاله في حسن البداوة ، وعفة أهلها وإبائهم ، وما يتحلّون به من صفات الكرم والشجاعة ، والصبر والتضحية ، والتفاني في الذود عن الحقّ وقوة الايمان . وتحت عنوان موقفه من غرور الانسان ، يقع ما قاله في متعة الحسن ، وطماعة الحب ، وعرض الدنيا ، وزيف الحضارة ، والحسد والشهامة ، وما يتحتّم بعد كلّ زيادة من نقصان ... إلى آخر ما قال .

ونستحسن ان نجعل الشواهد من شعره المكرر منسّقة بحسب أطوار عمره ، لنستطيع بجلاء ان نتابع تطوّر نظراته — على توالي السنين — حول هذه الشؤون . فهذه الاطوار — كما مرّ بنا — هي :

(أ) ما كان منها قبل الاتصال بسيف الدولة :

(١) من أيام صباه حتى دخوله سجن حمص وهو الطور الاول

(٢) اثناء تقلّبه في الامصار بعد خروجه من السجن . وهو الطور الثاني

(ب) ما كان في صحبة سيف الدولة بحلب وهو الطور الثالث

(ج) ما كان بعد فراق سيف الدولة :

(١) في مصر بين يدي كافور وهو الطور الرابع

(٢) في العراق ثم فارس وهو الطور الخامس

وسنجنّزئ من الشواهد — في هذا الفصل — بما كان موضوعه سواسية الناس ، واندثار الهمم ، والتطلّع إلى الملوك .

• • •

فما جاء في الطور الاول (٣١١ — ٣٢٤) قوله وهو في المكتب :

نفس تُصغّر نفس الدهر من كبر لها نهى كهله في سنّ أمردّه

وقوله ارتجالاً ، وقد أهديت اليه هدية :
قد شغل الناس كثرةُ الأمل وأنت بالمكرمات في شغل

° ° °

هدية . ما رأيت مهدية إلا رأيت العباد في رجل
وفي هذين البيتين اشعاع يكشف ما سيصبح — غداً — أمره مع
الناس والممدوحين . تأمل هنا رأيه في الناس مثلاً فهم مشغولون بكثرة
الأمل دون أقل عمل ، بينما هذا الذي اهدى له الهدية يوشك ان يغنيه
عنهم جميعاً . (١)

وقوله :

أرى أناساً ، ومحصولي على غم وذكر جود ، ومحصولي على الكلم
وربّ مال ، فقيراً من مروءته لم يثر منها ، كما أثرى من العدم

° ° °

١ على هذا الفرار ، ما قاله في جعفر بن كيغلغ :
لا يجبر الناس عظماً ، أنت كاسره ولا يهضون عظماً ، أنت جابره
وما أنشده شجاعاً الطائي بمنيج :
أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك (والثقلان أنت) محمد ؟
الثقلان أنت !

وما نظمه عام ٣٢١ لغارس آل حمدان (؟) ، ولم ينشدها اياه :
أنت الغريبة ، في زمان أهله ولدت مكارمهم لغير تمام
صغرت كل كبيرة ، وكبرت عن « لكأنه » ، وعددت سن غلام
ان كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حيثن من الاسلام
بنى معنى البيت على الاستحالة .

ومما جاء في الطور الثاني (١) ، (٣٢٥ - ٣٣٦) قوله لعلي بن ابراهيم
التنوخى :

أحقّ عاف بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القدم

١ على نفس الوثيقة ، ما أنشده محمد بن زريق الطرسوسي :
كشفت جمهرة العباد ، فلم أجِد الا مسودا - جنبه - مرؤوسا
وما أنشده عبدالله بن يحيى البحتري :
هم الناس ، الا انهم من مكارم يغني بهم حضر ، ويحدو بهم سفر
هم الناس !
وما أنشده أخاه أبا عبادة :
لما وزنت بك الدنيا ، فملت بها وبالورى ، قل عندي كثرة العدد
وما أنشده مساور بن محمد :
لو فرق الكرم ، المفرق ماله ، في الناس ، لم يك في الزمان شحيح
وما أنشده المغيث العجلي :
قبيل .. (انت انت) وأنت منهم وجدك بشر ، الملك الهمام
لقد جنت بك الاوقات ، حتى كأئك في فم الزمن ابتسام
أنت أنت !
وما أنشده أبا الفرج القاسي :
وأضحى وبين الناس ، في كل سيد من الناس ، الا في سيادته ، خلف
وما أنشده عبد الواحد بن ابي الاصبع :
ان كان لا يدعى الفتى إلا كذا « رجلا » ، فم الناس طرأ « اصبعاً »
وما أنشده عبد الرحمن الانطاكي :
انما الناس حيث انت ، وما النسا س بناس ، في موضع منك خال
وما أنشده هارون الاوراجي (وكان يذهب إلى التصوف) :
لو لم تكن من ذا الورى ، اللذ منك هو ، عقلت بمولد نسلها حواء
أي ان الورى منه ، فلو لم يكن هو في الورى لكان خلق الخلق بمثابة العقم .
وما أنشده بدرأ بن عمار الاسدي :
فأنت وحيد بني آدم ولست - لفقد نظير - وحيدا

وانما الناس بالملوك ، وما تفلح عرب ، ملوكها عجم
لا أدب عندهم ، ولا حسب ولا عهود لهم . ولا ذمم
بكل أرض ووطنها أمم تُرعى بعد ، كأنها غم

وكذلك قوله فيه : مثلك يا بدر ، لا يكون ، ولا
وقوله : وأقسم .. لو صلحت يمين شيء
وقوله : لو كان علمك بباله مقمما
وقوله : خلت البلاد من الغزاة ليلها
يقولون : كان في الاصل « من النبي محمد » .

وقوله مرتجلا : أفاعيل الورى - من قبل - دهم
وما أنشده احمد بن عبد الله الانطاكي القاضي :
يا افخر ! فان الناس فيك ثلاثة
وما أنشده سعيداً بن عبد الله الانطاكي :

قد شرف الله أرضاً أنت ساكنها
وما أنشده أحمد بن عمران :

ذكر الانام لنا فكان قصيدة
وما أنشده علي بن أحمد الانطاكي :

وما زلت ، حتى قاذني الشوق نحوه
وأستكبر الاخبار قبل لقائه
أزالت بك الايام عتبي ، كأنما
وما أنشده علياً بن صالح الكاتب :

ملك ، منشد القريض لديه
وما أنشده طاهراً بن الحسين العلوي :

وأبهر آيات التهامي ، انه
فيعكس هنا أيضاً ، ابدأ كما فعل في رثاء جدته (راجع الفصل السابق) .
وما أنشده الحسين بن علي الهمداني :

وجدت علياً وابنه خير قومه
وأصبح شعري منهما في مكانه
وهم خير قوم ، واستوى الحر والعبد
وفي عتق الحساء يستحسن العقيد

وقوله للمغيث بن علي العجلي :

وان كانت لحم جثث ضخام
ولكن معدن الذهب الرغام
مفتحة عيونهم ... نيام

ودهر ناسه ناس صغار
وما أنا منهم بالعيش فيهم
أرانب ... غير أنهم ملوك
وقوله لعلي بن أحمد المرّي :

عاً ، زماني .. واستكرمتني الكرام
واقفاً - تحت أخمصي - الانام

ضاق ذرعاً ، بأن اضيق به ذر
واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي

وقوله لمحمد بن عبد الله الحصيني :

يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
شرّاً على الحرّ ، من سقم على بدن
تخطي إذا جئت في استنهامها «من» ؟
ولا أمرّاً بخلق غر مضطغن
الا احقّ بضرب الرأس من وثن
حتى أعنتف نفسي فيهم ، وأنّي

أفاضل الناس اغراض لذا الزمن
وانما نحن في جيل سواسية
حولي بكلّ مكان منهم خلق
لا أقترى بلداً الا على غرر
ولا اعاشر من املاكهم ملكاً
انّي لأعذرهم مما اعنتفهم

وقوله لسعيد بن عبيد الله الانطاكي :

إلى سعيد بن عبد الله ، بعيرانا
عماً يراه من الاحسان . عميانا

لو استطعت ركبت الناس كلهم
فالعيس اعقل من قوم رأيتهم

وقوله لأحمد بن عمران :

كلماتها ، ومماتها كحياتها

في الناس أمثلة ، تدور حياتها

وما أنشدّه ابا العشائر الحمداني :

أكبر من فعله ، الذي فعله
والدهر لفظ .. وأنت معناه

فأكبروا فعله .. وأمنره
أشبهه ما لم يروك ، أشباهه

وقوله لعلبي بن أحمد الانطاكي :

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
ولا تحسن المجد زقاً وقينة
وتضرب أعناق الملوك . وان ترى
وتركك في الدنيا دويلاً . كأنما
فمفترق جاران . دارهما العمر
فما المجد إلا السيف . والفتكة البكر
لك الهبوات السود . والعسكر المجر
تداول سمع المرء أنمله العشر

وقوله لعلبي بن محمد بن سيار التميمي :

أذم إلى هذا الزمان أهيله
وأكرمهم كلب . وأبصرهم عم
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
بقلبي : وان لم أرو منها . ملالة
خليلاتي ، دون الناس . حزن وعبرة
وهو إنما يشير هنا إلى جدته .

وأرحم أقواماً ، من العبي والغبي
وقوله لعلبي بن صالح الكاتب :

ومن الناس من يجوز عليه
(الخازباز طنين الذباب ، ومنه الذباب نفسه)
شعراء ، كأنها الخازباز

ويرى انه البصير بهذا وهو في العمي ضائع العكاز

وقوله لحسن بن عبيد الله بن طعج بالرملة :

ومن عرف الايام - معرفتي بها
فليس بمرحوم ، إذا ظفروا به
وبالناس - روى رحمه غير راحم
ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

وفارقت شرّ الأرض أهلاً ، وتربة بها علويّ ، جدّه غير هاشم
وسئل ابو الطيب عنه فقال : أردت الطبريّة .

وقوله لطاهر بن الحسين العلوي :

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله إذا لم تكن نفس النسيب كأصله
وما قربت أشباه قوم أباعد وما قربت أشباه قوم أباعد
إذا علوي لم يكن مثل طاهر إذا علوي لم يكن مثل طاهر

وقوله ، وهو يهجو اسحق بن كيغلغ :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
والناس قد نبذوا الحفاظ ، فمطلق والناس قد نبذوا الحفاظ ، فمطلق
لا تحذعنك عن عدو دمة لا تحذعنك عن عدو دمة
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
يؤذي القليل من اللثام بطبعه يؤذي القليل من اللثام بطبعه
والظلم في خلق النفوس ، فان تجد والظلم في خلق النفوس ، فان تجد
ومن البليّة عدل من لا يرعوي ومن البليّة عدل من لا يرعوي

* * *

أفعال من تلد الكرام كريمة أفعال من تلد الكرام كريمة
وقوله . بعد مقتل بن كيغلغ على أيدي غلمانته :

كلام أكثر من تلقى ، ومنظره ككلام أكثر من تلقى ، ومنظره
وقوله لأبي العشائر الحمداني :

أرى الناس الظلام ، وانت نور أرى الناس الظلام ، وانت نور
بليت بهم ، بلاء الورد يلقي بليت بهم ، بلاء الورد يلقي
واني منهم لأليك عاش واني منهم لأليك عاش
أنوفاً .. هنّ أولى بالخشاش أنوفاً .. هنّ أولى بالخشاش

(الحشاش عود يجعل في عظم أنف البعير)

عليك - إذا هزلت - مع الليالي وحولك - حين تسمن - في هراش

• • •

ومما جاء في الطور الثالث (١) (٣٣٧ - ٣٤٥) قوله لسيف الدولة الحمداني ، اول لقائه :

لقد سل سيف الدولة المجد ، معلما فلا المجد مخفيه ، ولا الضرب ثالمه
على عاتق الملك الأغبر نجاده وفي يد جبار السماوات قائمه

١ على نفس المتوال ما أنشده سيف الدولة الحمداني :

رأيتك ، في الذين أرى ملوكاً ،	كانك مستقيم في محال
فان تفق الانام - وأنت منهم -	فان المسك بمصر دم الفزال
وكذلك قوله فيه : وكم رجال ، بلا أرض ، لكثرتهم	تركت جمعهم ارضاً ، بلا رجل
وقوله : وله ، وان وهب الملوك ، مواهب	در الملوك ، لدرها ، أغبار
وقوله : أنت الذي لو يعاب في ملأ	ما عيب الا بأنه بشر
وقوله : ان الخليفة لم يسمك سيفها	حتى بذلك ، فكت عين الصارم
فاذا تتوج ، كنت درة تاجه	وإذا تحتم ، كنت فص الخاتم
وقوله : تمشي الكرام على آثار غيرهم	وأنت تخلق ما تأتي وتبتدع
من كان فوق محل الشمس موضعه	فليس يرفعه شيء ، ولا يضع
وقوله : ولما رأيت الناس دون محله	تيقنت ان الدر للناس ناقص
وقوله : كفى عجباً ، ان يعجب الناس أنه	بني مرعشا ، تباً لآرائهم تباً
وما الفرق ما بين الانام وبينه	إذا حذر المحذور ، واستصعب الصعبا
وقوله : والمدح لابن ابي الهيجاء ، تنجده	بالجاهلية ، عين العي والخطل
ليت المدائح تستوفي مناقبه	فما كليب ، وأهل الأعصر الأول؟
خذ ما تراه ، ودع شيئاً سمعت به	في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
وقد وجدت مكان القول ذا سعة	فان وجدت لساناً قانلاً .. فقل
إن الهام الذي فخر الانام به	خير السيوف ، بكفي خيرة الدول

كما مرّ بنا في الفصل السابق .

وقوله له :

وشركتُ دولة هاشم في سيفها
اعطى ، ومنّ على الملوك بعفوه
حتى تساوى الناس في افضاله

وقوله له :

أما للخلافة من مشفق
على سيف دولتها الصائل ؟

فما يقول لشيء : ليت ذلك لي !	تمني الأماني صرعى دون مبلغه	
فانك عين بها ينظر	فلا غفل الدهر عن أهله	وقوله :
دروا ان كل العالمين فضول	فلصا رأوه وحده دون جيشه	وقوله :
لكانوا الظلام ، وكنت النهارا	فلو خلق الناس من دهرهم	وقوله :
كأنك بحر ، والملوك جداول	أرى كل ذي ملك اليك مصيره	وقوله :
فوابلهم طل ، وطلّك وابل	إذا مطرت منهم ، ومنك ، سحاب	
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم	يكلف سيف الدولة الجيش همه	وقوله :
وذلك ما لا تدعيه الفراغم	ويطلب عند الناس ما عند نفسه	
وأنت لأهل المكرمات امام	وكل اناس يتبعون إمامهم	وقوله :
إلى الغاية القصوى ، جريت وقاموا	جرى معك الجارون ، حتى إذا اقتهوا	
ولا في ذلة العبدان عار	وما في سطوة الارباب عيب	وقوله :
	وقوله : في رثاء أخته الصغرى :	

ومئاتاً ، فيهم ، وعزاً وذلاً	يا ملك الورى ، المفرق محيلاً	
ت ، حساماً بالمكرمات محل	قد الله دولة سيفها أند	
ذات خدر ، ارادت الموت بعلا	وإذا لم تجد من الناس كفواً	
أعل الزمان ، وأهل كل زمان	وسعى .. فتصر عن مداد في اعل	وقوله :
ان السروج مجالس الفتيان	تحذوا المجالس في البيوت ، وعنده	
الهيحاء غير الطعن في الميدان	وتوهوا اللب الوغى ، والطعن في	
إن الكرام بأسخام يدأ ختموا	لا تطلبن كريمةً بعد رؤيته	وقوله :
قد أفسد القول ، حتى أحمد الصمم	ولا تبال بشعر بعد شاعره	

يقدر عداها ، بلا ضارب ويسري اليهم ، بلا حامل
وقوله له :

يلقى الملوك ، فلا يلقي سوى جزر وما أعدوا ، فلا يلقي سوى نفل
صان الخليفة بالابطال مهجته صيانة الذكر الهندي بالحلل
وقوله له عام ٣٣٨ :

الجيش جيشك ، غير أنك جيشه في قلبه ، ويمينه ، وشماله
ترد الطعان المرّ عن فرسانه وتنازل الأبطال عن ابطاله
كلّ .. يريد رجاله لحياته يا من يريد حياته . لرجاله
وقوله له :

إذا ما الناس جرّهم ليبّ .. فأنّي قد اكلتهم .. وذاقا
فلم أر ودّهم الا خدعا ولم أر دينهم إلا نفاقا
وقوله له عام ٣٣٩ :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع ان قاتلوا جبنوا ، أو حدّثوا شجعوا
أهل الحفيظة .. الا ان تجرّهم وفي التجارب — بعد الغي — ما يزع

• • •

ليت الملوك على الأقدار معطية فلم يكن لدنيء عندها طمع
انّ السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبع
وقوله له ، وقد جرى ذكر ما بين العرب والاكراد من الفضل .
مرتجلاً :

ان كنت عن خير الأنام سائلا فخيرهم أكثرهم فضائلا

وقوله له عام ٣٤٢ :

فدتك ملوك لم تسم مواضيا فانك ماضي الشفرتين صقيل
إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول
الظاهر انه يعرض هنا باللقاب الأخرى وربما غنى انهم بمنزلة الابواق
والطبول لأنهم لا ينفعون الا بجمع الجيوش .

انا السابق الهادي إلى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس ، فيما يريني ، اصول ، ولا للقائليه أصول

وهذا تعريض بالشعراء (راجع الفصل السابق)

فان تكن الدولات قسماً ، فانها لمن ورد الموت الزوام تدول
وقوله له ، وقد عوفي من دمل كان به :

تفرّد العرب في الدنيا بمحتده وشارك العرب في احسانه العجم
وما أخصك في برء بتهنئة إذا سلمت ، فكل الناس قد سلموا

وقوله له :

تظلّ ملوك الأرض خاشعة له تفارقه هلكى ، وتلقاه سجّدا
فيا عجباً من دائل انت سيفه أما يتوقى شفرتي ما تقلّدا ؟
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيّد

وقوله له عام ٣٤٣ :

إذا العرب العرباء رازت نفوسها فأنت فتاها ، والمليك الحلاحل
أطاعتك في أرواحها ، وتصرفت بأمرك ، والتفت عليك القبائل
وكلّ أنابيب القنا مدد له وما ينكت الفرسان الا العوام
رأيتك .. لو لم يقتض الطعن في الوغى اليك انقياداً ، لاقتضته الشمائل

ومن لم تعلّمه لك الذّل نفسه من الناس طرّاً ، علّمته المناصل
وقوله له عندما أحدث بنو كلاب حدثاً ، فأوقع بهم :

بغيرك راعياً عبث الذناب وبغيرك صارماً ثلم الضراب
وتملك أنفُس الثقلين طرّاً فكيف تحوز أنفُسها كلاب ؟

وقوله له ، عندما هزم الدمستق وأقام على الحدث حتى بناه :

ولست مليكاً ، هازماً لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم
تشرّف عدنان به ، لا ربيعة وتفتخر الدنيا به ، لا العواصم

وقوله له عام ٣٤٤ عند وفود الرسل :

أراع كذا كلّ الانام همام ؟ وسخّ له رسل الملوك غمام ؟
ودانت له الدنيا ، فأصبح جالساً وأيامها ، فيما يريد ، قيام
فقى تتبع الأزمان في الناس خطوه لكلّ زمان في يديه زمام

وقوله له ، بعد ايقاعه بالقبائل الثائرة :

وفيك إذا جنى الجاني أناة تظنّ كرامة ، وهي احتقار
وأخذ للحواضر والبوادي بضبط ، لم تعود نزار
نشمته .. شميم الوحش انسأ وتنكره ، فيعروها نثار
وما انقادت لغيرك في زمان فتدري ما المقادة والصغار

• • •

لهم حقّ ، بشركك في نزار وأدنى الشرك ، في أصل ، جوار
لعلّ بنهم لبنيك جند فأول قرّح الخيل المهار

وقوله له :

غضب الدهر والملوك عليها فبناها ، في وجنة الدهر خالاً

إنما أنفس الانيس سباع
من اطاق التماس شيء غلابا
كل غاد لحاجة يتمنى
يتفارسن جهرة واغتيالاً
واغتصاباً ، لم يلتمسه سؤالا
ان يكون الغضنفر الرئبالا

وقوله له ، عام ٣٤٥ :

رفعت بك العرب العباد ، وصيرت
أنساب فخرهم اليك ، وانما
قمم الملوك مواقد النيران
أنساب اصلهم إلى عدنان

وقوله له : وهي آخر ما أنشده بحلب :

ألهى الممالك عن فخر قفلت به
مقلداً ، فوق شكر الله ، ذا شطب
القائم الملك الهادي الذي شهدت
ابن المعفر في نجد فوارسها
شرب المدامة ، والأوتار ، والنغم
لا تستدام بأمضى منهما النغم
قيامه وهداه العرب والعجم
بسيفه ، وله كوفان والحرم

• • •

ولنتقل الآن معه من حلب إلى القسطنطينية .

فمما جاء في الطور الرابع (١) (٣٤٦ - ٣٥٠) ، قوله لكافور
الاخشيدي أول وفوده عليه :

قواصد كافور ، توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا

١ على هذا النهج ، ما أنشده كافوراً :

فجاءت بنا انسان عين زمانه
نجوز عليها المحنين ، إلى الذي
فتى ، ما سرينا في ظهور جدودنا
ترفع عن عون المكارم قدره
أبا كل طيب ، لا أبا المسك وحده
يدل بمعنى واحد كل فاعسر
دخلت بياضاً خلفها وماقيا
نرى عندهم احسانه والأياديا
إلى عصره ، الا نرجي التلاقيا
فما يفعل الفعات الا عذاريا
وكل سحاب ، لا اخص الفواديا
وقد جمع الرحمن فيك المانيا

يقال ان سيف الدولة لما بلغه هذا البيت قال : له الويل ! جعلني
ساقية ، وجعل الأسود بحراً .

يقول له فيها :

وما كنت ممن أدرك الملك بالمنى ولكن بأيام أشبن النواصيما

وقوله :

وما زال أهل الدهر يشبهون لي
يقال ، إذا ابصرت جيشاً وربه :
وألقي الغم الضحك ، اعلم انه
فزارك مني من اليك اشتياقه

وقوله :

فدى لأبي المسك الكرام ، فانها
أغر بمجد ، قد شخصن وراءه
فأحسن وجه في الورى وجه محسن
أجفل الناس عن طريق ابي المسك ،

وقوله :

كيف لا يترك الطريق لسيل
قضى الله يا كافور انك أول

وقوله :

فمالك تختار القسي ، وانما
ومالك تمنى بالاسنة ، والقنا
ولم تحمل السيف الطويل نجاده
أرد لي جميلاً .. جدت أو لم تجد به
لو الفلك الدوار أبغضت سميـه

وما أنشده ابا شجاع فاتكا الاخشيدي :

اليك ، فلما لحت لي ، لاح فرده
أمامك رب ، رب ذا الجيش عبده
قريب .. بذى الكف المفداة .. عهده
وفي الناس ، إلا فيك وحدك ، زهده
سوابق خيل .. يهتدين بأدهم
إلى خلق رجب ، وخلق مطهم
وأيمن كف فيهم كف منعم
وذلك له رقاب العباد
ضيق عن أتيه كل واد
وليس بقاض ان يرى لك ثان
عن السعد يرمى دونك الثقلان ؟
وجدك طعان بغير سنان ؟
وأنت غني عنه بالحدثان ؟
.. فأنك ، ما أحبيت في .. أتاني
لعوقه شيء عن الدوران

مهند ، وأصم الكعب عسال
هول ، نمته من الهيجاء أهوال
في الحمد حاء ، ولا ميم ، ولا دال
وقد كفاه من الماذي سربال
فان قدرك في الاقدار يختال
وانك ليث ، والملوك ذئاب
« ذئاباً » ، ولم يخطئ ، فقال : ذباب
ومدحك حق ، ليس فيه كذاب

إذا الملوك تحلت ، كان حليته
ابو شجاع ، ابو الشجعان قاطبة
تملك الحمد ، حتى ما لمفتخر
عليه منه سراييل مضاعفة
ان كنت تكبر ان تختال في بشر

وقوله :

جرى الخلف إلا فيك انك واحد
وانك ان قويت ، صحف قارى
وان مديح الناس حق وباطل

وقوله له . وقد بنى داراً جديدة :

من لبيض الملوك ان تبدل اللو ن ، بلون الاستاذ والسحناء
فتراهما بنو الحروب بأعيان ن ، تراه بهاء غداة اللقاء

° * *

أنت اعلى محلة ان تهتأ بمكان في الأرض أو في السماء
ولك الناس ، والبلاد ، وما يس مرح بين الغبراء والخضراء
فارم بي ما أردت مني ، فأنني أسد القلب ، آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك ، وان كا ن لساني يرى من الشعراء
وقوله له :

ترعرع الملك الاستاذ ، مكتهلاً قبل اكتهال ، اديباً قبل تأديب
مجرّباً فهما .. من قبل تجربة مهذباً كرمأ .. من غير تهذيب
حتى أصاب من الدنيا نهايتها وهمه في ابتدآت وتشبيب
يدبر الملك من مصر ، إلى عدن إلى العراق ، فأرض الروم ، فالنوب
إذا أتها الرياح النكب من بلد فما تهب بها الا بترتيب
يشير إلى العواصف التي كانت تعصف بالعالم الاسلامي من اطرافه
ولا تجاوزها شمس إذا شرقت الا ومنه لها اذن بتغرب
وانهم يعملون في ضوئها طول النهار ، فلا تعكر العلاقات العالية
غيوم ، وان الاقطاع كانت تدب له بالطاعة التامة .

بصرف الامر فيها طين خاتمه ولو تطلّس منه كل مكتوب

وقوله : تشابت البهائم والعبدى علينا ، والموالي والصميم
وما أدري اذا داء حديث أصاب الناس ، ام داء قديم
حصلت بأرض مصر على عبيد كأن الحر بينهم يتم

وقوله :

وأنعب خلق الله من زاد همّـه
فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ولكنّ قلبا بين جنبيّ .. ماله
يرى جسمه يكسى شغوفاً تربّه

وقوله له عام ٣٤٧ :

قد اخترتك الأملاك . فاختر لهم بنا
ولو كنت أدري كم حياتي ، قسمتها
وقوله له :

وأنت الذي ربّيت ذا الملك ، مرضعا
يريد بذئ الملك ابن الاخشيذ .

وكنت له ليث العرين لشبـله
وما عدم اللاقوك بأساً وشدة
ويغنيك عمّا ينسب الناس أنه
وأني قبيل يستحقّ قدره ؟

وقوله ، وهو يتذكّر سيف الدولة ، ولم ينشدها كافوراً :

سهرت بعد رحيلي وحشة لكم
وان بليت بودّ . مثل ودّكم ،
ثم استمر مريري ، وارعوى الوسن
فانّني بفراق مثله قمـن

حكى ان سيف الدولة لما سمع
هذا البيت قال : سار ، وحقّ ابي.
وقوله :

وقصّر عمّا تشتهي النفس وجده
ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده
ومركوبه رجلاه ، والثوب جلده
مدى ينتهي بي ، في مراد أحده
فيختار ان يكسى دروعاً تهدّه

حديثاً ، وقد حكمت رأيك ، فاحكم
وصيّرت ثلثيها انتظارك ، فاعلم

وليس له أمّ سواك ، ولا أب

وما لك الا الهندوانيّ مخاب
ولكنّ من لاقوا أشدّ وأنجب
اليك تناهى ، المكرمات وتنسب
معدّ بن عدنان فداك ، ويعرب

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولّوا بغصّة كلهم من سه ، وان سرّ بعضهم أحيانا
إلى آخر هذه الرائعة .

وقوله له عام ٣٤٨ يذكر قيام شبيب وقتله :

برغم شبيب فارق السيف كفته وكانا على العلاّت يصطحبان
كأنّ رقاب الناس قالت لسيفه : رفيقك قيسيّ ، وأنت يمان
وهل ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور ، وغير معان ؟
وعند من اليوم الوفاء لصاحب؟ شبيب وأوفى من ترى أخوان
وقوله ، في قصيدة الحمى ، ولم ينشدها كافوراً .

ولما صار ودّ الناس خبّا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشكّ فيمن أصطفيه لعلمي انه بعض الأنام
يحبّ العاقلون على التصافي وحب الجاهلين على الوسام
عجبت لمن له قدّ ، وحدّ وينبو نبوة القضم الكهام
ومن يجد الطريق إلى المعالي فلا يذر المطيّ بلا سنام
ولم أر في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

وقوله لأبي شجاع فانتك الاخشيدي :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر ، والاقدام قتال
واتمنا يبلغ الانسان طاقته ما كلّ ماشية بالرحل شمالال
انا لفي زمن تركّ القبيح به - من اكثر الناس - احسان واجمال
وقوله لكافور عام ٣٤٩ ، وهي آخر ما أنشدها اياه ، ولم يلقيه
بعدها :

وأنفذ ما تلقاه حكما ، إذا قضى قضاء .. ملوك الأرض منه غضاب

يقود اليه طاعة الناس فضله ولو لم يقدها نائل وعقاب

• • • • •

ولا ملك الا أنت . والملك فضلة كأنك نصل فيه ، وهو قراب
وهذا يدلّك كيف كان نظره إلى مقام الملوك .

وقوله بينه وبين نفسه :

سادات كلّ اناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم
أغاية الدين ان تحفوا شواربكم يا أمة ، ضحكت من جهلها الأمم ؟
كما انّ هذا يظهر لك ماذا كان ينكر في هذا المقام .

وقوله عام ٣٥٠ . يوم عرفة . قبل مسيره من مصر بيوم واحد :
ما كنت احسبني احيا إلى زمن بسيء بي فيه كلب ، وهو محمود
أذكر قوله : وأكرمهم كلب .

ولا توهّمت ان « الناس » قد فقدوا وانّ مثل ابي البيضاء موجود

• • • • •

أكلّمّا اغتال عبد سوء سيّده أو خانه ، فله في مصر تمهيد ؟
صار الحصّي امام الابقين بها فالحرّ مستعبد ، والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بضمن ، وما تفنى العناقيد

• • • • •

ومما جاء في الطور الخامس (١) (٣٥١ - ٣٥٤) ، قوله عند دخوله
الكوفة راجعاً :

١ على نفس الفرار ، ما أنشده لنفسه مثلاً :

وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء

لتعلم مصر ، ومن بالعراق ،
وأنتي وفيت ، وأنتي أبيست
وما كل من قال قولاً ، وفي
ومن بالعواصم ، أنتي الفتى
وأنتي عتوت على من عتا
وما كل من سيم خسفاً ، أباي

يها نبطي من أهل السواد
يعني ابن حنزابة النسابة.

وأسود .. مشفره نصفه
وشعر .. مدحت به الكركدن
فما كان ذلك مدحاً له
وقد ضل قوم بأصنامهم

وقوله عن فاتك :

بمصر ملوك لهم ماله
فأجود من جودهم بخله
واشرف من عيشهم موته
ومن ضاقت الأرض عن نفسه

وقوله يخاطب سيف الدولة مراسلا :

والمسمون بالأمير كثير
الذي زلت عنه شرقاً وغرباً
ان تبوات ، غير دنياي ، دارا
وما لاقني بلد بعدكم
ومن ركب الثور بعد الجوا
وما قتت كل ملوك البلاد
ولو كنت سميتهم باسمه

وما أنشده ابن العميد :

اذا من جميع الناس أطيب منزلا
زحل - على ان الكواكب قومه -
وكذلك قوله فيه : خلق الله أفصح الناس طراً
وأحق الفيث نفساً بمحمد
وقوله : فتى .. فانت العدوى من الناس عينه
وخالفهم خلقاً ، وخلقاً ، وموضعا

وأسر راحلة ، وأريج متجرا
لو كان منك ، لكان أكرم معشرا
في مكان .. أعرابه أكراده
في زمان .. كل النفوس جواده
فما أرمدت أجفانه كثرة الرمد
فقد جل ان يعلى بشيء ، وان يعدي

ومن يك قلب ، كقلبي ، له
ولا بدّ للقلب من آلة
وكلّ طريق أتاه الفتى
يشقّ إلى العزّ قلب التوى
ورأي ، يصدّع صمّ الصفا
على قدر الرجل فيه الخطا

وقوله في رثاء فاتك ، بعد رحيله عن الفسطاط :

تصفو الحياة لجاهل ، أو غافل
ولن يغالط في الحقائق نفسه
المجد أخسر ، والمكارم ، صفقة
والناس أنزل في زمانك منزلاً
قبحاً لوجهك يا زمان ، فانه
أعموت مثل ابي شجاع فاتك
أيد مقطعة حوالي رأسه
عمّا مضى فيها ، وما يتوقع
ويسومها طلب المحال ، فتطمع
من ان يعيش لها الهام الأروع
من أن تعيشهم ، وقدرك أرفع
وجه ، له من كل قبح برقع
ويعيش حاسده الحصي الأوكع ؟
وقفاً يصيح بها : ألا من يصفع ؟

وقوله راثياً له أيضاً عام ٣٥٢ :

من لا تشابهه الاحياء في شيم
عدمته ، وكأني سرت أطلبه
مازلت أضحك ابلي كلما نظرت
اسيرها بين اصنام اشاهدها
أمسى تشابهه الاموات في الرمم
فما تريدني الدنيا على العدم
إلى من اختضبت اخفافها بدم
ولا أشاهد فيها عفة الصنم

• • •

هون على بصر ما شقّ منظره
ولا تشكّ إلى خلق ، فتشتمه
وكن على حذر للناس تضره
غاص الوفاء ، فما تلقاه في عدة
فأتمما يقظات العين كالحلم
شكوى الجريح إلى الغربان والرخم
ولا يغرك منهم ثغر مبتسم
وأعوز الصدق ، في الاخبار والقسم

• • •

سبحان خالق نفسي لذتها
فيما النفوس تراه غاية الألم

الدهر يعجب من حملي نوائبه وقت يضيع ، وعمر .. ليت مدته أتى الزمان بنوه في شبيبته وقوله ، وقد بلغه نعي أخت

وصبر نفسي على أحداثه الحطم في غير أمته . من سالف الأمم فسرهم ، وأتيناها على الهرم سيف الدولة الكبرى في الكوفة :

أرى العراق طويل الليل مذنعيت يظنّ انّ فؤادي غير ملتهب بلى ، وحرمة من كانت مراعية ومن مضت غير موروث خلائقها وهمتها في العلى والمجد ناشئة فكيف ليل فتى الفتيان في حلب ؟ وان دمع جفوني غير منسكب لحرمة المجد ، والقصاد ، والادب وان مضت يدها موروثه النشب وهمّ اترابها في اللهو واللعب

» » »

وأتم نقر تسخو نفوسكم حلّتم من ملوك الأرض كلهم فلا تلك الليالي ، ان ايديها ولا يعنّ عدواً أنت قاهره

بما يهين ، ولا يسخون بالسلب محلّ سمر القنا من سائر القصب إذا ضربن . كسرن النبع بالغرب فأنهّنّ يصدن الصقر بالحرب

وقوله . وقد أنفذ اليه سيف الدولة ابنه ومعه هديّة :

ليس الاك يا عليّ . همّام كيف لا تأمن العراق ، ومصر سيفه ، دون عرضه . مسلول وسراياك دونها ، والخيول ؟

» » »

أنت طول الحياة لاروم غاز وسوى الروم . خلف ظهرك ، روم قعد الناس كلهم عن مساعيد ما الذي عنده تدار المنايا فمتى الوعد ان يكون القفول ؟ فعلى أي جانبيك تميل ؟ لك ، وقامت بها القنا والنصول كالذي عنده تدار الشمول

وقوله ، عام ٣٥٣ جواباً على رسالة :

أرى المسلمين مع المشركين أما لعجز . وأما رهب
وأنت مع الله في جانب قليل الرقاد ، كثير التعب
كأنك - وحدك - وحدته ودان البرية بآبن واب

وقوله لأبي الفوارس دلير ، وقد جاء من بغداد لدفع غائلة الخارجي
الذي نجم بالكوفة من بني كلاب :

أرادت كلاب ان تفوز بدولة لمن تركت رعي الشويهاة والابل !
أبى ربها ان يترك الوحش وحدها وان يؤمن الضب الحبيث من الأكل
وفيها سخرية بالغة بالثائرين هؤلاء . إذ كانوا بخروجهم إنما يعيشون
في الأرض فساداً . ويظهر لي فيها لأول مرة بأسه من قبائل عصره .

وقوله عام ٣٥٤ . لأبي الفضل ابن العميد :

من مبلغ الاعراب اني بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا
ومللت نحر عشارها ، فأضافني من ينحر البدر النصار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً . متبدياً . متحضراً
ولقيت كل الفاضلين ، كأنما ردت الاله نفوسهم ، والاعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب . مقدماً وأتى ، فذلك إذ أثبت . مؤخرأ

ولم يتواضع ابو الطيب لأحد في شعره ما تواضع له . تأمل قوله له
في النبروز :

نحن من أرض فارس في « سرور » ذا الصباح (الذي نرى) ميلاده
عظمته ممالك الفرس ، حتى كل أيام عامه حساده

تذكر قوله يوم عيد الاضحى : هو الجدة حتى تفضل العين أختها ..
ما لبسنا فيه الاكاليل ، حتى لبستها تلاعه .. ووهاده

عند من لا يقاس كسرى ابوسا سان ، ملكاً به ، ولا اولاده
عربيّ لسانه ، فلسفيّ رأيه ، فارسيّة أعياده
انني أصيد البزاة ، ولكنّ أجلّ النجوم ، لا اصطاده
وقوله له مودّعاً :

فان يكن « المهدي » ، من بان هديه فهذا ، والا فالهدى ذا ، فما المهدي ؟
يعلّنا هذا الزمان .. بذا الرعد ويخدع عمّا في يديه من النقد
هل الخير شيء ، ليس بالخير ، غائب ؟ ام الرشد شيء ، غائب ، ليس بالرشد ؟

فهذا رأيه في المهدي المنتظر ، الذي كانت تتحول اليه — ساعتها
آمال الكوفيين ، لأجل الخلاص . أما المهدي بن الحسن الامام (كان مولده
عام ٢٥٦) فقد احتجب عن أنظار الشيعة غيب وفاة والده ، وعمره آنذاك
اربع سنوات . (.)

• لما كان القرن الرابع الهجري واستول الحمدانيون على الجزيرة وحلب ، جعلوا من هذه الربع
منابر لمدح أهل البيت ومناثر للمطالبة بالثأر ، فهم شيعة كلهم ، وشعراؤهم حشدوا قواهم لمدح
الشيعة والتفجع لماضيهم ولما حل بهم ، فيهم كشاجم ، والسري الرفاء ، والوأواء الدمشقي ،
وابو فراس الحمداني ، والصنوبري ، والخالديان ، ودواوينهم تنص بهذا المدح وتمتلي بهجاء
العباسيين ، ترد على شعرائهم وتناقض قصائدهم ، ثم تنشيء في مدح الأئمة والاستشفاع بهم عند
الله . راجع « المديح » من فنون الأدب العربي ، مطبوعات دار المعارف بمصر .
فما نظم ابو فراس الحمداني (وهو ناشئ) قوله في أسماهم :

شافعي احمد النبي ، ومو لاي علي ، والبنت ، والسبطان
وعلي ، وباقر العلم ، والصا دق ، ثم الامين ذو التبيان
وعلي ، محمد بن علي ، وعلي ، والعسكري الداني
والامام المهدي .. في يوم لا ين نفع إلا غفران ذي الغفران

✱ ✱ ✱

وما أنشده عضد الدولة :

هو النفيس .. الذي مواهبه أنفس أمواله وأسناها
وكذلك قوله فيه : فان الناس ، والدنيا ، طريق إلى من ما له في الناس ثمان
لقد علمت نفسي القول فيهم كتعليم الطراد بلا سنان
ولولا كونكم في الناس ، كانوا هراء ، كالكلام بلا معان

وقوله لعضد الدولة :

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها

قال ابن جنّي : بلغني ان سيف الدولة قال لما سمع هذا البيت :
نرى نحن في الحملة ؟

ومن . منايهم براحتهم ، يأمرها فيهم وينهاها
أبا شجاع بفارس ، عضد الدولة ، فتأخسرو ، شهنشاهها
أسامياً لم تزده معرفة واتما لذّة ذكرناها

° ° °

دان له شرقها ومغربها ونفسه تستقلّ دنياها
تجمعت في فؤاده همم ملء فؤاد الزمان احداها

وينتقل المتنبي بعد هذا البيت إلى معنى غريب . هو ما كان يساور
مدحوحه العظيم من رغبة ملكية ساسانية لتحقيق وحدة كبرى تلمّ أطراف
هذه الدول المترامية . اسمعه يقول :

فأن أتى حظها بأزمئة أوسع من ذا الزمان أبداها
الضمير في حظها للهمم .

وقوله : فوق السماء ، وفوق ما طلبوا فاذا أرادوا غاية .. نزلوا
وقوله : يا «عضد» الدولة ! من «ركنها» ابوه ، والقلب أبو لبه
ومن بنوه زين آبائه كأنها النور على قلبه
فخرأ لدمر أنت من أهله ومنجب أصبحت من عقبه
ولم أقل «ملك» ، أعني به «سواك» ، يا فرداً بلا مثبه
وقوله : ومن أعتاض عنك إذا افتقرتنا وكل الناس زور ، ما خلاكا
وقوله : أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك ان يحل به سواكا
أتركني ، وعين الشمس نعلبي فتقطع مشيتي فيها الشراكا ؟
وهنا أيضاً يعكس ، فقد أراد ان يقول أتركك ؟ تذكر الشاهدين السابقين .

وصارت الفيلقان واحدة تعثر أحياءها بموتاهما
 ودارت النيرتات في فلك تسجد أقمارها لأبهاها
 ثم يعود إلى حديثه عن الناس :
 الناس كالعابدين آلهة وعبيده كالموحد اللهما
 وقوله له :

أروض الناس من ترب وخوف وأرض أبي شجاع من أمان
 يذمّ على اللصوص لكل تجر ويضمن للصوارم كلّ جان
 وقوله له :

ما كانت « الطرم » في عجاجتها إلاّ بعيراً ، أضلّه ناشد
 و « الطرم » ناحية وهشودان الثائر .

تسأل أهل القلاع عن ملك قد مسخته نعامة شارد
 والملك المسوخ هنا هو وهشودان :

ماذا على من أتى يحاربكم (فذمّ ما اختار) ، لو أتى وافد؟
 بلا سلاح .. سوى رجائكم ففاز بالنصر ، وانثنى راشد ؟
 يقارع الدهر من يقارعكم على مكان المسود .. والسائد
 وقوله له في رثاء عمته التي توفيت ببغداد :

لو درت الدنيا بما عنده لاستحيت الأيام من عتبه
 لعلها تحب ان الذي ليس لديه ، ليس من حزبه ؟
 وانّ من بغداد دار له ليس مقيماً في ذرى عضبه ؟
 أخاف ان تطفن اعداؤه فيجفلوا - خوفاً - إلى قربه

وقوله له يودّعه ، وهو آخر شعر قاله - وقد تمثّل فيها كلّ

أنواع الملوك :

فدى لك من يقصر عن مداكا فلا ملك اذن الا فداكا
ولو قلنا : فدى لك من يساوي دعونا بالبقاء لمن قلاك
وآمنّا فداءك كلّ نفس ولو كانت لمملكة ملاكا
ومن يظنّ نثر الحب جودا وينصب تحت ما نثر الشباكا
يعرض بكافور :

ومن بلغ الحضيض به كراه وان بلغت به الحال السكاكا
يعرض بمن في بغداد :

فلو كانت قلوبهم صديقاً لقد كانت خلائقهم عداكا
فهو قد انتهى - كما ترى - في صفات الملوك إلى « الخلائق » .
التي هي في بناء الممالك أصل كل شيء . تذكر قوله لسيف الدولة عام
٣٤٣ : لاقتضته الشائل .

ويروون - بعد - انه وجدت له قصيدتان في رحله لما قتل (١) .
في احدهما قوله :

صحت ملوك الارض مغتبطاً بهم وفارقتهم ملآن من حق صدرها
والقصيدتان في الجملة موضع الشك عندنا - تاريخياً - ويعوزهما
التمحيص .

° ° °

فهذا استعراض شامل ، على ضوء المكرّر من شعر المتنبي ، في

١ مما وجد في المخطوطة :

ومصر لمري اهل كل عجيبة ولا مثل ذا المخصي اعجوبة بكرا
يعد ، إذا عد المجانب ، أولا كما يتندا في العد بالاصبع الصغرى

موضوع سواسية الناس ، واندثار الهمم ، وماذا كان يتطلع اليه من الملوك .. وفيهم . ويتبين منه بوضوح انه كان يقسم الناس كلهم إلى طبقات ثلاث . فأما السواد وهم الذين قال فيهم ابو تمام :

ان شئت أن يسودَ ظنك كله فأجله في هذا السواد الاعظم
فقد كان يعتبرهم صفراً على اليسار ، ولا قيمة لهذا الصفر إلا إذا
حوّل بمعجزة إلى اليمين ، فهم الطبقة الدنيا عنده . ويجعل لسراة القوم
(وهم الملوك بلغة عصره) المقام الأول في الطبقة العليا ، في اصلاح
شؤون العامة وتنظيم أحوالهم . ويشيد بين هاتين الطبقتين - في الطبقة
الوسطى - بكل فتى سميدع .. تأمل قوله :

وأهوى من الفتیان كل سميدع نجيب كصدر السمهری المقوم
خطت تحته العيس الفلاة ، وخالطت به الخيل كبّات الحميس العرمرم
ولا عفة في سيفه وسانه ولكنها في الكف والفرج والفم
.. من الفتیان الذين يعول السراة على أمثالهم في تحقيق الاهداف
البعيدة ، وقد أشار إلى رفقتهم أكثر من مرة .

في خروجه من مصر مثلاً :

في غلّة .. أخطروا أرواحهم ، ورضوا

بما لقين ، رضى الأيسار بالزلّم

تبدولنا ، كلما ألقوا عمائمهم
بيض العوارض ، طعانون من لحقوا
عمائم خلقت سوداً ، بلا لثم
من الفوارس ، شالّون للنعم
قد بلغوا بقناهم فوق طاقته
وليس يبلغ ما فيها من الهمم
في الجاهليّة .. الا ان أنفسهم
من طيبهنّ به ، في الأشهر الحرم

وفي سيره إلى شيراز :

تبدّل أيتامي وعيشي ومزلّي نجائب ، لا يفكرن في النحس والسعد

وأوجه فتیان .. حیاء تلتئموا علیهنّ . لا خوفاً من الحرّ والبرد
إذا لم تجزهم دار قوم . مودّةً أجاز القنا - والخوف خير من الودّة
یحيدون عن هزل الملوك إلى الذي توفّر . من بین الملوك ، علی الحمد
فهذه معان نشأ علیها منذ صباه .

والذي صدمه من أمر هؤلاء الملوك انه وجدهم لا خلاق لهم .
يعيشون للذآتهم باللیل .. ودسائسهم فی النهار ، باستثناء عضد الدولة
الذي تراءى له عنده بواکیر العالم الأمثل - ممّا كان یحلم هو بضمّ
شملة ولمّ شتاته ، وان تضبط مقالیده قبضة واحدة - لو كانت یدیه
عربیّة (۱) . أمّا أمير آل حمدان البطل العربي . فقد ظلّ يشاکسه
الزمان ، بین دفع غائلة الروم وقمع ثورات القبائل وتنکّب مؤامرات
الممالك المجاورة . فلم یمهله حتی یتنفّس الصعداء (۲) ... إلى ان فرطت
المسألة من أيدي العرب .. بالتدریج ، فأخذوا مکانهم -- قابعين - فی
رکن مظلم من التاریخ ... حتی فجر الامس القریب .

وما أشبه حالنا الیوم . بما كان علیه حال القوم : قبل
ألف عام .

یتبیّن لنا من هذا الاستعراض بوضوح -- اذن - کیف كان ینظر

۱ قال الدكتور فیلیب حتّی فی تاریخہ المنطول :

بلغ عز بنی بویه أوجه فی زمن عضد الدولة (۹۴۹ - ۸۳) ابن رکن الدولة . ولم یکن عضد
الدولة هذا أعظم امراء بنی بویه فحسب بل كان ألمع امراء عصره علی الاطلاق . فقد وحد سنة ۹۷۷
الدولات الصغیرة الّتی كانت قد ظهرت فی فارس والعراق فی ظلّ البوییین فأنشأ امبراطورية قاربت
فی اتساعها ما كان لهارون الرشید . وتزوج من ابنة الخلیفة الطائع وزوج الخلیفة من بنته (۹۸۰)
وهو یأمل بذلك ان تؤول الخلافة إلى أحد ذریته . وكان عضد الدولة أول حاکم فی الاسلام لقب
بشاهنشاه (ومعناها « ملّک الملوك » اتباعاً للقب الملکی الایرانی القدیم) . وكان من أبنیته الرائعة
الّتی شادها فی العراق مشهد الامام علی . راجع « تاریخ العرب » لحتّی .

۲ توفي سیف الدولة عام ۳۵۶ (بعد عامین من مقتل المتنبی) ، وتوفي عضد الدولة عام ۳۷۲ .

المتنبى إلى جمهرة الناس .. وإلى سرائرهم من الملوك .. وماذا ظلّ
يترجى على يد هؤلاء الملوك ، والامّ انتهى أمره معهم أخيراً بعد
التجارب القاسية من جهاده المضني ...

وحيداً من الخللان في كل بلدة إذا عظم المطلوب ، قلّ المساعد

وهو في كلّ هذا لم يخرج عن النظرة العربيّة (١) ، وكما سبق ان
جاهر بها شاعرهم اللوذعي ... أيام الجاهلية ... الأفوه الاودي :

البيت لا يبنى الا له عمد	ولا عماد ، إذا لم ترس اوتاد
فان تجتمع اوتاد وأعمدة	وساكن ، بلغوا الأمر الذي كادوا
لا يصلح الناس فوضى ، لا سراة لهم	ولا سراة ، إذا جهّأهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت	فان تولّت ، فبالأشرار تنقاد
إذا تولّى سراة الناس أمرهم	نما على ذلك امر القوم ، فازدادوا

فذلك هو دلالة المكرّر من شعر المتنبى في كلّ هذه الشؤون .

وقد أوردنا هذه الشواهد منسّقة بحسب أطوار عمره في مدى ثلاثة
واربعين عاماً من حياته العملية .. منذ صباه ، فرأينا كيف كانت تتطور
نظراته في هذه الشؤون ... على توالي السنين . ولقد بلغ من عظم هذا
الرجل ان الذين سهروا على شعره ، أصبح عندهم - لصدق نظره
وثاقب رأيه - أوّله وآخره في المقام سواء .

١ راجع قوله لسيف الدولة عام ٣٤٣ (عام ائتلاف القبائل) : وكل أنابيب القنا مدد له ...

الباب السادس

ملك بين الملوك

والآن وقد تثبت لدينا ان الخلائق عند المتنبى مردهم كلهم إلى ثلاث طبقات ، كان هو يحشر في قمته الملوك ، ويعتبر السواد الأعظم هم الطبقة الدنيا الذين لا يسمون بمعانيهم عن البهائم كثيراً ، ويرى بين الطبقتين مكاناً لطبقة فضلى هي التي عمادها كل سميذع من الفتيان ، فقد بقي ان نسأل : في أي طبقة كان يضع المتنبى نفسه ؟ لأن في هذا السؤال كشفاً عن نواحي غامضة من شعره ، ستبقى غامضة على النقد ما لم تجب عليه .

ولا اودّ ان يتقول أحدنا بجواب ربما اعتبره بعضهم في هذا المقام فرضاً لرأي غير موطن أو افتراضاً لنظرية خيالية ، وإنما سأسوق الشواهد التي لها صلة بالموضوع لعلها تعين القارئ على الاجابة ، ثم اترك له الخيار في ان يجيب على السؤال بنفسه .. غير حائر ولا مرتاب . فأمّا احتقاره للناس وعدم مبالاته بهم فيظهر بأجلى صورة في حكاية

ابي بكر الخوارزمي عن مجلسه ، والتي يذهب معظم الادباء في تأويلها
مذهباً مختلف عن مذهبنا ، إذ وجدوا فيها تأييداً لبخله ، بينما نجد فيها
تعليلاً لازدراؤه بعض من كانوا يحضرون مجلسه وانصرافه عنهم بوجهه .
قال ابو بكر :

كان ابو الطيب المتنبي قاعداً تحت قول الشاعر :

وانّ احقّ الناس باللوم ، شاعر يلوم على البخل الرجال ، ويبخل
وانما أعرب عن عادته وطريقته في قوله :

بليت بلى الاطلاع ، ان لم اقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه
حضرت عنده يوماً في مجلسه بجلب ، وقد أحضر مالا
بين يديه من صلات سيف الدولة على حصير قد فرش ،
فوزن وأعيد إلى الكيس . وتخلّلت قطعة كأصغر ما يكون
بين خلال الحصير ، فأكبّ عليها بمجامعه ، ليستنقذها منه ،
واشتغل عن جلسائه ، حتى توصّل إلى اظهارها ، وأنشد
قول قيس بن الخطيم :

تبدّت لنا كالشمس ، تحت غمامة بدا حاجب منها ، وضنت بحاجب
ثم استخرجها ، فقال له بعض جلسائه : أما يكفيك ما
في هذه الأكياس ، حتى أدميت اصبعك لأجل هذه القطعة ؟
فقال : انها تحضر المائدة .

ألا تذكر الحادثة بقوله :

وربما اشهد الطعام معي من لا يساوي الخبز الذي اكله ؟
وامّا بالنسبة إلى الملوك فمن الخير ان تقتصر في الشواهد على العام
الاخير من حياته ابتغاء التأويل . ففي صفر من هذا العام توجه الشاعر

من بغداد ، عن طريق الاهواز ، تلبية لدعوة ابن العميد ، وبلغ أرتجان في الشهر نفسه . وتقول رواية علي بن حمزة البصري :

« كنت مع المتنبي لما ورد أرتجان ، فلما أشرف عليها وجدها ضيقة البقعة والدور والمساكن ، فضرب بيده على صدره وقال : تركت ملوك الأرض يتعبدون بي وقصدت ربّ هذه المدرة . فما يكون منه ؟ ثم وقف بظاهر المدينة ، وأرسل غلاماً على راحلته إلى ابن العميد ، فدخل عليه وقال : مولاي ابو الطيب خارج البلد . وكان وقت القيلولة وهو مضطجع في دسسته ، فثار من مضجعه واستبته . ثم أمر حاجبه باستقباله ، فركب واستركب من لقيه في الطريق . ففصل عن البلد بجمع كثير فتلقّوه ، وقضوا حقّه ، وأدخلوه البلد . فدخل على ابي الفضل ، فقام له من الدست قياماً مستوياً ، وطُرح له كرسي عليه وسادة ديباج ، وقال ابو الفضل : كنت مشتاقاً اليك يا ابا الطيب ! »

ففي هذه الرواية ترى كيف كانت منزله بين ملوك عصره . ولبث ابو الطيب شهرين عند ابن العميد . فتقول الرواية :

« ولما ودّع ابن العميد ... ورد كتاب عضد الدولة يستدعيه . فعرفه ابن العميد ، فقال : مالي وللديلم ؟ فقال ابو الفضل : عضد الدولة أفضل مني ، ويصلك بأضعاف ما وصلتك به . فأجاب : انني ملقّي من هؤلاء الملوك ، اقصد الواحد بعد الواحد ، واملّكهم شيئاً يبقى ببقاء النيران ، ويعطوني عرضاً فانياً . ولي ضجرات واختيارات ، فيعوقوني عن مرادي ، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه . فكتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث ،

فورد الجواب بأنه مملك مراده في المقام والظن . »

تأمل هنا قوله « لي ضجرات واختيارات » ، وهل لمن يستجدي بالمديح ويستكدي العطاء ضجرات واختيارات ؟ الا ان تكون له الخيرة في أمره مثل المدوحين ؟

وسار من أرتجان ، فيجيء في رواية أخرى :

« فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز استقبله عضد الدولة بأبي عمر الصباغ (اخي صاحب كتاب حقائق الآداب) ، فلما تلاقيا وتسايرا استنشده ، فقال المتنبي : الناس يتناشدونه ، فاسمعه . فأخبر ابو عمر انه رسم له ذلك عن المجلس العالي ، فبدأ بقصيدته التي فارق مصر بها :

الاكلّ ماشية الخيزلى فدى كلّ ماشية الهيدبى

ثم دخل البلد ، فأنزل داراً مفروشة ، ورجع ابو عمر إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى ، وانشده أبياتاً من المقصورة :

فلما انخنا ركزنا الرماح	بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبل أسيافنا	ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ، ومن بالعراق	ومن بالعواصم ، اني الفتى
واني وفيت ، واني أبيت	واني عتوت على من عتا

فقال عضد الدولة : هو ذا يهدّنا المتنبي ! »

تأمل هذا الاهتمام الكبير من عضد الدولة بشاعر يفد عليه ، ثم تأمل أي أبيات من شعره كلّها يختارها هذا الشاعر للانشاد ، عندما

يستشهد برسم المجلس العالي . وتمضي الرواية :

« ثم لما نفّض غبار السفر واستراح ركب إلى عضد الدولة ، فلما توسط الدار انتهى إلى قرب السرير مصادمة ، فقبل الأرض واستوى قائماً ، وقال : شكرت مطيعة حملتني إليك ، وأملأً وقف بي عليك . ثم سأله عضد الدولة عن سيره من مصر ، وعن علي بن حمدان ، فذكره .. وانصرف . »

وليس في قيامه المذكور ولا في حديثه شيء جديد علينا ، فقد قال لكافور أيضاً كما تذكر :

فزارك مني من اليك اشتياقه وفي الناس ، الا فيك وحدك ، زهده وأخيراً تنقل الرواية عن عبد العزيز بن يوسف الجرجاني ، كاتب الانشاء عند عضد الدولة (وكان أثيراً عنده) قوله :

« لما دخل ابو الطيب المتنبّي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه أتبعه بعض جلسائه ، وقال له سله : كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الامراء الذين لقيهم منا ؟ قال : فامتثلت أمره ، وجاريت المتنبّي في هذا الميدان وأطلت معه عنان القول . فكان جوابه عن جميع ما سمع مني ان قال : ما خدمت عيناى قلبي كالיום ! »

وقد رأى كاتب الانشاء هذا في قوله اختصاراً للفظ واطالة للمعنى ، أما نحن فمرى فيه شيئاً أعمق هو التفسير العملي لقوله له عند الوداع :

فلو كانت قلوبهم صديقاً لقد كانت خلائقهم عداكا

تأكيداً لمعنى « الخلائق » والمؤهلات الملكية فيه . وماذا كان يهم

عضد الدولة من رأي شاعر زاره في مجلسه ، لولا انه تلمّس عنده غير ما يتوقع الناس من التزلّف المعتاد ، لأنه قد كان ممن يعتزّ برأيه الملوك .

فهذا ما بدر منه عام مقتله ، وهو أبعد ما يكون عهداً بالثورة أو الدعوة لها .

* * *

ولم يكن عضد الدولة هو الوحيد في الاهتمام بأمر المتنبي بين الملوك ، فقد رأينا كيف كان سيف الدولة يتتبع أقواله — بعد مفارقه إياه — في كل شعر جديد يصدر عنه ، ويقيم له وزناً غير قليل في نفسه ، بما قدّمنا من توقيعاته على تلك الأقوال (١) .

حتى الذين لم يتصل هو مباشرة بهم من الملوك كانوا يظهرون مثل هذا الاهتمام بشأنه ، وما يفضي اليه أمره . فمما رواه ابو علي الحاتمي ، على اثر المناظرة التي جرت له مع المتنبي في بغداد :

« وتشاغلّت بقيّة يومي — بشغل عنّي لي — عن حضرة الوزير المهلبّي ، وانتهى اليه الخبر ، فأتني رسله ليلاً ، فسرت اليه وقصصت عليه القصة بتامها ، فحصل له من السرور والابتهاج بما جرى ما بعثه على مباكرة معز الدولة ، وأخبره بكل ما أخبرته . وأخبرني الرئيس ابو القاسم محمد ابن العباس انه بمجرد دخوله على معز الدولة قال : أعلمت ما كان من ابي علي الحاتمي والمتنبي ؟ فانه شفى منه صدرا . »

فلماذا هذه العداوة الصريحة من وزير وملك (المفروض ان يكون مقامهما ارفع) لانسان رعيّة لم يسيئ اليهما من بعيد ولا قريب ؟ لولا

١ راجع الفصل السابق .

ان هناك - مع الكفاء - تخالفاً بين الجانبين في الأرواح ، وتناسراً في الصفات ؟

ثم ان المتنبي عوضاً عن ان يتحمل منة ممدوحيه من الملوك ويعترف لهم بالاريحية كان يرفع قدر نفسه وشعره وكان يمين بهذا الشعر على الممدوحين . قال ابن جنّي (الشارح كما سماه) :

« كنت قرأت ديوان المتنبي عليه ، فلما وصلت إلى قوله (القصيدة) :

اغالب فيك الشوق ، والشوق اغلب واعجب من ذا الهجر ، والوصل اعجب
فلما انتهيت إلى قوله :

لحا الله ذي الدنيا مناخاً لراكب	فكلّ بعيد الممّ فيها معذب
ألا ليت شعري هل أقول قصيدة	ولا اشتكي فيها ، ولا اعتب
وبني ما يذود الشعر عني أقله	ولكنّ قلبي يا ابنة القوم ! قلب
واخلاق كافور - إذا شئت مدحه	وان لم أشأ - تملي عليّ وأكتب
إذا ترك الانسان أهلاً وراءه	ويتم كافوراً ، فما يتغرب

فقلت له : يعزّ عليّ ان يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة . فقال : حذرناه وأنذرناه فما نفع فيه الحذر ، ألسن القائل فيه :

أخا الجود ! أعط الناس ما أنت مالك
ولا تعطينّ الناس ما أنا قائل

فهو الذي اعطاني لكافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه .

ولماذا كلّ هذا الاهتمام بسيف الدولة ما دام هناك ملوك آخرون لا ييخلون عليه بالعطايا ؟ لولا انه كان يتطلّب في الملوك الذين يعايشهم

ويعاشرهم - لا منهم فحسب - شيئاً أكثر من المال . . هو الخلق الملكي .

فهذا الخلق الملكي هو الذي جعله يتذكر سيف الدولة دائماً ، إذ ما زال بعد مفارقتة له يعرض بمدحه تارة ويصرّح أخرى ، كما في قوله أول وفوده على كافور :

فراق ، ومن فارقت غير مذمم

وقوله من أخرى ، بعد أن تبرّم بالمقام عند كافور :

عشيّة احفى الناس بي من جفوتته وأهدى الطريقين الذي اتجنب

حتى انتهى به التبرّم والضجر إلى الخروج من مصر ، بعد مقام أربع سنوات فيها ، هارباً على وجهه ، ساخطاً من نفسه ومن الناس ، برماً بالحياة كلها .

أما يتسنى لنا من كل هذا ان نجيب على السؤال : في أي طبقة كان يضع المتنبي نفسه ؟

وإذا كنا بعد كل هذا لا زلنا في شك من أمر هذا الشاعر فلنصخ بأذن واعية إلى هذه اللهجة المدلّة التي كان يخاطب بها المتنبي - أحياناً - ملوك عصره ، ولنتبصر بها في الظلمات . في مثل عتبه على أبي العشائر :

وكل وداد لا يدوم على الأذى - دوام ودادي للحسين - ضعيف
فان يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سررن ألوف

وتحفيزه لسيف الدولة :

قصدنا له ، قصد الحبيب لقاءه إلينا ، وقلنا للسيوف : هلمنا !
وخيل حشوناها الأسنة ، بعدما تكدّسن من هنا علينا . ومن هنا

ضربن الينا بالسياط جهالة
وتحريره له من الكوفة :

لست أرضى بأن تكون جوادا
نفّص البعد عنك قرب العطايا
وزماني - بأن أراك - بخيل
مرتعي مخصب ، وجسمي هزيل
ومصارحته لكافور الاخشيدي :

أنت الحبيب ، ولكني اعوذ به
وتهنته له :

وانا منك .. لا يهني عضو
ومناشدته له :

وما شئت الا ان ادلّ عواذلي
واعلم قوماً خالفوني فشرقوا
على ان رأيي في هواك صواب
وغرّبت ، أني قد ظفرت ، وخابوا
وتقديره لأبي شجاع فانتك الأخشيدي :

وما شكرت لأن المال فرّحني
لكن رأيت قبيحاً ان يجاد لنا
سيان عندي اكثار واقلال
واننا بقضاء الحق بخال
وتشوقه لابن العميد :

أرجان أيتها الجياد ! فانه
صغت السوار لأيّ كف بشرت
عزمي الذي يذر الوشيح مكسّرا
بابن العميد ، وأيّ عبد كبرّا
وتذكيره له مودعاً :

تفضّلت الايام بالجمع بيننا
جعلن وداعي واحداً لثلاثة
فلما حمدنا ، لم تدمنا على الحمد
جمالك ، والعلم المبرح ، والمجد

ونأكيده لعضد الدولة آخر ما أنشد :

أروح وقد ختمت على فؤادي بجبّك ان يحلّ به سواكا
وقد حملتني شكراً طويلاً ثقيلاً لا اطيع به حراكا
أحاذر ان يشقّ على المطايا فلا تمشي بنا الا سواكا
لعلّ الله يجعله رحيلاً يعين على الاقامة في ذراكا

لم يفت صاحب « اليتيمة » ان يرى من بدائع ابي الطيب مخاطبة المدح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب مع الاحسان والابداع ، فقال : وهو مذهب له تفرد به واستكثر من سلوكه اقتداراً منه ... ورفعاً لنفسه عن درجة الشعراء ، وتدرجاً لها إلى مماثلة الملوك ، كقوله : وما أنا بالباغي على الحبّ رشوة ضعيف هوى يبغي عليه ثواب إلى آخر ما قال .

وهذه من الملح (١) التي اشرنا اليها ، وفاتت الناس دلالتها . والمتنبّي كان يصارح الملوك بما يعلم من نفسه دون تلكّو . في كلّ فرصة مؤاتية . فهو قد قال لأبي العشائر :

شاعر المجد خدنه شاعر اللف ظ ، كلانا ربّ المعاني الدقاق
لم تزل تسمع « المديح » ولك سنّ صهيل الجياد غير النهاق
ولسيف الدولة :

أينكر ريح الليث حتى يذوقه وقد عرفت ريح الليث البهائم
لك الحمد في الدّر الذي لي لفظه فانك معطيه ، واني ناظم

١ حدث اسحق الموصلي قال : قرأت على الاصمعي شعر امرئ القيس ، فلما بلغت إلى هذا البيت : أمن اجل اعرابية - حل أهلها - بروض الشرى - عينك تبتدران ؟ فقال لي : أتعرف في هذا البيت خبئاً باطناً غير ظاهر ؟ قلت : لا ! فسكت عني . فقلت : ان كان فيه شيء فأفدنيه . قال : نعم ، أما يدلك البيت على انه لفظ ملك مستهين ذي قدرة على ما يريد ؟ قال اسحق : وما رأيت قط مثل الاصمعي في العلم بالشعر .

ولكافور :

فأرم بي ما اردت مني . فأنسي أسد القلب ، آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك ، وان كا ن لساني يرى من الشعراء (١)
أليس في هذا مقنع ان المتنبي كان يرى نفسه من طبقة الملوك ؟

• • •

وهو ما كان يرى نفسه من طبقة الملوك فحسب ، بل كان يعتبر
نفسه أكبر من كثير منهم ، واليك البيان :
كان المتنبي يتحلّى بخصال هي الزم ما تكون للملوك والزعماء ،
في كلّ عصر وزمان . مهما اختلفت العصور والازمنة . من علوّ
اذمة .

١ قيل للمتنبي ، قولك في كافور :

فأرم بي ما اردت مني ، فأنسي أسد القلب آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك ، وان كا ن لساني يرى من الشعراء
ليس قول ممدوح ولا منتجع ، إنما هو قول مضاد . فأجاب المتنبي ... إلى ان قال : هذه القلوب
كما سمعت ، أحدها يقول :
يقر بعيني ان أرى قصد القنا وصرعى رجال من وغيانا حاضره
وأحدها يقول : يقر بعيني ان أرى من مكانها ذرا عقداً الاجرع المتقاود
وروي انه تذكرو يوماً في حضرة السلطان أبي عبد الله أمير المسلمين بالاندلس تباين قول المتنبي :
أيا خدد الله ورد الخدود وقد قدود الحسان القدود
وقول امرئ القيس :

وان كنت قد ساءتلك مي خليفة فلي ثيابي من ثيابك تنسل
وقول ابراهيم بن سهل :

اني له عن دمي المسفوك معتذر أقول : حملته من سفكه تعباً
قال الامير : بينهم ما بين نفس ملك عربي . وشاعر عربي ، ونفس يهودي تحت الذمة . وإنما
تتنفس النفوس بفدر همها .

تطاردني عن كونه واطارد
إذا عظم المطلوب ، قلّ المساعد

وكبرياء النفس :

لقد ولدت منّي لأنفهم رغما
ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً

والاعتداد بالقلب :

تعجز عنه العرامس الذلل
مجترى ، بالظلام مشتمل
لم تعيني في فراقه الحيل
وفي بلاد من اختها بدل

أهمّ بشيء ، والليالي كأنها
وحيد من الخلان في كل بلدة

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها
تغرب .. لا مستعظماً غير نفسه

ومهمه جُبته على قدمي
بصارمي مرتد . بمخبرتي
إذا صديق نكرت جانبه
في سعة الخافقين مضطرب

وعدم المبالاة :

فؤادي في غشاء من نبال
تكتّرت النصال على النصال
لأنّي ما انتفعت بأن أبالي

المال ، لأنه نشأ فقيراً لا يملك

رمانى الدهر بالأرزاء حتى
فصرت إذا أصابني سهام
وهان .. فما أبالي بالرزايا

وكان لا يقصر عنهم إلا في

المال :

بالسوط يوم الرهان اجدها
زامها ، والشسوع مقودها
— تحي من خطوها — تأودها

لا ناقتي تقبل الرديف ، ولا
شراكها كورها ، ومشفرها
أشدّ عصف الرياح . يسبقه

ويُبدل عليهم بالوفاء :

رأيتك تصفي الود من ليس صافيا
لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

أقل اشتياقاً أيها القلب ! ربما
خلّقت ألوفاً ، لو رجعت إلى الصبا

وكان المتنبي يزيد على الملوك بعد ذلك في صدق القول وطهارة الذيل . فهو قد عاش صادقاً عفيفاً ما زنى قط ، ولا كذب قط . وكان أشد شيء وقعاً على نفسه ونكراً عنده من صادفه من الملوك تنقصه إحدى هاتين الصفتين . ولذلك هو هجا كافور بعد ان مدحه مستبشراً ، لأنه لم يكن صادقاً فيفي له بوعدده . كما ترفع عن مدح الوزير المهلبى لأنه وجده متهادياً في السخف ، مستهزئاً بالهزل ، يستولي أهل الخلاعة عليه .

وهذا الاعتزاز بنفسه وطهارة ذيله هو الذي جعله يصرخ مرة في وجه سيف الدولة (١) في محفل حاشد (حامت بين رجاله التهم حوله ، وقد لاكتها ألسن السوء ، فكانت سيوفهم مشرعة عليه) ، ويقول بكل اطمئنان :

كم تطلبون لنا عيباً ، فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي انا الثرياً ، وذان .. الشيب والهرم
فقد جعل العيب بعيداً عنه بعد الشيب عن النجم .

ولعله قد لا يخلو من المتعة ان نستوفي بحثنا هنا بالحديث عن عفّته . فان هذه العفّة تكاد تعلن عن نفسها في كل صفحة من الديوان . تأمل قوله :

عواذل ذات الحال في حواسد وان ضجيع الخود مني لماجد
يردّ يداً عن ثوبها ، وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها ، وهو راقد
يردّ يداً عن ثوبها ...

متى يشتفي من لاعج الشوق في الحشا محبة . لها في قربه متباعد ؟
إذا كنت تخشى العار في كل خلوة فلم تتصباك الحسان الخرائد ؟

١ راجع « المتنبي بين شراحه وناقديه » .

والمتنبى يكرّر هذا المعنى عن نفسه في عدّة مواضع ، حتى في قوله
المكشوف :

انتي على شغفي بما في خمرها لأعفّ عما في سراويلاتها (كذا)
رواية الصاحب . ويقول الصاحب معلقاً :

« كانت الشعراء تصف المآزر ، تنزيهاً لألفاظها عمّا
يستشنع ذكره ، حتى تخطى هذا الشاعر المطبوع إلى التصريح
الذي لم يهتد إليه غيره ... وكثير من العهر احسن من هذا
العفاف » .

هذا ما قاله الصاحب « الطاهر الذيل » ، أما أنا فأقول : مهما أنكر
عليه الناقدون هذا البيت ، فهو لم يأت فيه إلا بما يقوله كل ماجد مثله .
تأمل قول الشريف الرضي ، وهو من تعام عفة نفس :
احنّ إلى ما تضمن الخمر والحلا وأصدف عمّا في ضمان المآزر
هل تعدّى مضمونه أو فحواه ؟

وكذلك قول المتنبى :

يرشّفن من فمي رشفات هنّ فيه أحلى من التوحيد

فقد خبط الشارحون خبط عشواء في تفسير هذا البيت . فزعم
بعضهم انه نوع من التمر ، وذهب آخرون إلى انها كلمة الشهادة ،
ثم لم يحجموا عن رميه بالاحاد . والمسألة أبسط من هذا كله ، فكلّ
ما هنالك ان المتنبى - تمسكاً بخُلُقهِ - يصرّح ان القبل هي الحد الفاصل
لاستمتاعه بالحبيب ، فهو لا يتجاوز القبل إلى التهادي في الاتصال ، ولا
يجد مطلقاً تلك اللذة في « التوحيد » الذي يشرحه قول أحد شعراء الشباب
المعاصرين :

أجب يا سراج ! إذا ما سئلت فما كان غيرك من شاهد
سهرت على اثنين قبل العناق وبعد العناق على واحد
فالمتنبى لا يطيب له الا ان يقف دون التعانق .

دون التعانق ناحلين ، كشكليتي نصب ادقهما ، وضم .. الشاكل
ونفس هذه العفة يراها منعكسة فيها :

بيضاء .. تطمع فيما تحت حلتها وعز ذلك مطلوباً إذا طلبا
أما القبل فشأنها هيّن ، فهو يقول عنها :

قبلتها ودموعي مزج أدمعها وقبلتني - على خوف - فمأ لقم
فليس حكم هذه القبل الا حكم الشباب واللهم عنده :

للهم آونة تمر .. كأنها قبل ، يزودها حبيب راحل
وكذلك شأنه مع فتاة الحي إذا طرقتها ليلاً ، فان عفّته ومروءته تقفان
لها بالمرصاد :

وقد طرقت فتاة الحي مرتدياً بصاحب غير عزهامة ولا غزل
فبات بين تراقينا ندفعه وليس يعلم بالشكوى ولا القبل
ثم اغتدى وبه من درعها اثر على ذوابته . والجفن ، والخلل
يحول بينها وبينه دائماً صاحبه الذي لا يفارقه . فما كان أحقه ان
يقول بعد بيته المكشوف :

وترى المروّة والفتوة والأبوة في كل مليحة ، ضرائها
هن الثلاث المانعاتي لذتي في خلوتي ، لا الخوف من تبعاتها
ذلك هو المتنبى في كبريائه وشموخه .

كان المتنبي يرى نفسه - اذن - أكبر من كثير من ملوك عصره ، الذين عرفهم واحداً واحداً ، لهذه الخلال الملكية التي كان يتحلّى بها : من علوّ الهمة ، وكبرياء النفس ، والاعتداد بالقلب ، وعدم المبالاة ، وصدق اللهجة ، والعفة والوفاء ، دع عنك ما يتفرّع عنها من العجب والاباء ، والجرأة والاقدام ، والصبر والشجاعة في قلب ناثر مثله .

فتلك كانت صفاته الخلقية التي كان يعتد بها في شدة وترحاله ، وحبّه وبغضه ، وراحته وقلقه . وقد نجم عنها في شعره - على هدي فطرته الواعية - مميّزات ، طبعت اسلوبه بطابعها ، وشقّت له هذه « الطريقة » الفذة في البيان . وهذه المميزات - ان اردنا الاختصار على أهمّتها ، وابرزها للعيان - هي :

(أ) الصراحة الجارحة .

(ب) دقّة الملاحظة .

(ج) الاستقصاء الفني في التمثيل .

(د) نظرة الطائر .

مزوّدة كلّها بالثقافة العميقة ، ومدعمة بالفطرة الواعية . انما تشرف عليها جميعاً الفطرة الواعية .

فهذه المميّزات في ملابسها لشعره وتمكّنها منه انما ترجع إلى تلك الصفات الملكية لا غير التي درسناها في هذا الفصل ، والتي جعلت المتنبي - على خصائصه - ملكاً بين الملوك .

وسنرى كيف تتألف هذه المميّزات في شعره في الفصول التالية .

الباب السابع

الصراحة الجارحة

ليس من قصدنا ، وقد بنينا هذا الفصل على معنى الصراحة الجارحة عند شاعرنا ، ان نوحى بأننا لا نلقى عند سواه شواهد عليها ، فان الشعراء الآخرين لا تخلو دواوينهم من شواهد صريحة أو غير صريحة على هذا النوع . ولكن هذه الامثلة ان وجدت عندهم فمعدودة ، لا تعدو كونها عثرات في الطريق ، بينما هي عند المتنبي سيره القويم في الطريق (١) بلا ملل ، لا يخف منها ولا يشذ عنها طول سيره في الطريق (٢) .

ولقد رأينا في بعض المكرّر من شعر المتنبي كيف كان يجابه الناس بصراحته ، وينظم فيهم كلمات جارحة ، في مثل قوله :

١ راجع الفصل « على ضوء ما نظم الصبي » .

٢ يتميز الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري بين شعرائنا المعاصرين بهذه الظاهرة على اشدّها . الصراحة الجارحة . ولكنه لا يملك - على قدرته - ملكة سواها - ، يمكن ان يظهر بها الشعراء الآخرون . واشك ان كان حتى هذه سلمت له الآن .

ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس ، روى رحمه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم
وقوله :

غري بأكثر هذا الناس ينخدع ان قاتلوا جبنوا ، أو حدّثوا شجعوا
أهل الحفيظة ، الا ان تجربهم وفي التجارب ، بعد الغي ، ما يزع
وكانت بعض هذه الكلمات الجارحة تشمل حتى ممدوحيه من الملوك :

لا اقترى بلداً الا على غرر ولا امر بخلق غير مضطغن
ولا اعاشر من املاكهم ملكاً الا احق بضرب الرأس من وثن
مدحت قوماً ، وان عشنا نظمت لهم قصائد من اناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوافيها مضمرة إذا تنوشدن لم يدخلن في الأذن
وقوله :

بكلّ منصلت ما زال منتظري حتى ادلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحلّ دم الحجاج في الحرم

* * *

أملك الملك (والاسياف ظامنة والطير جائعة) لحم على وضم ؟
من لو رأني ماءً ، مات من ظمأ ؟ ولو عرضت له في النوم لم ينم ؟
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فان أجابوا .. فما قصدي بها لهم وان تولّوا .. فما ارضى لها بهم

كما مرّ بنا من شواهد الكثرة .

على انه لم يقتصر - في المبادأة بهذه الصراحة الجارحة - على من
يزدرهم من هؤلاء ، وانما يتجاوز بها إلى أولئك الذين كان يبجلهم
(إذا تنكّر لهم) من ممدوحيه ، وفي مقدّماتهم سيف الدولة . تأمل

كيف يضيق به ذرعاً ، فيهدّده بالرحيل :

أرى النوى تقتضي كل مرحلة
لئن تركن « ضميراً » عن ميامننا
إذا ترحلت عن قوم ، وقد قدروا
شرّ البلاد مكان لا صديق به
وشرّ ما قنصته راحتي قنص
وكيف ينأشده الانصاف :

ومالي ، إذا ما اشتقت ، ابصرت دونه تنائف — لا اشتاقها — وسباسب
أهذا جزاء الصدق ، ان كنت صادقاً ؟ أهذا جزاء الكذب ، ان كنت كاذباً ؟
وتظهر هذه الصراحة ، اجرح ما تكون ، عندما كان يعنّ للمتنبّي
وهو في حلب ان يعرض بمن كانوا يحاربون سيف الدولة من قبائل
العرب ، بله الروم اعداء العرب الالداء .

فمن قوله في وقعة سيف الدولة ببني كلاب :

رميتهم ببحر من حديد
فمسّاهم ، وبسطهم حرير
ومن في كفه منهم قنّاة
له في البرّ خلفهم عباب
وصبّحهم ، وبسطهم تراب
كمن في كفه منهم خضاب

وقوله في ايقاعه بالقبائل المتمرّدة :

وأجفل « بالفرات » بنو نمير
فهم حزق على « الحابور » صرعى
فلم يسرح لهم في الصبح مال
حذار فتى إذا لم يرض عنهم
وزأرهم (الذي زأروا) خوار
بهم ، من شرب غيرهم ، خمّار
ولم توقد لهم بالليل نار
فليس بنافع لهم الحذار
أما إذا جاوز قبائل العرب إلى اعدائهم الروم ، فهناك الهول الذي

يتصاغر دونه الهول ، وقصف الملاحم التي يتضاءل تحتها كل ما سمعت
أو تسمع من هزيم الرعود ، في كلمات مكهربة لا تبقي ولا تذر .

في مثل قوله يذكر بناءه مرعش . ومحاولة الدمستق فصله .

أتى « مرعشاً » يستقرب البعد ، مقبلاً وأدبر ، إذ أقبلت . يستبعد القربا
مضى بعد ما التفّ الرماحان ساعة كما يتلقّى الهدب في الرقدة الهدب
ولكنه ولّى وللطن سّورة إذا ذكرتها نفسه لمس الجنباً

وفي قوله يعرض بضربة أصيب بها الدمستق في وجهه . وأسر ابنه :

لعلك يوماً ياد مستق ! عائد فكم هارب ممّا اليه يؤول
نجوت باحدى مهجتك جريحة وخلّفت احدى مهجتك تسيل
أتسلم للخطية ابنك ، هارباً ويسكن في الدنيا اليك خليل ؟
بوجهك ما انساكه من مرشّة فصيرك منها رنة وعويل

وفي قوله يصف انهزام جموعهم بعد أن حاولوا الاحاطة بشفر

الحدث :

نزلوا في مصارع عرفوها يندبون الاعمام والاخوانا
تحمل الريح بينهم شعر الها م . وتذري عليهم الاوصالا
تتذر الجسم ان يقوم لديها فتريه لكل عضو مثالا

وفي قوله عند منصرفه من بلاد الروم مكتسحاً ظافراً :

حتى عبرن « بأرسناس » سوابجا ينشرن فيه عمائم الفرسان
يقمصن في مثل المدى من بارد يذر الفحول . وهنّ كالخصيان
والماء بين عجاجتين مختص تنفرقان به وتلتقيان
ركض الامير وكاللعين حبابه وثني الأعنة وهو كالعقيان
قتل الحبال من الغدائر فوقه وبني السفين له من الصليان

وفي قوله يتهكم بقسم البطريق انه يعارض سيف الدولة في الدرب :
وأسلم « ابن شمشيق » أليته الا انثى ، فهو ينأى .. وهي تبسم
لا يأمل النفس الاقصى لمهجته فيسرق النفس الادنى ويغتم
وهو لا يستنكف حتى عن ذم الجيوش المقاتلة من المسلمين ، إذا
خذلوا أميرهم

قل للدمستق : ان المسلمين لكم
وجدتموهم نياماً في دمائكم
ضعفى ، تعف الايادي عن مثالمهم
لا تحسبوا من اسرتم كان ذا رمتق
هلاً على عقب الوادي ، وقد طلعت
تشقكم بفتاها كل سلهبة
واتما عرض الله الجنود بكم
خانوا الامير ، فيجلزاهم بماصنعوا
كأن قتلاكم اياهم فجعوا
من الاغادي ، وان هموا بهم نزعوا
فليس يأكل الا الميت الضبع
أسد تمر فرادى ، ليس تجتمع
والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع ؟
لكي يكونوا بلا فسل إذا رجعوا

* * *

فإذا غادر سيف الدولة إلى القسطنطينية أخذته الحنين إليه فلم تفته ولا
مناسبة لمواخذته بما صدر منه في حقّه ، والتشهير به ، في مثل قوله
معرضاً بالحنين إليه :

حيبتك قلبي قبل حبك من نأى
وأعلم انّ البين يشكيك بعده
فانّ دموع العين غدر بربتها
وقوله معرضاً يالم فراقه :

وما منزل اللذات عندي بمنزل
سجية نفس .. ما تزال مليحة
رحلت ، فكم باك بأجفان شادن
إذا لم اجل عنه واكرم
من الضيم ، مرمياً بها كل مخرم
عليّ ، وكم باك بأجفان ضيغم

قال الثعالبي : المصراع الثاني تصديق لقوله : ليحدثن لمن ودعتهم
ندم .

وما ربّة القرط المليح مكانه بأجزع من ربّ الحسام المصمّم
فلو كان ما بي من حبيب مقنّع عذرت ، ولكن من حبيب معمم
رمى ، واتقى رميي ، ومن دون ما اتقى هوى كاسر كفتي وقوسي ، واسهمي

ثم قوله معرّضاً بالقدح في جنبه :

قالوا : هجرت اليه الغيث ، قالت لهم : إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحته ولا يمنّ على آثار موهوب
ولا يروع - بمغدور به - أحداً ولا يفزع موفوراً .. بمنكوب

ويعود فيعرّض بهذا القدح في كافور :

أما تغلط الأيام في .. بأن أرى بغيضاً تناعى ، أو حبيباً تقرب ؟
ولله سيري ما أقلّ تيّنة عشية شرقيي « الحدالي » و « غرب »
عشية أحفى الناس بي من جفوته وأهدى الطريقين التي أتجنب

وينعاه قوم في مجلس سيف الدولة ، ويبلغه ذلك ، فيعلّق :

يا من نعت على بعد بمجلسه كلّ بما زعم الناعون مرّتهن
كم قد قتلت ، وكم قد متّ .. عندكم

ثم انتفضت ، فزال القبر والكفن

قد كان شاهد دفني قبل قولهم جماعة ، ثم ماتوا .. قبل من دفنوا
ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدرّ على مرعاكم اللّبن
جزاء كل قريب منكم ملل وحظّ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفقكم حتى يعاقبه التغيص والمنن
فغادر الهجر ما بيني وبينكم بهاء . تكذب فيها العين والأذن

تحبو الرواسم ، من بعد الرسم ، بها وتسأل الأرض - عن اخفافها - الثفن
ويلتفت إلى كافور فيعرض بما يأمل منه :

أرى لي بقربي منك عيناً قريرة وهل نافعي ان ترفع الحجب بيننا
وما أنا بالبلاغي على الحب رشوة وما شئت الا ان ادلّ عواذلي
وأعلم قوماً ، خالفوني - فشرقوا وغرّبت - اني قد ظفرت ، وخابوا
ونحيب أمله ، فيقول عند اصابته بالحمى :

أقمت بأرض مصر ، فلا ورائي تحبّ بي الركاب ، ولا أمامي
وملّني الفراش ، وكان جنبي يملّ لقاءه في كلّ عام
قليل عائدي ، سقم فؤادي كثير حاسدي ، صعب مرامي
عليل الجسم ، ممتنع القيام شديد السكر ، من غير المدام

* * *

يقول لي الطبيب : أكلت شيئاً ودأوك في شرابك والطعام
وما في طبّه اني «جواد» أضّر بجسمه طول الحمام
تعود أن يغبرّ في السرايا ويدخل من قمام في قمام
فأمسك .. لا يطال له ، فيرعى ولا هو في العليق ، ولا اللجام

ويصمم على الخروج من مصر ، فيقول ليلة سفره :

أمسيت ارواح مثر خازناً وبدأ انا الغنيّ ، واموالي المواعيد
انتي نزلت بكذابين ، ضيفهم - عن القرى وعن الترحال - محدود
جود الرجال من الايدي ، وجودهم من اللسان ، فلا كانوا ولا الجود
ويذكر فاتكاً الاخشيدي الذي فجع فيه بعد الاستئناس به ، فيقول

متحسراً :

لا فأتك آخر في مصر نقصده
من لا تشابهه الاحياء في شيم
عدمته ، وكأني سرت أطلبه
ولا له خلف في الناس كلهم
امسى تشابهه الاموات في الرمم
فما تزيدني الدنيا على العدم

ويعود إلى مراسلة سيف الدولة من الكوفة ، فيعرض بمن هم وراء
ظهره :

أنت طول الحياة للروم غاز
وسوى الروم ، خلف ظهرك ، روم
قعد الناس كلهم عن مساعيد
ما الذي عنده تدار المنايا
فمتى الوعد ان يكون القفول ؟
فعلى أي جانبك تميل ؟
ك . وقامت بها القنا والنصول
كالذي عنده تدار الشمول

• • •

وهو قد بلي في حياته المريرة بالشامتين والحاسدين في كل مكان ،
فلم يكلّ لسانه ولا هدأ جناحه لحظة في التنكيل بهؤلاء . كقوله لبدر بن
عمار في طبرية :

وانه المشير عليك في بضلة
ومكايد السفهاء واقعة بهم
فالحرّ ممتحن بأولاد الزنا
وعداوة الشعراء بنس المقتنى

وقوله في مجلس سيف الدولة :

انا السابق الهادي إلى ما أقوله
وما لكلام الناس . فيما يرييني
اعادي على ما يوجب الحبّ للفتى
سوى وجع الحساد داو . فانه
ولا تطمعن من حاسد في مودة
إذ القول قبل القائلين مقول
اصول . ولا للقائليه اصول
وأهدأ . والافكار في تحوّل
إذا حلّ في قلب فليس يحول
وان كنت تبديها له وتنبّل

وانّا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهنّ قليل
يهون علينا ان تصاب جسوننا وتسلم أعراض لنا وعقول
أما الشعراء فقد عرفهم على حقيقتهم - بعد ان شالت كفتهم في
ميزانه - فلم يتردّد عن مكاشفتهم في كلّ أطوار حياته برأيه الصريح .
ولنبداً معه منذ حدائته حيث نسمعه يقول :

ما مقامي بأرض « نخلة » الاّ كمقام المسيح بين اليهود

* * *

لا بقومي شرفت ، بل شرفوا بي وبهم فخر كلّ من نطق الضا
ان اكن معجباً ، فعجب عجيب انا ترب الندى ، وربّ القوافي
أنا في أمة - تداركها الله - وبغوث الطريد
لم يجد فوق نفسه من مزيد وسمام العدا ، وغيط الحسود
ه - غريب ، كصالح في ثمود

حكى ابن جني قال : سمعت ابا الطيب يقول : انما لقبت « المتنبّي »
لقولي هذا . فهو يقول في الشعراء أوائل عهده بهم :

ارى المشاعرين غروا بدمي ومن يك ذا فم مرّ مريض
ومن ذا يحمّد الداء العضالا ؟ يجد مرّاً به الماء الزلالا
ويقول :

ما نال أهل الجاهليّة كلّهم وإذا أنتك مذمتي من ناقص
ويعصّدم بهم في مجلس سيف الدولة ، فيقول :

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا بأني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسّمت كلماتي من به صمم

أنا م ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاه ، ويختصم
بأيّ لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك ، لا عرب ولا عجم ؟
ويطول تحمّله لهم فيقول :

أفي كلّ يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني ، قصير يطاول ؟
لساني - بنطقي - صامت عنه ، عادل

وقلبي - بصمتي - ضاحك منه ، هازل
وأتعّب من ناداك من لا تجيبه وأغيط من عاداك من لا يشاكل
وما التيه طبّي فيهم ، غير انني بغيض إليّ الجاهل المتعاقل
وينشد سيف الدولة آخر قصائده بحب ، فيقول مودّعاً ... أو
كالمودّع :

لا تطلبنّ كريماً بعد رؤيته انّ الكرام ، بأسخاهم يداً ، ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول ، حتى أحمد الصمم

* * *

قلت ان المتنبي كان يتطاول على الملوك لما يتحلّى به من خصال
ابرزها الصدق والعفة ، وهذا الذي جعل هيناً عنده ان يسمّي الأشياء
بأسمائها ، غير مبال بوقعها في النفوس لأنه حر ، بينما ساء موقعها في
الناس ، وهم الذين لا يجرون في مثل هذه الامور الا على الخذلقة
والنفاق ، لأنهم غير أحرار .

وانما نحن في جيل سواسية شرّ ، على الحرّ ، من سقم على البدن
حولي بكلّ مكان منهم خلق تحطي إذا جئت في استفهامها ب « من »

وهي تعيش « للصوم والفطر والاعياد والعصر » . كما قال مهنّأ
سيف الدولة مرّة :

ما الدهر عندك الا روضة انف يا من شمائله في دهره زهر
ما ينتهي لك في ايامه كرم فلا انتهى لك في أعوامه عمر
فان حظك من تكرارها شرف وحظ غيرك منها الشيب والكبر

ويروى : النوم والسهر .

ولذلك تبلغ هذه الصراحة الجارحة عنده أقصى حدّها من الإيجاع ،
إذا هجا من اساءوا اليه ظالمين ، أو خيّبوا أمله عامدين أو أثاروا حفيظته
متطفلين ، وهو جادّ كلّ الجدّ إذا هجا ، يعني ما يقوله غير هازل ،
وهجاؤه مقذع .. لا يحجم هو عن الإفحاش فيه .. فيرمي من يهجوهم
— صادقاً غير كاذب — بكلمات كالحمم تترك للكيات اثرها على الحدود
والجباه ، لا يندمل جرحه .

فهو قد هجا اسحق بن كيغلف مثلاً لانه وقف له عائقاً كحجر
عثرة في الطريق ، فلم يتمالك دون ان يركله برجله ليزيح ثقله عن
الطريق . وهو قد هجا كافور الاخشيدي لانه ضيق عليه الإقامة في
مصر اربع سنوات ، بعد ان بنى له قصوراً من الاحلام الكاذبة في
المواء ، فلم يسعه الا ان يكشف صفحته السوداء للناس ، ويظهره على
حقيقته البشعة في شخصه . وهو قد هجا ضبة لانه كان لئماً نجساً
اجتمعت فيه كل صفات الخسة والنذالة ، فلم يقل فيه الا ما كان مشهوراً
عنه بين العراقيين ، ولم يأتهم بجديد .

فإذا هو عرض بعرس الأول في قوله :

يحمي ابن كيغلف الطريق ، وعرسه ما بين رجلها الطريق الاعظم (١)
أقم المسالح فوق شفر سكيّنة ان المنى بحلقتيها خصرم

١ لم يشذ المتنبي عن اساليب العرب فقد قال انفرزدق قبله بالجرير :
وأبحت امك يا جرير كأنها في الناس — باركة — طريق معمل

إلى آخر الايات ، فقد كانت هي كذلك .

وإذا هو قال في كافور عشية فراقه :

العبد ليس لحرّ صالح بأخ لو أنّه في ثياب الحرّ مولود
لا تشتّر العبد إلاّ والعصا معه ان العبيد لأنجاس مناكيد

* * *

من علّم الاسود المخصي مكرمة اقومه البيض ؟ أم آباؤه الصيد ؟
ام اذنه في يد النخاس دامية ؟ ام قدره ، وهو بالفلسين مردود ؟
اولى اللئام كوفيير بمعدرة في كلّ لؤم ، وبعض العذر تفنيد
وذلك ان الفحول البيض عاجزة عن الجميل ، فكيف الحصية السود
فقد كان هو — عنده — كذلك .

وإذا هو قال في ام ضبّة :

ما أنصف القوم ضبّة وأمه الطرطبة
رموا برأس أبيسه وباكوا الأمّ غلبه

إلى آخر ما قال ، فقد كان الكوفيّون (١) يعلمونها وابنها كذلك .

والمتنبّي إنّما نظم هذه الالهاجي امّا تنفيساً عن نفسه الثائرة ، أو
تقريراً للواقع القبيح . أو تلبية لرغبة الغلّة الذين كانت لهم الدالة عليه
— من كلّ فتي سميذع — هم الذين كان يعولّ عليهم في مغامراته .
ويرافقونه في الحلّ والترحال (٢) .

١ كان قوم من أهل العراق قتلوا أبا ضبة بن يزيد العيني ونكحوا أمه . وكان هذا العبد فيمن كان مع
الخارجي الذي نجم في بني كلاب وحاول غزو الكوفة هذا العام ، فدفع عن أبوابها بعد قتال شديد
اشترك فيه المتنبّي ، وذلك قبل وصول القائد دلير بن لشكروز من بغداد بالنجدة ، كما مر بك .
راجع ما قاله المتنبّي في بني كلاب فصل « دلالة المكرر » من شعر المتنبّي في أحداث عام ٣٥٣ .

٢ راجع الفصل نفسه .

وكانت مؤسساته في حياته المكشوفة . هذه الخطوة الكبرى — عامل مجده — التي كان يلقاها شعره (١) . حتى الذي لم يكن يقصد به وجوه الناس — في مبادله — ولا هو ملقى لآذانهم . وإنما يسوقه للخاصة من معارفه عفواً وحي ساعته . فباستثناء ما نظمه في كافور . الذي رآه لم يتخلق بأخلاق الملوك فسجل فيه رأيه الصحيح :

أخذت بمدحه ، فرأيت لهواً مقالي للأحيمق : يا حلیم !
ولما ان هجوت رأيت عيّا مقالي لابن آوى ! يا لئیم !
فهل من عاذر في ذا وفي ذا فمدفوع إلى السقم السقيم
كان قد تكلف لرفقائه ان يجيب ضبة بمثل ألفاظه على كراهة ،
وقالها وهو على ظهر فرسه . قال ابن جني :

« ورأيت وقد قرئت عليه هذه القصيدة وهو يتكره انشادها » .

وهو أيضاً لو وصل إلى انطاكية دون التخلّف المزري به شاتياً في

١ في رواية الربيعي عن بعض أصحاب ابن العميد قال : دخلت عليه يوماً قبل دخول المتنبي فوجدته واجماً ، وكانت قد ماتت أخته عن قريب ، فظننته واجماً لاجلها ، فقلت : لا يحزن انه الوزير ، فما الخبر ؟ قال : انه لينظني امر هذا المتنبي ، واجتماعي في ان اخمد ذكره ، وقد ورد علي فيف وستون كتاباً في التعزية ، ما منها إلا وقد صدر بقوله :

طوى الجزيرة .. حتى جاءني خبر فرغت فيه بأمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يسدع لي صدقه املاً شرقت بالدمع ، حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل إلى اخمد ذكره ؟ فقلت : القدر لا يغالب ، والرجل ذو حظ في اشاعة الذكر واشتهار الاسم ، فالأولى ان لا تشغل فكرك بهذا الامر .

قال ابن جني : وحدثني المتنبي قال حاشي فلان اخاشمي من اصل حران بمصر قال :

احذلك بطريفة .. كتبت إلى امرأتي وهي بحران كتاباً تمثلت فيه ببيتك :

بما التلل لا أهل ولا وطن ولا نسيم ولا كأس ولا سكن

فأجابني عن الكتاب وقالت ما انت والله كما ذكرته في هذا البيت ، بل انت كما قال الشاعر في هذه القصيدة :
سهرت بعد رحيلي وحشة لكم ثم استمر مريري . وارعوى الوسن

الطريق لما نظم قصيدته في ابن كيغلغ ، فقد املاها على من يثق به ،
فلما ذاب الثلج وخفّ عن لبنان خرج كأنه يسير فرسه وسار إلى
دمشق ، فأتبعه ابن كيغلغ خيلاً ورجلاً ، فأعجزهم ولم يلحقوه ،
وظهرت القصيدة .

قال المتنبي : ولو فارقت قبل قولها لم أقلها (أنفة من اللفظ بما
فيها).

ولم يجاوز المتنبي ، في كلّ ما ألصق بهؤلاء . من جارح القول ،
الصدق الذي عرفه عنهم — غير مدار ولا ممار — ولكنه لم يشفق على
نفسه المؤمنة ولا رحم شاعريته في جيشان غضبه . فلم يرحمه الناس
وكفروا بكلّ نزاهته .

ودفع بحياته النقية — أخيراً — ثمناً غالياً لصراحته الجارحة .

الباب الثامن

ورقة الملاحظة

من الصق الصفات التي تلازم الصدق في البيان دقة الملاحظة . لانك ان لم تكن دقيق الملاحظة تشعبت بك السبل عن الاحاطة بالموصوف — دون تحديد بين لصفاته — وخرج بك غائم الوصف عن التعريف الشمس ... او ما يسمونه في لغة التشريع بالتعريف ، الجامع المانع " . وهذه الصفة هي — لو تأملنا — من أقوى الصفات عند المتنبي وأظهرها في شعره للعيان .

ففي أبياته التي وصف بها الجيش ذا اللجب مثلاً :

وذي لجب .. لا ذو الجناح أمامه	بناج . ولا الوحش المشار بسلم
تمرّ عليه الشمس . وهي ضعيفة	تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوءها لاقى من الطير فرجة	تدور فوق البيض مثل الدرهم
ويخفى عليك البرق والرعد فوقه	من الملع في حافته وانهم

قال ابن جني : سألت أبا الطيب بآمد . وهو يمي عينه هــ

القصيد . فقلت : ان هذا المعنى حسن فمن أين أخذته ؟ فقال :
رأيت بالرملة باريّة على باب بعض الحوانيت ، وقد طلعت الشمس
عليها ، وقد دخل من نور الشمس على البطيخ من البارية . فهو عليها
كالدراهم .

وإذا كان هو قد نقل الصورة في هذه الابيات من واقع رؤيته إلى
الخيال ، فانه — أثناء اجتيازه شعب بوّان ، في طريقه إلى شيراز — بعد
عشرين عاماً — رأى الشيء نفسه تحت ظلال الاشجار من خلال الاغصان ،
فقال يصف :

مغاني الشعب طيباً في المغاني	بمترلة الربيع من الزمان
ولكنّ الفتى العربي فيها	غريب الوجه ، واليد ، واللسان
ملاعب جنّة ، لو سار فيها	سليمان ، لسار بترجمان
طبّت فرساننا والخيّل ، حتّى	خشيت — وان كرم — من الحران

وناهيك بهذه الابيات دقّة ملاحظة .

غدونا ، تنفض الاغصان فيه	على أعرافها مثل الجمّان
فسرت ، وقد حجب الحرّ غني	وجئن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي	دنانيراً .. تفرّ من البنان

فالروح التي أملت الصورة واحدة ، وقد روي ان عضد الدولة
حينما سمع هذا البيت قال لأقرنّها في يدك .

لها ثمر يشير اليك منه	بأشربة ، وقفن بلا أوان
وأمواه .. تصلّ بها حصاها	صليل الحلي في أيدي الغواني

وهذه الصفة ربما شاركه فيها شاعر آخر في الادب العربي هو
ابن الرومي ، ولكن ابن الرومي خير ما يقال فيه انه ينطق أفكاره

نظماً (١) ، مما كان يجرّه إلى الاسفاف أحياناً . فبينما نراه إذا تناول
معنى استرسل فيه حتى يستوعب جزئياته ويتغلغل إلى دقائقه ويأتي في
غضون ذلك بما يبهّر من وجوه الشبه والمقارنة ، كوصفه بكاء الطفل
ساعة يولد :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والآ فما يبكيه منها . وانها لأفسح ممّا كان فيه وأرغد؟
إذا أبصر الدنيا استهلّ كأنه بما سوف يلقي من أذاها يهدّد
فهو في هذه الدالية أيضاً يصف الفجعة في الشباب :

سابت سواد العارضين .. وقبله بياضهما المحمود ، إذ انا امرد
وبدلت من ذاك البياض وحسنه بياضاً ذميماً ، لا يزال يسود
لشتان ما بين البياضين ، معجب أنيق ، ومشنوء إلى العين أنكد
وكنت جلاء للعيون من القذى فقد جعلت تقذى بشيبي وترمد

ثم ينتقل إلى معنى جديد فيقول في الاعين النجل :

هي الاعين النجل التي كنت تشكي مواقعها في القلب ، والرأس اسود
فمالك تأسى الآن . لما رأيتها وقد جعلت مرمى سواك تعمّد؟
تشكى إذا ما أقصدتك سهامها وتأسى . إذا نكبت عنك ، وتكمد؟
كذلك تلك النبل .. من وقعت به ومن صرفت عنه من القوم ، مقصد
إذا عدلت عنا ، وجدنا عدولها كموقعها في القلب ، بل هو اجهد

ولذلك فانه كان إذا مدح الرؤساء والأدباء . فسر غريب كلماته في القرطاس الذي يثبت فيه قصائده ،
ثم لا يفوته ان يردفها بقوله معتزلاً :

لم افسر غريبها لك ، لكن لامرى يعجل الغريب سواكا
لغيرك ، لا لك ، التفسير .. أنسى ينسر لابن بجدتها الغريب ؟
وهذه خطرات لا تستحق النظم ، لولا انها خلّة في ابن الرومي جرى عليها في كل ما نظم من شعر .

فلا اظنّ أي شاعر آخر ، او تناول هذه المعاني ، يفصح عنها هذا الافصاح .

... فأنّا نرى المتنبي رغم دقة ملاحظته يكتفي في مثل هذا الوارد باللمح ، فيلمّ بالمعنى الماماً على شمول من بعيد . ويشير اليه اشارة على احاطة وهو طائف ، ثم ينتقل إلى معنى آخر وهكذا دواليك . وقلّ ان تطول وقفته عند صورة يحلوها حتى يباغتنا بغيرها من غير هوادة . كقوله في عكس معنى ابن الرومي هذا (١) .

١ تأمل دقة الملاحظة عند هذا الشاعر الشعبي في قوله :

يدحو الرقاقة . مثل الملح بالبصر
وبين روئيتها قوراء كالقمر
في لجة الماء . يرمى فيه بالحجر
من الجودكنا ، والحواشي على الأرض
على اصفر ، في أحمر . اثر مبيض
مصبغة . والبعض أقصر من بعض

رفض اللهو معا ، من رفضه
غصة في حلقها معترضة
كر عرق ، مثل بيت الأرضه
في رقة القشر . والتجويف . كالقصب
كالكيمياء - التي قالوا ، ولم تصب
فيستحيل سبايك من الذهب
وأطال فيه ، فقد أراد هجاءه
عند الورود ، لما أطال رشاءه
إلا لأوفي من مدحت ثناءه

مانس لا أنس خبازاً مررت به
ما بين روئيتها في كفه كرة
الا بمقدار ما تنداح دائرة
أو قوله : وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً
يطرزاها قوس السحاب بأخضر
كأذيال خود أقبلت في غلائل

أو قوله : كينة ملعونة ... من أجلها
تضغط الصوت الذي تشدو به
فاذا غنت .. بدا في جيدها

أو قوله : رأيت سحراً يقي زلاية
كأنما زيت المقلي حين بدا
يلقي العجين لجيناً من أنامله

أو قوله : كل امرئ مدح امرأ لنواله
لو لم يقدر فيه بعد المستقى
غيري .. فاني لا أطيل مدانحي

قال له بعض معاصريه يلومه : لم لا تشبه كتشبهات ابن المعتز ؟ فقال له : أنشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله . فأنشده قوله في الهلال :

أنظر اليه كزورق من فضة قد أثقلت حمولة من عنبر
فقال له : زدني . فأنشده قوله في الآذريون ، وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود :

منى كنّ لي ان البياض خضاب فيخفى بتبييض القرون شباب
ليالي عند البيض فوداي فتنه وفخر ، وذاك الفخر عندي عاب
فكيف اذمّ اليوم ما كنت اشتهي وأدعو بما أشكوه حين اجاب ؟
جلا اللون عن لون هدى كل مسلك كما انجاب عن ضوء النهار ضباب

ثم ينتقل إلى معنى جديد فيقول في فتوة نفسه :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشييه ولو انّ ما في الوجه منه حراب
لها ظفر . ان كلّ ظفر . أعدّه وناب .. إذا لم يبق في الفم ناب
يغيّر مني الدهر ما شاء ، غيرها وأبلغ أقصى العمر .. وهي كعاب

فترى رغم دقة الملاحظة عند الشاعرين كيف انّ روح المتنبي روح
ملك . بينما روح ابن الرومي لا تعدو روح السوقة .. وانما هي تعبّر عن
خوالجهم وأحاسيسهم بلغة شاعرية فصيحة لا غير .

~ ~ ~

وتبدو لنا دقة ملاحظة المتنبي على اجلاها في وصفه للأسد ومصرعه
على يد بدر بن عمّار .

أمعنّ الأيـث المـزبر بسـوطه لمن ادّخرت الصارم المـصقولا ؟

تقول الرواية : كان هاجه عن بقرة افترسها بعد ان شبع وثقل ، فوثب
على كفل فرسه . فأعجله عن استلال سيفه . فضربه بسوطه ودار الجيـش
به فقتل .

كأن آذريونها غب سماء هاميه
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

فصاح راغوثاد ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذاك انما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة . وأنا
أي شيء ، أصف ؟ ولكن أنظر إذا وصفت اين يقع قولي من الناس . فهل لأحد قط مثل قولي في قوس
الغمام (وقد نشرت ايدي الجنوب ... الابيات) وقولي في صانع الرقاق (ما انس لا أنس خبازاً ..
الابيات) ؟

وقعت على « الأردن » منه بليّة
ورد .. إذا ورد « البحيرة » شارباً
نضدت به هام الرفاق تلولا
ورد « الفرات » زثيره و « النيل »

في المواقع التي تحتلها اسرائيل الآن .

متخضبّ بدم القوارس ، لابس
ما قبلت عيناه الا ظنّنا
في غيله ، من لبديته ، غيلا
تحت الدجى نار الفريق حلولا

هل رأيت عيني القط ، دعنا من عيني الاسد ، في الليل ؟

في وحدة الرهبان ، إلا انه
يطأ الثرى مترقفاً من تيهه
لا يعرف التحريم والتحليلا
فكأنه آس .. يجسّ عليلا

والشيء نفسه يمكن ان يقال عن مشية القط الناعمة .

ويردّ عفرتيه إلى يأفوخه
وتظنّه مما يزمرجر نفسه
حتى تصير لرأسه اكليلا
عنها ، لشدة غيظه ، مشغولا

ثم ينتقل إلى وصف اثر ربح الاسد في نفوس الحيوان :

قصرّت مخافته الخطى ، فكأّتما
ألقي فريسته وبربر دونها
ركب الكميّ جواده مشكولا
وقربت قرباً .. خاله تطفيلاً

ويقارن بين الاسد والمقدم عليه :

فتشابه الخلقان ، في اقدمه
أسد يرى عضويه فيك كليهما
وتخالفا ، في بذلك المأكولا
متناً أزلّ ، وساعداً مفتولا

ويعصف القرس التي كان راكبها :

في سرج ظامئة الفصوص ، طمرة
يأبى تفردّها لها التمثيلا

(ظامئة الفصوص أي دقيقة المفاصل)

نَيْسَالَةَ الطَّلِبَاتِ ، لَوْلَا أَنَهَا تَعْطِي - مَكَانَ لِحَامِهَا - مَا نَيْسَلَا
تَنْدَى سَوَالِفَهَا . إِذَا اسْتَحْضَرْتَهَا وَيُظَنُّ عَقْدَ عَنَانِهَا مُحَلُولَا

ثم يعود إلى وصف ما فعل الأسد :

مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ حَتَّى حَسِبْتَ الْعَرَضَ مِنْهُ الطُّوْلَا
وَيَدُقُّ بِالْصَّدْرِ الْحِجَارَ . كَأَنَّهُ يَبْغِي إِلَى مَا فِي الْحُضِيضِ سَبِيلَا
وَكَأَنَّهُ غَرَّتْهُ عَيْنٌ . فَادْنَى لَا يَبْصُرُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَ جَلِيلَا

سَبَقَ التَّقَاءَ كَهَ بُوْثْبَةٍ هَاجِمٍ لَوْ لَمْ تَصَادِمَهُ لِحَازَكَ مِيَالَا
خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ . وَقَدْ كَافَحْتَهُ فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيَالَا
قَبِضَتْ مَنِيتَهُ يَدَيْهِ وَعَنْقَهُ فَكَأَنَّهَا صَادَفْتَهُ مَغْلُولَا (١)

وفي وصفه اُخْمَى التي أُصِيبَ بِهَا فِي مِصْرَ :

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلَا وَرَائِي تَحَبُّ بِسِي الرِّكَابِ ، وَلَا أُمَامِي
وَمِلَّتِي الْفَرَّاشَ . وَكَانَ جَنْبِي يَمْلُ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامٍ

واليك أبيات البحري في هذا المعنى يصف قتل الفتح بن خاقان اسداً عرض له ، حتى تدرك الفارق بين أسلوب وأسلوب في معنى الملاحظة الدقيقة عند الشاعرين . قال البحري :

غَدَاةَ لَمَيَّتِ اللَّيْثُ ، وَاللَّيْثُ مُخْذَرٌ يَحْصِنُهُ مِنْ نَهْرٍ « نِزْكَ » مَعْقِلٌ
إِذَا شَاءَ . غَادَى عَانَةً ، وَغَدَا عَلَى يَعْرِ إِلَى أَشْبَالِهِ ، كُلِّ شَارِقٍ ،
فَلَمْ أَرْ ضَرْغَامِينَ أَصْدَقَ مِنْكُمْ هَزَبٍ مَشِيٍّ يَبْغِي هَزَبِراً ، وَأَغْلَبَ
أَذَلَ بِشَغْبٍ . ثُمَّ هَسَانَهُ صَوْلَةٌ فَأَحْجَمَ لِمَا لَمْ يَحْسُدْ فَيْكَ مَطْمَعَا
حَمَلَتْ عَلَيْهِ السَّيْفُ ، لَا عِزْمَكَ انْتَنَى وَكَنْتُ مَتَى تَجْمَعُ يَمِينُكَ ، تَهْتِكُ الْـ
فَهُوَ عَلَى أَجَادَتِهِ لَمْ يَتَجَاوِزْ الْوَصْفَ إِلَى التَّصْوِيرِ .

يَحْدُدُ نَابَأً ، بِاللَّقَاءِ ، وَمُخْلِبَا
مَنْعٍ ، تَسَامَى غَابَهُ .. وَتَأَشْبَا
عَمَائِلَ سَرْبٍ ، أَوْ تَنْقُصَ رُبْرِبَا
عَبِيطاً ، مَدْمَى ، أَوْ رَمِيلاً مُخْضَبَا
عِرَاكاً ، إِذَا الْهَيَابَةُ النُّكْسُ كَذِبَا
مَنْ الْقَوْمِ يَبْغِي بِاسِلِ الْوَجْهِ أَغْلِبَا
رَأَى هَذَا أَمْضَى جَنَافاً وَاشْغَبَا
وَأَقْدَمَ لِمَا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرِبَا
وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ ، وَلَا حَذَاهُ نَبَا
ضَرِيَّةً .. أَوْ لَا تَبْقَى لِسَيْفٍ مُضْرِبَا

قليل عائدي ، سقم فؤادي كثير حاسدي ، صعب مرامي
عليل الجسم ، ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام
ثم يدخل في وصف عوارض هذه الحمى ، ولكن بلغته الشعرية :
وزائرتي .. كأنّ بها حياء فليس تزور الا في الظلام
فهي إذن تنتابه ليلاً .

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها . وباتت في عظامي
يشعر أثرها في العظام .

يضيق الجلد عن نفسي ، وعنهما فتوسعه بأنواع السقام
تحمل له وخزات وآلاماً في كل جسمه .

إذا ما فارقني غسلتني كأنّا عاكفان على حرام
لا تفارقه إلا بعد ان يتصبّب عرقاً :

كأنّ الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سجام
وهذا تعبير شعري آخر للمعنى نفسه (١) .

أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام

١ يكثر ذكر العرق في شعر المتنبي كلما اقتضت ملاحظته الدقيقة ذلك . تأمل قوله مثلاً في الخيل المغيرة

يقبلهم وجه كل ساجدة	أربعها قبل طرفها تصل
جرداء ، ملء الحزام ، مجفرة	تكون مثلي عسيها الحصل
ان ادبرت قلت : لا تليل لها	أو اقبلت قلت : ما لها كفل
والطنن ثور ، والأرض واجفة	كأنما في فؤادها وهل
قد صبغت خدها الدماء ، كما	يصبغ خد الخريدة الحجل
والخيل تبكي جلودها عرقاً	بأدمع ما تسحها مقل
وقوله : خرجن من النع في عارض	ومن عرق الركض في وابل

ومن الذي لا يرقب موعد الحميات ؟

ويصدق وعدّها . والصدق شرّ إذا ألقاك في الكرب العظام
فليس في الادب العربي كله دقة ملاحظة لنوبات الحمى كهذه .
وانه ليستطيع أي طبيب اليوم ان يشخص نوع تلك الحمى على ضوء
وصفه لهذه العوارض . وذلك ما حصل بالفعل .

يقول لي الطبيب : أكلت شيئاً وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبعه انني «جواد» أضرت بجسمه طول الحمام
وهذا توقيع المتنبي الملكي على الحادثة كلها .

وفي وصفه الاعراب :

كم زورة لك في الاعراب خافية
أزورهم . وسواد الليل يشفع لي
قد وافقوا الوحش في سكنى مراتعها
وأثني . وبياض الصبح يغري بي
جيرانها . وهم شرّ الجوار لها
وخالفوها بتقويض وتطبيب
فؤاد كلّ محب في بيوتهم
وصحبها . وهم شرّ الاصحاب
ومال كلّ اخيد المال محروب
ويعرض فيها بأحوال الحضريات .

أفدي ظباء فلاة .. ما عرفن بها مضغ الكلام . ولا صبغ الحواجيب

فلما نشفن ، لقين الياط	بمثل صفا البلد الماحل
شفن لحمس إلى ما طلبن	قبل الشفون إلى النازل
فدانت مرافقهن البرى	على ثمة بالدم الغاسل
وما يمين كاذتي المستجير	كما يمين كاذتي البائل

فدقة الملاحظة هي التي تجمع عنده بين الواابل وقطرات العرق والدموع في لوحة واحدة . ويختزئ
باحداها عن الأخرى . حتى في مثل قوله الذي تلاعب فيه بالمعنى التقليدي للجود وطوره تطويراً :

لم تحوك فائلك السحاب ، وانما حمت به ، فصبيها الرخصاء .

وسياتي الحديث عن هذا بمد في الفصل الذي نقنول فيه تطوير المعنى التقليدي .

ولا برزن من الحمام مائلة أوراكن صقيلات العراقيب

كحالها المشهود اليوم في كل مكان .

ومثل هذا قوله من أخرى :

هام الفؤاد بأعرايئة .. سكنت بيتاً من القلب ، لم تمدد له طنباً
مظلومة القد في تشبيهه غصناً مظلومة الريق في تشبيهه ضرباً

وحديثه عن الريق يذكرنا بقوله :

في مقلتي رشاً تديرهما بدويّة ، فنتت بها الحلل
تشكو المطاعم طول هجرتها وصدودها .. ومن الذي تصل ؟
ما أسارت في القعب من لبن تركته وهو المسك والعسل

يصفها بقلّة الاكل ونزاجة الفم .

وقوله في دموع الثاكلات من الحسان :

وأبرزت الحدود مخبّات يضعن النفس أمكنة الغوالي
أنتهنّ المصيبة غافلات فدمع الحزن في دمع الدلال
وهل أدقّ من هذه الملاحظة ؟ وفي هذه القصيدة يصف المطر
قائلاً :

سقى مثواك غاد في الغوادي نظير نوال كفك .. في النوال
وهذا أيضاً من ذلك .

لساحيه على الاجداث حفش كأيدي الخيل ، ابصرت المخالي
وعلى ذكر الخيل ، المتنبّي فيصل في تمييز الخيول ، ولذلك يكثر
وصفها الدقيق في شعره . تأمل قوله :

قاد الجياد إلى الطعان ، ولم يقد إلا إلى العادات والاطوان

ان خلّيت ، ربطت بآداب الوغى فدعاؤها يغني عن الارسان
في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان

وقوله :

وشزّب .. أحمت الشعرى شكائهما ووسّمتها على آنافها الحكم
حتى وردن بـ « سمنين » بحيرتها تنشّ بالماء في اشداقها اللجم
غاية الدقة في الملاحظة . وقوله عند وروده مصر وهو يصف
رحلته الشاقة :

وجرداً .. مددنا بين آذائها القنا فبتن خفا ، يتبعن العواليا
تماشى بأيد ، كلما وافت الصفا نقشن بها صدر البزاة حوافيا
وتنظر من سود صواق في الدجى يرين بعيدات الشخوص كما هيا
وتنصب للجرس الحفيّ سوامعاً تخلن مناجاة الضمير تناديا
تجاذب فرسان الصباح أعنة كأنّ على الاعناق منها افاعيا
بعزم .. يسير الجسم في السرج راكبا به . ويسير القلب في الجسم ماشيا

وقوله ، وهو يفكر في الخروج من مصر :

ويوم ، كليل العاشقين ، كمنته أراقب فيه الشمس ايان تغرب
وعيني إلى أذني أغرّ ، كأنّه من الليل . باق بين عينيه كوكب
له فضلة عن جسمه في اهابه تجيء على صدر رحيب رتذهب
شفقت به الطلما ، ادني عنانه فيطنى . وارخيه مراراً فيلعب
واصرع أيّ الوحش قفّيته به وانزل عنه مثله حين اركب
وقوله يصف انطلاق الجواد :

ومهجة .. مهجتي من همّ صاحبها ادركتها بجواد ظهره حرم

رجلاه في الركض رجل ، واليدان يد
وفعله ما تريد الكفّ والقدم (١)

واسأل من يشهدون سباق الخيل فعندهم الخبر اليقين . وقوله يصف
وطأها :

اول حرف من اسمه كتبت سنايك الخيل في الجلاميد
وقوله عنها في وصف جيش سيف الدولة وقد ركب غلمانه
بالتجافيف والسلاح :

ولما عرضت الجيش ، كان بهاؤه	على الفارس المرخي الذؤابة منهم
حواليه بحر للتجافيف مائج	يسير به طوبد من الخيل أيهم
كأجناسها راياتها وشعارها	وما لبسته ، والسلاح المسمم
وأدبها طول القتال ، فطرفه	يشير اليها من بعيد ، فتفهم
تجاوبه فعلا ، وما تسمع الوحي	ويسمعها لحظاً ، وما يتكلم
على كلّ طاو ، تحت طاو ، كأنه	من الدم يسقى ، أو من اللحم يطعم
لها في الوغى زيّ الفوارس فوقها	فكلّ حصان دارع مثلثم

وقوله يصف الدارعين من الروم :

أتوك يجرون الحديد . كأنهم
إذا برقوا .. لم تعرف البيض منهم
خمس بشرق الارض والغرب زحفه
وفي أذن الجوزاء منه زمازم

١ زعم العميدي ان للأفيشر ما يقارب هذا المعنى في نعت فرسه وهو قوله :

يجري كما أختاره ، فكأنه يجمع ما أبنيه منه عالم

رجلاه رجل ، واليدان يد ، إذا احضرته ، والمتن منه سالم

والحاشم بين النعتين دو قول المنبي « في الركض » تحديداً للحال الموصوفة .

تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحدّاث الا التراجم
كانوا خمسين الف فارس وراجل من جموع الروم والأرمن والروس
والبلغر والصقلب والخزرية .

وقوله يصف نجاة ابن شمشقيق هارباً بفرسه :

تردّ عنه قنا الفرسان سابغة صوب الأستة في أثنائها ديم
تخطّ فيها العوالي ، ليس تنفذها كأن كلّ سنان فوقها قلم
ويلخص رأيه فيها بقوله :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وان كثرت في عين من لا يجرب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها ، فالحسن عنك مغيب (١)

١ والذي يدلّك على انشغال ذهن المتنبي بصفات الخيل ايراده معانيها هذه الموارد الكثيرة في مثل قوله :
كرم تبين في كلامك ماثلاً وبين عتق الخيل في أصواتها
وقوله : لم تزل تسمع المديح ولكن صهيل الجياد غير النهاق
وقوله : فان تكن محكمات الشكل تمنعني ظهور جري ، فلي فيهن تصهال
وقوله : ومن ركب الثور بعد الجواد أنكر اطلاقه وانفب
وقوله الذي مربنا : وما في طبه اني « جواد »
تعود ان يفبر في السرايس
فأمسك .. لا يطال له ، فيرعى
وقوله يصف سيف الدولة :

خدمتهم بخميس أنت غرتك وسهرتته في وجهه غم
وقوله في كافور : فدى لأبي المسك الكرام ، فانها
وقوله في بني كعب : لعل بنهم لبنك جند فأول قرح الخيل المهار
وقوله لأبي العثائر ، وقد سأله : أفي هذه السرعة قلت هذا ؟ فقال مجيباً :

أتنكر ما نطقت به بديهاً وليس بمنكر سبق الجواد ؟
أراكض معوصات الفول قسراً فأقتلها ، وغيري في الطراد
وأخيراً قوله البالغ حده من السخرية :
إذا شاء ان يلهو بلحية أحسق أراه غباري ثم قال له : الحق !

وهناك أيضاً قوله بصدد ناقته التي أقلته إلى ابن العميد :

تركت دخان الرمث في أوطانها طلباً لقوم يوقدون العنبراً
وتكرمت ركباتها عن مبرك تقعان فيه ، وليس مسكاً اذفرا
فأنتك دامية الأطل ، كأتما حذيت قوائمها العقيق الاحمرا
وقوله مستأنساً بنفسه معها :

عيون رواحلي ان حرت عيني وكلّ بغام رازحة بغامي
فقد ارد المياه بغير هاد سوى عدّي لها برق الغمام
روى ابن جنّي عن يعقوب قوله : العرب إذا عدوا للغمامة مائة
برقة لم يشكّوا انها ماطرة ، فيتبعونها واثقين من انها قد سقت ، وربما
ساروا خلفها عشراً أو أقل أو أكثر .

وما احلى قوله في مراعى مغزل صادوه :

اغناه حسن الجيد عن لبس الحلبي وعادة العري عن التفضل
والكلب الذي اطلق لصيده : فحلّ كلابي وثاق الاحبل .
عن أشدق ، مسوَجَر ، مسلسل أقبّ ، ساط ، شرس . شمردل
منها (١) ، إذا يثغ له لا يغزل موجّد الفقرة ، رخو المفصل
وما أشبه وصفه الدقيق هنا بالشعر الجاهلي .

له إذا ادبر لحظ المقبل كأنما ينظر من سجنجل
يعدو إذا احزن علو المسهل إذا تلا جاء المدى وقد تلي
يقعي جلوس البدوي المصطلّي بأربع مجدولة .. لم تجدل
قتل الايادي ، ربذات الارجل آثارها امثالها في الجنّدل
يكاد في الوثب من التفتّل يجمع بين منه والكلكل

١ اي من الكلاب . وهو يتعلّق بقوله " فحلّ كلابي " ..

إلى آخر الأرجوزة :

ولا تقتصر دقة ملاحظة المتنبي على الأشياء المريّة ، فهو يتجاوزها
حتى إلى غير المريّات . كقوله في نظر العدو :

يخفي العداوة ، وهي غير خفيّة نظر العدو بما أسرّ يوح
وقوله في اثر الشمس على البشرة :

ان تريني ادمت بعد بياض فحميد من القنّاة الذبول
صحبتني على القلاة فتاة عادة اللون عندها التبديل
سرتك الحجال عنها ، ولكن بك منها من اللمى تقبيل
وقوله في تغيّر الحال مع الزمان :

تغيّر حالي ، والليالي بحالها وشبت ، وما شاب الزمان الغرائق
وقد كرّره بعد :

تسوّد الشمس منا بيض اوجهنّا ولا تسوّد بيض العذر واللمم
وكان حالهما في الحكم واحدة لو احتكنا من الدنيا إلى حكم
وقوله أمام جلال الموت :

كأن الموت لم يفجع بنفس ولم يخطر لمخلوق ببال
أو :

من لا تشابهه الاحياء في شيم امسى تشابهه الاموات في الرمم
وقوله في وصف الموت نفسه :

وما الموت إلا سارق ، دقّ شخصه يصول بلا كف . ويسعى بلا رجل
وقوله في وصف مفعول الكرم في النفوس :

كرم .. خشن الجوانب منهم فهو كالماء في الشفار الرقاق
ولعل هذا يذكرك بقوله في وصف السيف :

كفرندي .. فرند سيفي «الجرار» لذّة العين ، عدّة للبراز
تحسب الماء خطّ في لبّ النّار ر أدقّ الخطوط في الاحراز
كلّما رمت لونه ، منع النّار ظر موج ، كأنه منك هاز
ودقيق - قدى الهباء - أنيق متوال في مستو هزهاز
ورد الماء ، فالجوانب قدرا شربت ، والتي تليها جواز
فهو أدقّ وصف للسيف وأصدقّه في الادب العربي كله .

حتى قوله في الحمرة مصباحاً على البديهة ، بعد ان رعى بها ليلته
مرة :

وجدت المدامة غلاّبة	تهيج للقلب اشواقه
تسيء من المرء تأديبه	ولكن تحسّن أخلاقه
وأنفس مال الفتى لبّه	وذو اللب يكره انفاقه
وقد متّ أمس بها موته	وما يشتهي الموت من ذاقه

فما عرف الشاربون عنها ولا المانعون أوغل مما قال .

وقوله أخيراً لكلّ من يتعجّل بالقبول أو يشفّ في الحكم :

أعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورمّ

فذاك هو ابو الطيب في وصفه الواقعي وملاحظته الدقيقة ، وقد
تأتّى له كل ذلك لأنه كان يحرص على الصدق في البيان ويدقق في استعمال
الالفاظ دقته في الملاحظة . ولم نورد هذه الشواهد استقصاء وإنما تمثيلاً
لهذه الناحية فيه . وقس على الحاضر ما غاب من الأمثلة التي يتلاطم بها
الديوان .

الباب التاسع

الاستقصاء الفني في التمثيل

مرّ بنا في صدد التفريق بين « معنى الشاعر » و « مراد الشاعر » (أي معنى المعنى عند الشاعر) أن البيت :

أبا المسك !.. هل في الكاس فضل أناله
فاني اغني منذ حين وتشرب

يظهر الفرق بينهما واضحاً ، فقد قلت تعليقاً عليه :

فلو كان هناك حقيقة كاس وغناء وشرب . لكان قول المتنبي هذا تصويراً لواقع الحال ، ولكنه لم يكن معنى بهذه الصورة لذاتها ، وإنما اتخذها مجازاً ليستقصي التمثيل ... تمثيل حاله مع كافور ... وذلك أول وفوده عليه .

وهذه كانت بعض طريقة المتنبي جرى عليها في كل شعره .

فعلى هذا الفرار قوله لسيف الدولة بعد عودته من مصر :
وان فارقتي أمطاره فأكثر غدرانها ما نضب

ويعقد في هذه القصيدة مقارنة بينه وبين كافور . فيقول :
ومن ركب الثور بعد الجواد أنكر أظلافه والغيب
وقد مرّ بك أي مكان كانت تشغله الخيل في ذهن المتنبي ، فلا
كافور كان ثوراً ولا سيف الدولة جواداً بالمعنى القاموسي . وإنما هو
الاستقصاء الفني في التمثيل .

ومثله قوله في اصالة جوهره :
وما أنا منهم ، بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
مشبهاً قوله يرثي أخت سيف الدولة في اصالة جوهرها :
فان تكن « تغلب » الغلباء عنصرها فان في الحمر معنى ليس في العنب
وكذلك قوله قبل موتها في مجلس سيف الدولة وقد أخرج غاية
الاحراج ، فاستهلها بعبارة « واحرّ قلباه » ، ثم مضى يستقصي في
التمثيل :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الانوار والظلم
و إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظن ان الليث يبتسم
و ما أبعد العيب والنقصان من شر في انا الثريا .. وذان الشيب والهزم
و ليت الغمام الذي عندي صواقفه يزلهنّ إلى من عنده الديم
و وشرّ ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

فكل بيت من هذه الأبيات هو الغاية في ذاته والكلمة الاخيرة في
موضوعه .

وقد كان شاعر آخر - قبل المتنبي - هو ابو تمام يسلك أيضاً هذا النهج في شعره ، ويعنى بالاستقصاء الفني في التمثيل . مما دعا المعري - بعد - ان يعتبره حكيماً مثل المتنبي ، في رده التاريخي الشهير : أما المتنبي وابو تمام فحكيمان . والشاعر البحري . ولم يخطئ ابو العلاء في التقدير .

تأمل معي أبيات أبي تمام في الحسد مثلاً :

لولا النكّر في العواقب . لم تزل للحاسد النعمى على المحسود
وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت ، اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
فلن تجد تمثيلاً فنياً يستقصي اثر الحسد في شكل مادّي كهذه الصورة
لعود الذي تمسه النار باشتعالها ، فيفوح بالعرف الزكي .

بيد ان وراء الاستقصاء الفني في التمثيل دائماً هدفاً هو الجو النفسي الذي يخلقه الشاعر لمعاناته ، سعياً وراء مراده ، ويظهر لنا هذا الجو النفسي إذا قارنا أبيات أبي تمام هذه بقول القائل :

اصبر على حسد الحسود فانّ صبرك قتاله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

فبينما ترى ابا تمام ينظر إلى الموضوع نظرة واعية (١) ، فيلمّ بأطرافه

١ ان الشاعر الذي ينشد بين يدي أمير هو احمد بن المعتصم قوله :

اقدام عمرو ، في ساحة حاتم في حلم أحنف ، في ذكاء اياس
فيقول له فيلسوف العرب يعقوب الكندي - وكان حاضراً المجلس - أشبه الأمير بأجلاف العرب
فيعليل اليه الشاعر النظر ، ثم يعطف قائلاً :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً ، شروداً في الندى والباس

فانه قد ضرب الأقل لنوره مثلاً . . من المشكاة والنبراس

ثم يعيد أهل المجلس النظر في القصيدة بعد ان يتم الشاعر انشادها فيبهت الكندي إذ لا يجدون فيها البيتين ، ان هذا الشاعر لجدير بأن يسلم له بعصفاء الذهن وجودة التخيل والابتكار .
فكيف لا يذعن لزعامته الشعراء ؟

كلها من الجانبين الحاسد والمحسود ، ترى هذا الشاعر لا يستهدف من الموضوع الا الغرض القريب ، فيقصر حكمه على طرف واحد هو جانب المحسود لا غير .. وتبقى بعد ذلك فجوات يعجز عن املائها البيتان . فالنار على أقل تقدير لا تأكل نفسها مثلاً إلا بعد أن تكون قد أكلت كل شيء ، فأين في الاستقصاء هذا من ذاك ؟ وهذا الاستقصاء يدلّ به المتنبي على الشعراء في كلّ علّه ونهله . ولا ينسى معها غربة نفسه .

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ان النفيس غريب حيثما كانا فهو يسير في طريقته الفنية هذه مستوثقاً بنفسه مطمئناً أبداً كما قال : وعن ذملان العيس، ان سامحت به والا فقي اكوارهن ... عقاب وهذا الذي يجعل الفارق محسوساً ملموساً بينه وبين ابي تمام . فبينما الاستقصاء الفني لا يخرج عند ابي تمام عن كونه عملاً عقلياً بحثاً تراه عند المتنبي يأخذ من نفسه وعقله معاً لأنه شيء يمس حياته في الصميم ، لا مجرد انه يقع منها على الهامش . أو يتعلق من مذهبه الشعري بالحاشية دون المتن . ومن هنا يختلف ابو تمام في الصنعة عن المتنبي .

فان ولع ابي تمام بالصنعة كثيراً ما كان يقف حجر عثرة في سبيل تجريد الحقيقة (١) ، ولقد اولع هذا الشاعر بالالفاظ وشئى صورها

٢ جاء في مناظرة الحاتمي ما رواه صاحبها عن المتنبي قوله في ابي تمام : أليس هو القائل :

خشت عليه ، اخت بني الحشيين ! وانجح فيك قول العاذلين
وهو الذي يقول : تسمون الفأ ، كآساد الشرى فضجت
جلودهم ، قبل نضج التين والعنب
وهو الذي يقول : اقول لقرحان من البين ، لم يصب
رئيس الهوى ، بين الحشا والترائب
ما « قرحان البين » ؟ أحرص الله لسانه !

ونحن وان كنا لا نؤمن بوقوع هذه المناظرة على الوجه الذي نقل الحاتمي ، فانا لا نستبعد ان يكون

وما لأحرفها من اشعة وظلال ، حتى جعل منها دولة لا تقلّ عن دولة
الخيال . وذهب يتحكّم فيها كيفما شاء مجانسةً وبديعاً ، ومطابقةً
وترصيعاً ، حتى كاد لا ينظر إلى المعاني إلا من خلال زجاجها
الملوّن (١) ، وكثيراً ما تراءت غامضة أو مشوّهة . ولكنّه في جيده

رأى المتنبي في بعض هذه الابيات ما أورده الخاتمي على لسانه . اذ ان « قرعان » مثلاً معناه في اللغة
من الابل الذي لم يصب بالحرب ، ومن الناس من لم يشهد الحرب ، وعلى أقرب الاحتمالات
« الذي لم يخرج عليه الجدي » . فايراده اذن بمعنى « الذي لم يفجع بأحبابه » ، أقبح ما يكون
استعارة ، وابعدها عن التبيان . وانما هو معاصرة لروح اللغة التعبيرية بدون حاجة فنية ماسة ،
يمكن ان تحمل معها على الضرورة أو الإضطرار .

١ فهو يقول مثلاً بعد بيته المذكور :

أعني أفرق شمل دمعي ، فأنسي
أرى الشمل منهم ليس بالمتقارب
أفرق شمل دمعي .

فما كان في ذا اليوم عذتك كله
عذتك عدوي . جهلك صاحبي

وما بك اركابي من الرشد مركبا
اركابى مركباً من الرشد ، رشد الركائب

فكلني إلى شوقي . وسر يسر الهوى
سر ، سر

أميدان هوي ! من أتاح لك الردى
أميدان هوي . ميدان انصبا والجنايب ؟

أصابتك ابكار الخطوب ، فشقت
أصابك الخطوب . ابكار الطباء

وركب .. يساقون الركاب زجاجة
يسكرون ويسكرون المطي من التعب فكأنهم سقوها زجاجة ، ولكنها ليست على الحقيقة خمرا .

فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى
أشباحهم صارت لها كالغوارب . لأن السرى المتواصل لم يبق لها غوارب .

يقود نواصيها « جذيل » مشارق
إذا آبه هم ، « عذيق » مغارب

حكيم لا يجارى .. وجيده غير قليل ، فطالما أبعد المرمى فأوشك أن
يطال النجوم .

فالفرق بينهما ما قاله ابن رشيق :

« ان ابا تمام كالفاضي العدل يضع اللفظة موضعها ،
ويعطي المعنى حقّه ، يعد طول النظر (تأمل قوله طول
النظر) ، والبحث (كذا) عن السيّنة ، أو كالفقيه الورع
يتحرّى في كلامه ويتحرّج خوفاً على دينه . و ابا الطيّب
كالملك الجبار (سبحانه ربي) يأخذ ما حوله قهراً وعنوة ،
أو كالشجاع الجريّ يهجم على ما يريده ولا يبالي ما لقي
ولا حيث وقع . »

عمل عقليّ بحث من جهة ، وعمل صادر من صميم الحياة من جهة
أخرى ، هو ما ذهبنا اليه في التفريق بين الحكيمين (١) .

فيه إشارة إلى قول الحباب بن المنذر : انا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب .

يرى بالكعاب الرود طلعة ثائر وبالعرمس الوجناء غرة آيب
لبنفسه المقام يرى في الكعاب طلعة ثائر دنا لينال منه ، ولجه السفر يرى في الناقة السريعة غرة
كفرة من يفرح الناس بآيابه بعد سفر طويل .

كان به ضغناً على كل جانب من الأرض ، أو شوقاً إلى كل جانب

ضغنا على كل مكان حتى يفارقه ، وشوقاً إلى كل مكان حتى يبلغه .

وهكذا إلى آخر القصيدة ، استقصاء لا حده ... ولكن في الاستعارات البعيدة ، وانتشيبات
الغريبة ، والتجنيسات اللفظية والمطابقات المعنوية ، ولا تخلو ما بين ذلك أحياناً من الاستقصاء
الفني في التمثيل ، ولكن يظهر على كل ذلك - كما قلنا - اثر الإعجاز ، بعد جهد العقل الجهد .

هذا الحكم صحيح في جملة ، فمن الذي ينشد لأبي تمام قوله :

بالبشر ، واستحسنت وجه ثنائي

لما رأيته قد غفوت مودتي

ظلت تحوم عليه طير رجائي

أنبتت في قلبي لأولئك مشرعاً

قبور لكم مستشرفات المعالم

و قوله: بني مالك ! قد نهبت خامل الثرى

ولنعد إلى ما كنّا فيه ، فمن الاستقصاء الفني في التمثيل عند المتنبي
في غير باب المديح قوله :

تريدن لقيان المعالي رخيصة ولا بدّ دون الشهد من ابر النحل
وقوله :

كلما أنبت الزمان قناة ركّب المرء في القناة سنانا
حتى انتهى امرهما أخيراً إلى القنبلة الذرية .
وقوله :

ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
وقوله :

لا يعجبنّ مضيماً حسن بزّته وهل يروق دفيناً جودة الكفن ؟
وقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما للجرح بميت ايلام
وقوله :

ليس الجمال لوجه صحّ مارنه انف الكريم بقطع الغزّ يجتدع
وقوله :

إن السلاح جميع الناس تحمله وليس كلّ ذوات المخلب السبع

رواكد .. قيد الشبر .. من متناول
وقوله : وكان الأسى قد آل فيه إلى الحشا
كفاء الغدير امتد بعد وقوفه
وقوله : ولو كان يفي الشعر ، أفنته ماقرت
ولكنه صوب العقول .. إذا انجلت
فلا يسلم بأنه حكيم .
وفيها على لا ترتقى بالسلام
فلما استخفاه جرى في المفاصل
بما هاج من فيض التلاع القوابل
حياضك منه في العصور الذواهب
سحائب منه ، اعقت بسحائب

وقوله :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأيسر ما يمرّ به الوحول

وقوله :

وغيظ على الأيام ، كالنار في الحشا ولكنه غيظ الأسير على القدا

وقوله :

هو الجدة .. حتى تفضل العين اختها وحتى يكون اليوم لليوم سيّدا

وقوله :

ولو لم يعمل الا ذو محل تعالى الجيش ، وانخط القتام
ولو حيز الحفاظ بغير عقل تجنب عنق صيقله الحسام
وقد أصبحنا نفهم معنى هذا البيت على حقيقته في عصرنا الآلي .

وقوله :

اعاذك الله من سهامهم ومخطيء من رميه القمر

وقوله :

يفادر كل ملتفت اليه ولبّته لثعلبه وجار
وقد حمل الكلمة المعنيين .

وقوله :

وما ثنأك كلام الناس عن كرم ومن يسدّ طريق العارض الهطل.

وقوله :

لعلّ عتبك محمود عواقبه فربّما صحّت الاجسام بالعلل

وقوله :

أتما انفس الانيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا

وقوله :

يتلون الحريت من خوف التوى قيها ، كما تتلون الحرباء

وقوله :

فأجرك الاله على عليل يعيش إلى المسيح به طيبا

وقوله :

أتى الزمان بتوه في شببته قسرهم ، واتيناه على الهرم

أما في مذهب المديح فله مثل قوله :

شجاع .. كأن الحرب عاشقة له إذا زارها قدته يالحيل والرجل

وقوله :

كريم .. نفضت الناس لما بلغته كأنهم ما جف من زاد قادم

وقوله :

مال .. كأن غراب الين يرقبه فكلما قيل : هذا مجتد ، نعي

وقوله :

ومعال .. إذا ادعاه سواهم لزمته جناية السراق

وقوله :

ليزد بنو الحسن الشراف تواضعا هيهات تكلم في الظلام مشاعل

وقوله :

أعيا زوالك عن محل قلته لا تخرج الأقمار عن هالاتها

وقوله :

وزارك بي دون الملوك تحرج إذا عن بحر ، لم يجز لي التيمم

وقوله :

أزالت بك الأيام عتبي ، كأنما
بنوها لها ذنب ، وأنت لها عذر
وقوله في الذمّ :

تستغرق الكف فوديه ومنكبه
فتكتسي منه ريح الجورب العرق
ثم قوله في سيف الدولة خاصة :

إذا خلعت على عرض له حللاً
وجدتها منه في أبهى من الحلل
بذي الغباوة من انشادها ضرر
كما تضرّ رياح الورد بالجعل
وقوله :

رضوا بك ، كالرضا بالثيب ، قسراً
وقد وخط النواصي والفروعا
وقوله :

ولست من مواطنه ولكن
يمرّ بها كما مرّ الغمام
وقوله :

لا يعتقي بلد مسراه عن بلد
تمشي الكرام على آثار غيرهم
من كان فوق محلّ الشمس موضعه
كالموت .. ليس له ريّ ولا شبع
وأنت تخلق ما تأتي وتبتدع
فليس يرفعه شيء ولا يضع
وقوله :

إلى كم تردّ الرسل عما أتوا به
كأنّهم - فيما وهبت - ملام ؟
يقول فيها :

وربّ جواب ، عن كتاب . بعثته
تضيّق به البيداء من قبل نشره
حروف هجاء الناس فيه ثلاثمائة
وعنوانه للناظرين قسام
وما فضّ بالبيداء عنه ختام
جواد . ورمح ذابل . وحسام

وقوله :

دروع لملك الروم هذي الرسائل يردّ بها عن نفسه . ويشاغل
هي الزرد الضافي عليه : ولفظها عليك ثناء سابغ .. وفضائل
يقول فيها :

أرى كل ذي ملك .. اليك مصيره كأنك بحر ، والملك جداول
وقوله :

إذا رضيت بأن يعطوا الجزى ، بذلوا
فيها رضاك . ومن للور بالحول ؟

وقوله :

بناها فأعلى . والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون . فأصبحت ومن جث القتلى عليها تمائم
يقول فيها :

وقفت .. وما في الموت شكّ لواقف كأنك في جفن الردى . وهو نائم
تمرّ بك الابطال .. كلمى هزيمة ووجهك وضّاح ، وثغرك باسم
ومنها بيته الشهير :

نثرهم فوق « الاحيدب » كله كما نثرت فوق العروس الدراهم
وكان المتنبي جدّ معجب بهذا البيت (١) .

١ قال ابن جني : حدثني أبو علي الحسين بن أحمد القسوي ، قال : خرجت بحلب أريد سيف الدولة ، فلما برزت من السور إذا أنا بفارس متلثم ، قد أهوى نحوي برمح طويل ، وسدده إلى صدري ، فكدت أطرح نفسي عن الدابة . فحسر لثامه فاذا المتنبي ، وأنشد :

نثرهم فوق الاحيدب كله كما نثرت فوق العروس الدراهم
ثم قال : كيف هذا القول . أحسن هو ؟ فقلت : ويحك ، قد قتلني يا رجل .
قال ابن جني : فحكيت هذه الحكاية لأبي الطيب بمدينة السلام ، فعرّفها وضحك منها

وقوله :

فلم تمّ « سروج » فتح ناظرها الاوجيشك في جفنيه مزدحم

وقوله :

تغيب الشواهد في جيشه وتبدو صفاراً ، إذا لم تغب
وانّ ما قاله في وصف الحروب وحدها ليسدّ حاجتنا من هذا الباب ..
ويزيد .

وهذا الذي جعل عضد الدولة (وكان أديباً شاعراً جيد القريحة)
يقول : ان المتنبي كان جيد شعره بالغرب (يعني في الشام والجزيرة ،
غربيّ فارس عند عدوه سيف الدولة) ، فيروى انه لما بلغ المتنبي قوله
هذا قال : الشعر على قدر البقاع .

وقوله :

ومن الخير بطء سبيك عني اسرع السحب في المسير الجهم

وقوله :

بنو كعب .. وما أثرت فيهم يد لم يدمها إلا السوار
بها من قطعه الم ونقص وفيها من جلالته افتخار

وقوله :

فدتك نفوس الحاسدين فانها معذبة في حضرة ومغيب
وفي تعب من يحسد الشمس ضوءها ويجهد ان يأتي لها بضريب

وقوله — من بعد — إلى كافور :

فدى لأبي المسك الكرام ، فانها سوابق خيل يهتدين بأدهم

وقوله :

فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلصت بياضاً خلفها والمآقيا
يقول فيها :

قواصد كافور ، توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
وقد مرّ بنا . فهذه الابيات فيه كلّها الغاية في هذا الباب .
وقوله . وقد هلك شبيب الخارجي النائر عليه من غير قتال :

لو الفلك الدّوار أبغضت سعيه لعوقه شيء عن المدوران
فهو بهذا إنما يستقصي التمثيل لـ « جدّ » كافور . الطّعان من غير
سنان . ولذلك استعمل كلمة « شيء » . ولن يتخذ كلمة أخرى تقع
موقعها هنا لتمثيل هذا الحظ المحدود . وقد كان ابو العلاء هو الوحيد
بين الشارحين يدرك هذا بجلاء (١) . حتى إذا انعكست آيته فيه قال :
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم إلا وفي يده من ننتها عود
فلا تستطيع ان تبلغ في وصف الحطة أكثر من هذا . ولاحظ هنا
الفرق في حكمه بين المظهر الخارجي والمخبر الداخلي .

استشهد صاحب الينيمة في باب قبح المفاضع به . وقال : هذا الببت الذي هو عودتها .
قال ابن فورجة : قرأت على ابي العلاء المعري - ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا 'دب' -
فقلت له يوماً في كلمة هي « شيء » ، في قوله :

لو الفلك الدّوار أبغضت سعيه لعوقه شيء عن الدوران
قلت له : ما ضر ابا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى ... وأوردتها . فأبان لي عوار
الكلمة التي ظننتها . ثم قال لي : لا تظنن انك تقدر على ابدال كلمة واحدة من شعره بما هو خسير
منها ، فجرب ان كنت مرتاباً . وها أنا أجرب ذلك منذ ذلك العهد ، فلم أعثر بكلمة لو أبدالها
بأخرى كان أليق مكانها . وليجرب من لم يصدق يجد الأمر على ما أقول .

وقوله - بعد ذلك - لابن العميد :

ودعاك حسدك الرئيس ، وأمسكوا
خلفت صفاتك ، في العيون ، كلامه
وقوله لعضد الدولة :

لو كفر العالمون نعمته
كالشمس .. لا تبتغي ، بما صنعت
يقول فيها :

الناس كالعابدين آلهة وعبدته كالموحد الله
وذلك لأن الناس كان يتولّى أمرهم في انحاء البلاد إذ ذاك ملوك
عديدون ، بينما عضد الدولة كان يحكم رعاياه في مملكته بدون منافس
ولا منازع . وقوله في وهشودان الثائر عليه :

وخل زيباً لمن يحققه ما كل دام جبينه عايد
وقوله :

فأتيت معترماً .. ولا أسد ومضيت منهزماً .. ولا وعل
ولذلك قال في رهط عضد الدولة :

لا يستحي احد يقال له : نضلوك آل بويه ، أو فضلوا
قدروا عفوا ، وعدوا وفوا ، سئلوا ، أغنوا ، علواً علوا ، ولوا عدلوا
فوق السماء ، وفوق ما طلبوا فاذا أرادوا غاية .. نزلوا
... أي غاية من غايات الناس ، قلن تستطيع ان تفهم ما تحت هذه
الآيات (١) إلا على ضوء هذا التأويل .

١ تذكر قوله أول وفوده عليه :

ولا تفرنك الامارة في غير امير ، وان - بها - باهى

وهو إذا توجه إلى نفسه قال مثل قوله :

فمالي وللدنيا .. طلابي نجومها ومساعي منها في شذوق الراقم
وقوله :

غير اختيار قبلت برك بي والجوع يرضي الاسود بالحيث
وقوله :

وإذا خفيت على الغبيّ ، فعاذر ان لا تراني مقلّة عمياء
وقوله .

يُخَيَّل لي ان البلاد مسامعي واني فيها ما تقول العواذل
وقوله :

وكنت إذا يَمُت ارضاً بعيدة سرّيت ، فكنت السرّ والليل كاتم
وقوله :

والهجر اقبل لي .. ممّا اراقبه انا الغريق . فما خوفي من البلل
وقوله :

وضاقت خطّة .. فخلصت منها خلاص الحمر من نسج القدم
وقوله آخر ما انشد :

أتركني .. وعين الشمس نعلي فتقطع مشيتي فيها الشراكا ؟
وقد مرّ بنا ، وهذا كقوله في حلب :

تركت السرى خلفي لمن قلّ ماله وانعلت افراسي ينعمك عسجدا

فانما الملك رب ملكة قد افعم الخافقين ريانا

يرمز بهذا إلى ما يحيم عليها من رفاحية وسلام .

مبتسم ، والوجوه عابسة سلم العدى عنده كهيجاهها

وكذلك الملوك .

يقول في هذه الاخيرة :

قلو سرنا ، وفي تشرين خمس رأوني .. قبل ان يروا السماكا

ويقول :

وما انا غير سهم في هواء يعود ، ولم يجد فيه امتساكا
آخر دقة في هذا الوتر المرنان ، والواقع اننا كلنا هذا السهم (١) .

* * *

وهو إذا انتقل بهذا الاستقصاء الفني في التمثيل إلى المعاني المجردة ،
جاءك بمثل قوله :

واحتمال الاذى ، ورؤية جانبي ه ، غذاء .. تضوى به الاجسام

فالتمثيل هنا بالغذاء الذي تضوى به الاجسام ، وقوله :

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

التمثيل لهؤلاء بالبوقات والطبول ، وقوله :

نتاج رأيك في وقت ، على عجل كلفظ حرف .. وعاه سامع فهم

التمثيل لسرعة انجاز ارادته الملكية في بناء السفن — في أرض العدو —
بالحرف الملفوظ وسرعة فهمه من قبل السامع .

وقوله :

فقر الجهول — بلا عقل — إلى ادب فقر الحمار — بلا رأس — إلى رسن

التمثيل لضياح جهود المعارف بالرسن الذي يحتاج فيه إلى رأس قبل
كل شيء .

١ يفسره قوله :

وربما استقصى في التمثيل من جنس صناعة الكلام ، وقد فطن لها صاحب اليتيمة فاعتبرها من بدائع ابي الطيب وجعلها باباً خاصاً . وهي عندنا من هذا الباب أيضاً ، مثل قوله :

دون التعانق ناحلين ، كشكليتي نصب . أدقهما .. وضمّ الشاكل وقد مرّ بنا في محله . وقوله :

أمضى ارادته فـ « سوف » له « قد » واستقرب الاقصى فـ « ثم » له « هنا » وقوله :

« قشير » و « بلعجلان » فيها خفيّة كرائن .. في الفاظ الثغ ناطق وقوله :

إذا كان ما تنويه فعلا مضارعاً مضى : قبل ان تلقى عليه الجوازم وقوله :

من اقتضى بسوى الهندي حاجته اجاب كل سؤال عن « هل » بـ « لم » وقوله في وصف كثرة قلة لعصد الدولة . وقد مرّ بنا أيضاً : وكان ابنا عدوّ . كاثراه له ، ياء ي حروف « أنيسان » يختمها بقوله :

ولولا كونكم في الناس . كانوا هراء .. كالكلام بلا معاني وأنت تفهم الآن ما يعني بهذا الاستقصاء .

وقوله أخيراً في امكانية الاقتناع :

وكيف يصحّ في الافهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل ؟ ومع هذا بقيت في الديوان عشرات بل مئات من الأمثلة على هذا النوع لا يسعنا ان نتقصّها كلّها . وانما نكتفي هنا بالإشارة إليها ، فإنّ فيما تمثّلنا من الابيات غناء كشاهد عن ايراد ما بقي من اخواتها الحسان .

الباب العاشر

نظرة الطائر

لاحظنا في بعض ما سبق من الفصول كيف ان الصراحة تقتضي الاعتداد بالنفس ، وقد كان المتنبي عظيم الاعتداد بنفسه ، مدلاً بصدقه ، ولذلك كثيراً ما كانت صراحته جارحة ، وكيف ان الصدق في البيان يستلزم دقة الملاحظة ، وقد كان المتنبي دقيق الملاحظة جداً (١) وكيف ان الاستقصاء الفني في التمثيل كان يقتضي الامام الكلبي بأحوال الدنيا وشؤونها ، وقد كان المتنبي ملتهب الذكاء مشوب العاطفة ، يلتم بهذه الاحوال في ومضات خاطفة كالبرق ، لا تطيل وقفنا عندها في القصيدة ، ولكنها تحيل داجي ليلها - لمحة عين - نهراً ، فتبدو سماتها

١ لم يكن هو في دقة ملاحظته يكلف قريحته - كابن الرومي مثلاً - وصف المطاعم والمشارب ، وعوارض الصور الخلابية ، والعادات والمهن ، التي هي من مظاهر حياتنا الدنيا وعرضها ، والتي تنزع إلى التمتع برؤيتها والانشغال مدى الحياة بها صفار الهمم والنفوس - كما رأينا - وإنما شغله جوهرها عن كل غرض ، فكان يرمي ببصره إلى المدى الأبعد ، ويرفع عن الصفائر التي تشده إلى التراب .

كلّهما وقد طغى عليها النور .. ولو إلى لحظات .
وقد آن ان نتحدّث في هذا الفصل عن ميزة أخرى له ، لا يتّصف بها غير الملوك . هي ما يسمونها نظرة الطائر (Bird's Eye View) فهذه النظرة لا تقتصر — كدقّة الملاحظة — على اللحظة الراهنة في الزمان أو المكان . وانما تتجاوز هذه الحال المشهوددة إلى أسبابها التي توغل وراءها في الماضي . وإلى نتائجها التي تغيب أمامها في المستقبل .
نأمل قوله في المال مثلاً :

الا أيّها المال الذي قد أباده تغزّ . فهذا فعله بالكسائب
لعلّك في وقت شغلت فؤاده عن الجرد . أو كثرت جيش محارب
فهذه نظرة له تستوعب تاريخ المال كلّ . كما ان قوله من ثانية :
وأنتب خلق الله من زاد همّه وقصّر — عما تشتهي النفس — وجده
فلا ينحلّ في المجد مالك كلّ فينحلّ مجد كان بالمال عقده
ودبرّه تدبير الذي المجد كفه إذا حارب الاعداء . والمال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده
يعيد إلى المال اعتباره الاقتصادي الصحيح . كما ظهرت آثاره اليوم
في حضارة الغرب الماديّة .

فمن الامثلة على نظرة الطائر — عند المتنبي — قوله الفصل في الرأي
والشجاعة :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول ، وهي المحل الثاني
فاذا هما اجتماعاً لنفس مرة (١) بلغت من العلياء كلّ مكان

١ مرة بالكسر ومعناها قوة الخلق وشدة أو اصالة العقل وهو ما أراد المتنبي . وبعضهم يرونها مرة بالضم اي ضد الحلو ، وبعضهم يجعلها مرة بالفتح أي ولو مرة ، اما ابناء العصر فقد أحالوها إلى حرة ، تشبهاً بمعنى الحرية التي يفتقدونها ، ولم ترد عن العرب بهذا المعنى مقرونة بالنفس وانما تقرن عندهم الصفة بالوجه فيقولون وجه حر ، فكل ما جاوز اذن معناها بالكسر ليس بشيء .

(مرة بالكسر شدة الشكيمة أو اصالة العقل) .
فالمتنبي يجعل للعقل الحجة البالغة ، في الحدود التي يخترق فيها نوره
حجب الظلام .

ولربما طعن الفتي اقرانه
لولا العقول .. لكان ادنى ضيغم
وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه .
وقوله في الجبن والشجاعة :

ارى كلنا يبغى الحياة بسعيه
فحبّ الجبان النفس اورده التقى
ويختلف الرزقان والفعل واحد
وفي صفاء الحياة وكدرتها :

تصفو الحياة لجاهل ، أو غافل
ولمن يغالط في الحقيقة نفسه
وفي جوهر السيادة :

لولا المشقة ، ساد الناس كلهم
وانما يبلغ الانسان طاقته
وفي تنازع البقاء :

انما انفس الانيس سباع
كلّ غاد الحاجة يتمنى
من اطاق التماس شيء غلابا
وفي متاع الدنيا :

أبدأ تسردّ ما تهب الدنـ
يا ، فيا ليت جودها كان بخلاً

فكفتُ كون فرحة تورث الغد
وهي معشوقة على الغدر ، لا تح
كلّ دمع يسيل منها .. عليها
شيم الغانيات فيها ، فما ادر

وفي معنى الخلود :

سالم أهل الوداد ، بعدهم
فما ترجى النفوس من زمن

وفي أحوال أهل الأرض :

وقد فارق الناس الاحبة قبلنا
سبقنا إلى الدنيا ، فلو عاش أهلها
تملكها الآتي تملك سالب

وفي أسر الهوى :

لو فكّر العاشق في منتهى
لم ير قرن الشمس في شرقه

وفي غرور الحياة :

يموت راعي الضأن في جهله
وربما زاد على عمره
وغاية المفرط في سلمه

وفي صداقة العدو :

ومن نكد الدنيا على الحرّ ان يرى

سمّ ، وخلّ يغادر الوجد خلاّ
لفظ عهداً ، ولا تتمّ وصلا
وبفكّ اليدين عنها تخلّى
ي لذا أنث اسمها الناس ، ام لا

يسلم للحزن ، لا لتخليد
احمد حاله غير محمود

وأعفى دواء الموت كل طبيب
منعنا بها من جيئة وذهوب
وفارقها الماضي فراق سليب

حسن الذي يسبه ، لم يسبه
فشكّت الانفس في غربه

ميتة جالينوس في طبّه
وزاد في الأمن على سربه
كغاية المفرط في حربّه

عدوّاً له ما من صداقته بد

زعم بعضهم انه كان على المتنبي ان يقول « مداجاته » أو « مداراته »

تحاشياً لمعنى الخلوص والمودة في كلمة الصداقة ، وفاته ان النظرة هنا لا تقف عند حادث يزول بزوال أسبابه ، بل هي نظرة الطائر التي ترى هذا النكد يلزم الحياة في رؤية عدو ما من « صداقته » (١) أي « مصادقته » (بالمعنى المشتق من الصدق) بدّ . والمتنبّي يعني هنا الصداقة والعداوة في صفات النفس التي تتآلف أو تتخالف — كما سبقت الإشارة اليه — لا فيما يكون من متاع الدنيا في أيدي الناس، ويلقي ضوءاً على كلّ هذا قوله إلى عضد الدولة :

فلو كانت قلوبهم صديقاً لقد كانت خلائقهم عداك
أي لو كانت قلوبهم مصادقة لك ، لكانت أخلاقهم عدوة لك
لمصادقاتها لاخلاقك .

وفي بناء الممالك :

اعلى الممالك ما يبنى على الأسل وما تقرر سيوف في ممالكها
والطعن عند محبّين كالقيل حتى تقلقل دهرأ قبل في القل

وفي نجابة الخيل :

وما الخيل الا — كالصديق — قليلة وان كثرت في عين من لا يجرب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها واعضاءها ، فالحسن عنك مغيب

١ قال ابو علي : قيل للمتنبّي : على من تنبأت ؟

قال : على الشعراء .

فقيل له : لكل نبي معجزة ، فما معجزتك ؟

قال : هذا البيت .

* ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ، ما من صداقته بدّ

ولا وجه لاختصاصه إلا على ضوء هذا التأويل .. تأويلنا ... الذي يضرب بجذوره في علم النفس ، كما توصل اليه المحدثون .

وفي كرامة النفس :

قد هون الصبر عندي كلّ نازلة وليّن العزم حدّ المركب الحشن
كم مخلص وعلىّ في خوض مهلكة وقتلة - قرنت بالدم - في الجبن
وهذه النظرة إذا ألقاها على ممدوحيه جاءك بمثل قوله إلى سيف الدولة :
نهبت من الاعمار ما لو حويته لهنت الدنيا بأنك خالد
وقوله فيه :

فلما رأوه وحده دون جيشه دروا أنّ كلّ العالمين فضول
وقوله :

فلا تنكّ الليالي ، ان ايديها إذا ضربن ، كسرن النبع بالغرب
ولا يعنّ عدوّاً أنت قاهره فأنهن يصدن الصقر بالحرب
وقوله إلى ابن العميد :

تفضّلت الايام في بالجمع بيننا فلما شكرنا ، لم تدمنا على الحمد
وقوله إلى كافور :

واكنّك الدنيا إليّ حبيبة فما عنك لي إلا اليك ذهاب
وقوله إلى بدر بن عمار :

أغرّ .. أعداؤه إذا سلّموا بالهرب ، استكبروا الذي فعلوا
وقوله في بعض من عاشرهم :

ومن جاهل بي ، وهو يجهل جهله ويجهل علمي انه بي جاهل
وقوله في بعض من فتن بها :

بدت قمراً ، ومالت خوط بان وفاحت عنبراً ، ورنّت غزالا

وقوله في وصف زورة الخفاء :

كم زورة لك في الاعراب خافية أدهى ، وقد رقدوا ، من زورة الذيب
ازورهم وسواد الليل يشفع لي وانثني وبياض الصبح يغري بى

وقوله في وصف فظاعة الحرب :

لجياذ يدخلن في الحرب اعرا ، ويخرجن من دم في جلال
واستعار الحديد لوناً ، والقى لونه في ذوائب الاطفال

ولعلك لم تنس قوله في خيل الرءم المغيرة ، فألق معه عليها الآن
- من جديد - نظرة الطائر :

وخيل حشوناها الاسنة ، بعد ما تكدسن من هنا علينا ومن هنا
ضربن الينا بالسياط جهالة فلما تعارفنا ضربن بها عنا
أي انها كانت تضرب بالسياط حثاً لها في الزحف ، فلما تعارف
الجيشان توالى ضربها بالسياط لوذاً بالفرار .

وأخيراً تأمل نظرتة في حياته هو :

اهمّ بشيء ، والليالي كأنها تطاردني عن كونه ، واطارد
وحيد من الخلاّن في كل بلدة إذا عظم المطلوب ، قلّ المساعد

ورأيه في عوامل الحية والنجاح :

والامر لله .. ربّ مجتهد ما خاب إلا لأنه جاهد

وكلمته الحاسمة في سعادة الناس وشقائهم :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
لتدرك من أيّ علوّ شاق كان يلقي هذا الشاعر نظرتة السارحة ...

نظرة العُقَاب .

* * *

اذكر اني قلت مرة في أثناء حديث لي عن « الطباق » جرى فيه ذكر المتنبي (١) :

لقد كان للمتنبي — وهو الشاعر الحكيم — الحظ الاوفر في المقابلة بين مأساة الحياة ونعيمها على طريقته الفذة ... لنفاذ نظراته في الحقائق . فمن الخير ان تطيل — معي — التأمل في بعض أبيات له ، لا نشك انها كانت — كأخواتها — ثمرة تجارب العمر في حياته الحافلة بالعبر ، لتدرك إلى أي مستوى كانت تتناول روح هذا الشاعر العظيم لتلقي — من عل — في شؤون الخلق نظرتها السارحة .

فما كان ليتسنى لغير هذه الروح (التي تشرف على الحياة من عل) أن تدير في آفاقها الواسعة نظرة الطائر ، فتجمع بذلك — في نظرة خاطفة — بين الضدين .. فيما سماه البديعيون « بالطباق » .

ثم مضيت في التمثيل ببعض أبيات ، ممهداً لها بقولي :

فمن غيرُهُ رجَّع على رؤوس الاشهاد بمثل صوته الجمهوري :

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

فكأن في هذا البيت وحده عبرة الحياة كلها ، أو :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

وكأن في هذا البيت حسماً نهائياً للتنازع الذي ما برح

١ راجع « جولة في الشعر العربي المعاصر » — النظرة الانسانية .

في بعض الازدهان السقيمة قائماً بين الحضارة والبداءة ، أو :

فكثير من السؤال اشتياق وكثير من ردّه تعليل

وكان في هذا البيت أصدق صورة نفسية للحيرة التي يقع فيها من طال عليه الانتظار . فليست المسألة - عنده - مسألة طباق (بالمعنى البديعي المفهوم) وانما هي النفاذ بشعاع البصيرة إلى كل خبايا الطين .

وختمت الحديث بقولي :

وفي الحق ان الدوافع التي تدفع الملهمين على الطباق هي - في صميمها - الاهتداء إلى موضع العبرة في تجاربنا الارضية ، التي لا تخلو كل أحداثها في أظلم ساعاتها من جانبها المضيء . ومن يقدر ان يستخلص هذه العبرة إلا ذوو البصيرة النافذة من أبنائها الذين تخلص لهم الفطرة ، فيتجردون - ساعة التجلي - من نير الاهواء ، لئلا يخذلهم في تجربتهم التوفيق ، ويتسع أفقهم حتى يشمل الإنسانية كلها ؟

والمتنبى ما كانت تفارقه هذه النظرة أبداً . تأمل حتى في قوله إلى سيف الدولة بعد ايقاعه ببني كعب :

ولو لم تبق ، لم تعش البقايا وفي الماضي لمن بقي اعتبار

فهذا هو الذي يحدث في أعقاب كل حرب ... قديماً أو حديثاً . فلو لم يبق « الحلفاء » مثلاً ، لم تعش البقايا في الحرب العالمية الاخيرة من اليابانيين أو الالمان ، رغم ملايين الضحايا من الجانبين . ويصح أيضاً فيهما كليهما القول كما صح قبلاً في بني كعب : وفي الماضي لمن بقي اعتبار . هذا في الاحوال التي يفرض فيها التسليم على الخصم عنوة .. بدون قيد أو شرط .. كما جرى على هؤلاء . أما إذا كان الحليف هو

الذي قد جاء منقذاً لمن استسلموا وباتوا يتعرّضون للهلاك ، فلا أكثر
انطباقاً على حالهم من قول المتنبي أيضاً إلى سيف الدولة ، وقد لبى
الثغور التي كادت تستسلم بعد أن طوّحت جيوش النصرانية بطرسوس ،
فبات سهم أهلها تحت الرحمة .

بذا اللفظ ناداك أهل الثغور فلبّيت ، والهام تحت القضب
وقد يشوا من لذيد الحياة فعين تغور ، وقلب يجب

* * *

سبقت اليهم مناياهم ومنفعة الغوث قبل العطب
ومحل الشاهد هنا هو هذا البيت الأخير . فإنّ لفظه بمعناه ينطبق كل
الانطباق على وضع « ستالغراد » و « لتغراد » في الحرب الأخيرة ، وكيف
نجتا من برائن الموت على أيدي المنقذين .

أمّا نظرة هذا الطير الجارح إلى الحياة ، ومتطلباته هو منها ، فقد
ركّزها بما لا مزيد عليه في قوله :

إذا غامرت في شرف مروم	فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير	كطعم الموت في أمر عظيم
يرى الجبناء ان العجز عقل	وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكلّ شجاعة في المرء تغني	ولامثل الشجاعة في « الحكيم »

قيل له : أنتى يكون الشجاع حكيماً ؟ فقال : هذا علي بن ابي
لالب .

وكم من عائب قولاً صحيحاً	وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه	على قدر القرائح والعلوم

فهو قد عاش لهذه النظرة ، حتى قضى جارحاً كالعقاب .

الباب الحادي عشر

الفِطْرَةُ الْوَاعِيَّةُ

أظنّ اننا قد وفقنا — الآن — في تحليل « طريقة » المتنبي الفذّة إلى عواملها الاولى ، باجتزائنا في تناول مميزاته ، التي طبعت اسلوبه بطابعها الخاص ، على أهمها وأبرزها للعيان (١) . وهي :

(أ) الصراحة الجارحة

(ب) دقّة الملاحظة

(ج) الاستقصاء الفني في التمثيل

(د) نظرة الطائر

مزوّدة عنده — كما رأينا — بالثقافة العميقة ومدعمة بالفطرة الواعية . وكنت قد قلت في موضعه : إنما تشرف عليها جميعاً الفطرة الواعية .

١ يدخل في هذه المميزات أيضاً « نجوى النفس » ، ولكننا تحدثنا في هذه القلّة الخاصة عند شاعرنا بما فيه الكفاية . راجع فصل « لمن كان ينظم المتنبي ؟ »

فما هي هذه « الفطرة الواعية » التي لم نخن صاحبها في حياته
أبداً ؟ وكيف نستطيع ان نتلمّس أثرها في شعر هذا الشاعر العظيم ؟

يختلف عمل الفطرة في الطير الجارح عن نظره السارحة ، فهو إذا
سرح نظره إنما يلمّ بالآفاق المترامية حوله ، بينما إذا لجأ إلى فطرته
عرف ما يأتي وما يدع ، مهما اختلفت الظروف والاحوال . ويدخل
عمل الفطرة اليوم في دعم الحقائق التي يجلوها علم النفس عن « طبائع
النفس ... وأهواء القلوب ... وأغراض الحياة » . وكأنما كان المتنبي
في هذه الامور - كما ذكرنا (١) - ينطق بلسان الحياة « الأم » نفسها .

تأمل قوله في الحياة مثلاً :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس ، واشهى من ان يملّ ، واحلى
وإذا الشيخ قال : أفّ ! فما ملّ حياة ، وانما الضعف ملّ
آلة العيش صحّة وشباب فاذا ولّيا عن المرء ، ولّى

فان هذه الابيات هي خالصاً من وحي الفطرة ، بينما الابيات التي
تليها في القصيدة مباشرة هي نظرة الطائر السارحة إلى هذا المتاع المردود :

أبدأ تستردّ ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان بخلا
فكفت كون فرحة تورث الغم وخلّ يغادر الوجد خلا
وهي معشوقة على الغدر ، لا تحفظ عهداً ، ولا تتمّ وصلا
كلّ دمع يسيل منها .. عليها وبفكّ اليدين عنها تخلّى
شيم الغانيات فيها ، فما أدري لذا أنث اسمها الناس ، أم لا

كما سبق أن تمثّلنا بها في حينه .

وكذلك قوله في هذه القصيدة - قبل هذه الابيات مباشرة - في

الشكلي :

١ راجع الفصل نفسه .

وإذا لم تجد من الناس كفواً ذات خدر ، أرادت الموت بعلا

حقيقة نفسية عميقة ، فان معناه غير خاص بالمرثية ومنتزع من الفطرة ، ونستطيع على ضوءه ان نعلل هذه الحوادث الكثيرة للانتحار عند نوع من الفتيات .

والمتنبي كثير التأمل في شؤون الحياة والموت ، ولكن تفكيره دائماً على هدى الفطرة ، لا ينساق كغيره وراء الاوهام . تأمل قوله :

الف هذا الهواء اوقع في الأنف
والاسى قبل فرقة الروح عجز
س ان الحمام مرّ المذاق
والأسى لا يكون بعد الفراق
وقوله :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا
تبخل ايدينا بأرواحنا
نعاف ما لا بدّ من شربه ؟
على زمان ، هي من كسبه
فهذه الارواح من جوّه
وهذه الاجسام من تربه

وقوله :

تمتّع من سهاد أو رقّاد
فانّ لثالث الحالين معنى
ولا تأمل كرى تحت الرجام
سوى معنى انتباهك والمنام

قال ابن جنّي : أرجو ان لا يكون أراد بذلك انّ نومة القبر لا انتباه لها . مسكين ابن جنّي !

والمتنبي نفسه يسلم من تفكيره بالعجز في هذه القضية .

تخالف الناس ، حتى لا اتفاق لهم
فقليل : تخلص نفس المرء سالمة
إلا على شجب ، والخلف في الشجب
ومن تفكّر في الدنيا ومهجنه
وقيل : تشرك جسم المرء في العطب
أقامه الفكر بين العجز والتعب

فهذه هي النتيجة المعقولة التي يمكن ان يصل اليها ، في قضية هي خارجة عن نطاق العقل ، ذهن صحيح التفكير لا يعول إلا على فطرته (١) .

* * *

وعلى هذا النهج من وحي الفطرة قوله :

لا يخذعنك من عدو دمه وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس ، فان تجا ذا عفة ، فلعلته لا يظلم
تأمل قوله : ذا عفة ، ثم سائل نفسك ، ما هي تلك العلة ؟..

١ تخطر للدكتور طه حسين عند قول المتنبي :

يدفن بعضنا بعضاً ، ويمشي أوأخرنا على هوام الاوالي
وكم عين مقبلة النواحي كحيل بالجنادل والرمال
ومنصر .. كان لا يفضي لخطب وبال .. كان يفكر بالهزال

الفلسفة العلائية . فيخبرنا هنا ، وفي مواطن شتى من كتابه الهزلي « مع المتنبي » ، ان هذا الشعر كان نواة فلسفة المعري .

قال الاستاذ مارون عبود معلقاً عليه : قد زعم حقاً ، ولكن النواة لا تؤدي المعنى تاماً ، فالمعري في نظري ، شارح لكليات قررها ابو الطيب في شعره ومضى ، كما يفعل الشاعر ، فجاء هذا الضرير يكبرها ، فأفقدنا الكثير من روعتها الغنية . راجع كتابه « الرؤوس » .

أما رأينا فهو ان المعري في أكثر أحواله انما يجتر ما يقع له من أقوال الحكماء لا غير ، ولذلك يكثر التناقض في شعره . تأمل هذا التناقض الظاهر لرأيه في المرأة ، وقد عاش أعزب رهين المحبين بين قوله :

إذا شئت يوماً ان تقارن حرة من الناس ، فاختر أصلها ونجارها

وقوله : وسيان من امه حرة حصان ، ومن امه زانية
وشتان بين « حكمة » تنزع إلى صروف الحياة وسننها ، و « فلسفة » تنزع إلى مصادر الحياة ومصادرها . فان هذه مشمة حجتها في الشاهد والبيان ، وتلك مغية قوامها الحدس والتخمين .

وخبرها - ان اردت - عند علماء النفس بلا شك .

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيّه ، وخطاب من لا يفهم
ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم
وقوله :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلی مضرّ كوضع السيف في موضع الندى
وقوله :

وما كل هاو للجميل بفاعل ولا كلّ فعّال له بمتّهم
واحسن وجه في الوری وجه محسن وأمن كفّ فيهم كفّ - نعم
وأشرفهم من كان اشرف همة وأكثر اقداماً على كلّ معظم
لمن تطلب الدنيا ، إذا لم ترد بها سرور محبّ ، أو اساءة مجرم ؟
وقوله :

علينا لك الاسعاد ، إن كان نافعاً بشقّ قلوب ، لا بشقّ جيوب
فربّ كئيب ليس تندى جفونه وربّ كثير الدمع غير (١) كئيب

١ لو كان ابو تمام - او البحّري - يصدد هذا المعنى لما فوت على نفسه ان يقول : ورب ندي الجفن ، حرصا على رد العجز على الصدر ، ولكان بذلك قد فوت على نفسه هذا الاستقصاء للاختلاف الدقيق - في عالم النفس - بين المعنيين .
يقول الأستاذ عباس محمود المقاد :

« ليس الشعراء الذين نتلقى غنائهم كما نتلقى غناء البلبل فياضاً مرتجلاً لا حبة فيه ولا جهد ولا علاج هم الشعراء الذين تسهل عليهم الصياغة ويلين لهم مقاد الكلام . فقد كان البحّري أسلس من المتنبي نظماً واسرى إلى النفس نفماً وأعذبه في الذوق مساً . وكان مع هذا يعاني في النظم ما لم يكن يعانيه المتنبي الذي لا تسمع منه تلك الصيحة البلبلية الدافقة الطيبة ولا تتوسم على قصائده ذلك السخاء الفياض بالخواطر والعبارات . وربما حذف البحّري نصف القصيدة لتسلم له السلامة في بقيتها ، ولم يكن المتنبي يفرط في بيت مما يقصد معناه . »

أما عندنا فتعليله بسيط ، لأنه كان يعني - في مجال الجدل - كل كلمة فيما يقول .

وللواجد المكروب من زفراته سكون عزاء ، أو سكون لغوب
أي إمتا انه يتعزى بالصبر ، أو يعجز اعياء . وقوله :

وفي الاحباب مختصّ بوجد وآخر يدعي معه اشتراكا
إذا اشتبهت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى

وقوله :

اني لأجن من فراق اجبتي وتحسّ نفسي بالحمام فأشجع
ويزيدني غضب الاعادي قسوة ويلمّ بي عتب الصديق فأجزع

وقوله :

توهمّ القوم انّ العجز قربنا وفي التقرب ما يدعو إلى التهم
ولم تزل قلة الانصاف قاطعة بين الرجال ، ولو كانوا ذوي رحم

يقول فيها :

هون على بصر ما شقّ منظره فاتما يقظات العين كالحلم
ولا تشكّ إلى خلق ، فتشتمه شكوى الجريح إلى الغربان والرحم
وهذا حكم نافذ في سرائر النفوس ، وان اصطبغ هنا بصبغة
التشاؤم ... لظروف التنبي الخاصة .

وكن على حذر للناس تسره ولا يغرك منهم ثغر مبتسم
وقوله :

أبى خلق الدنيا حبيبا تدميه فما طلبي منها حبيبا تردّه
واسرع مفعول فعلت تغيراً تكلف شيء في طباعك ضده

وقوله :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبته بقول عداته وأصبح في ليل من الشكّ مظلم
وكلها معانٍ نفذ إليها علماء النفس أخيراً ، وقرروها في كتبهم .
أفلا يحقّ لصاحبنا إذن أن يقول :
إصا دق « نفس » المرء من قبل جسمه وأعرفها في فعله والتكلم
مثل هؤلاء العلماء ؟

• • •

ولعلّ من الشائق هنا أن نرى أي موقف كانت تدعو هذا المليك إليه
فطرته بالنسبة إلى المرأة وجمالها . انه كان - وهو في هذا انما يمثل
المبادئ العلوية (١) - يرى المرأة نبع الجمال في الطبيعة كلها ومصدر
الاشعاع . وقد مرّ بك قوله :

سقانا ، وحيّانا بك الله إنمّا على العيس نور ، والحدور كئائمه
وما حاجة الاظعان حولك في الدجى إلى قمر ؟ ما واجد لك عادمه

وعنده ان لباس المرأة يجب أن يخدم غرضاً واحداً .

لبسن الوشي لا متجمّلات ولكن كي يصنّ به الجمالا
وضفّرن الغدائر ، لا لحسن ولكن خفن في الشعر الضلالا

وهذا يدلّك على فتونه بالشعر الطويل .

وانها هي التي تدفع بالهمم إلى غاياتها البعيدة ، وتحيي الهمم
- بنظراتها - وتحببها ، فاذا ظفرت منها العيون بنظرة .. ولو خاطفة ،
زال عنها الاعياء وتابعت سيرها السوي مهما لاقت من المشقّة :

إذا ظفرت منك العيون بنظرة اثاب بها معيي المطي ورازمه

١ راجع الفصل « صبي في المكتب » .

وعنده ان جمال المرأة هذا كل زاد المسافرين في رحلتهم الأرضية ..
إلى أ، يوارى معالمها التراب :

زودنا من حسن وجهك ، ماذا م ، فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا ، فصلك في هذه الدن يا ، فان المقام فيها قليل
وكان هو ينظر إلى حسن المرأة نظره الفطرية الصحيحة :

ما أوجه الحضرة ، المستحسنة به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام - ناظرة ، وغير ناظرة - في الحسن والديب
وعنده ان العزة في حسن المرأة هو في عزة رجالها الذابئين عنها :
ديار اللواتي دارهن عزيزة بطول انقنا يحفظن ، لا بالتائم

وكان يؤمن لذلك ان للمرأة طبيعة انثوية تختلف عن طبيعة الرجال :
أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي ؟
قال الامام علي : خيار خصال النساء شرار خصال الرجال - الزهو
والجن والبخل .

واتها إذا اخلصت إلى طبيعتها ، برزت شخصيتها الفاتنة التي لا تفتز
المعشوقة بدونها ... وكذلك المربية الام .

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ، ولا صبغ الحواجيب
ولا خرجن من الحمام ، مائلة اوراكهن ، صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعر في الوجه مكذوب

أي انه لا يلبس المكياج للتغريب بالناس ... أو النساء ، وتذكر أيضاً
حينه إلى جدته وما قال في رثائها هناك .

ونظرتة إلى الشيب — على فكرة — نظرة فطرية صحيحة ، فهو يقول مثلاً :

مشبّ الذي يبكي الشباب مشييه فكيف توقّيه ، وبانيه هادمه ؟
ولا يلوم الناس على الخضاب :

وما خضب الناس البياض لأنه قبيح ، ولكن احسن الشعر فاحمه
فهذا هو موقف المتنبي من المرأة ونظرتة اليها في البداوة .. والحضارة.
وقد كان لهذا القلب الكبير شأن مع قلب كبير آخر ، هو قلب خولة
أخت سيف الدولة ، التي لعلك تتذكر قصيدته في رثائها :

يا أخت خير أخ ، يا بنت خير أب كناية بهما عن اشرف النسب
وقد نزل عليه خبر موتها ، وهو بالكوفة ، كالصاعقة :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه املا شرقت بالدمع ، حتى كاد يشرق بي

والفضل في كشف النقاب عن هذا الجانب الخفي من حياة المتنبي
يرجع إلى أخي الاستاذ محمود محمد شاكر ، في دراسته القيمة عن
المتنبي ، وان كان لي أن أتمنى عليه شيئاً ، فهو ان يستكمل كتابه
هذا — كما طلبت منه مرة — ويوسّعه — كما وعد بنفسه — في اربعة
مجلّدات .

فمن شاء أن يدرس هذه المأساة من حياة المتنبي ، فلن يجد خيراً
من هذا الكتاب . ويكفيها منها هنا مح نجدها حتى في هذه القصيدة التي
رثاها بها مفجوعاً :

قد كان كلّ حجاب دون رؤيتها فما قنعت لها يا أرض بالحجب ؟
ولا رأيت عيون الانس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب ؟

وهل سمعت سلاماً لي ألم بها فقد أطلت، وما سلّمت من كُتب (١)
ويكاد قلب المتنبي الكبير يتقطع حسرة بعد هذا البيت ، فاسمعه
وكانه يبكي :

وكيف يبلغ موتانا التي دفنت وقد يقصّر عن أحيائنا الغيب
وهو إحساس فطري له ، فقد قضى حياته كلّها بعد مفارقة سيف
الدولة — كما تعلم — بعيداً عنها ، يتألم لفراقها .
وعند الاستاذ الشاكر — ان شئت — التفصيل .

* * *

١ قال صاحب : وما باله يسلم على حرم الملوك ، ويذكر منهن ما يذكره المنزل ، في قوله :
يعلمن ، حين تحيي ، حسن مبسمها وليس يعلم إلا الله بالشنب
وكان أبو بكر الخوارزمي يقول : لو عزائي انسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها ، وضربت
عنقه على قبرها .
كل ذلك لأن نظرتهما إلى المرأة تختلف كل الاختلاف عن نظرة الرجل .
١ قال الاستاذ مارون عبود :

ان في هذه القصيدة شبهة تدعم ظن الاستاذ محمود . فما حدث بين المتنبي وسيف الدولة وإبني عمه
يشير شكاً قوياً . وم يخاف الشاعر ليعقب على قوله :

يظن ان فؤادي غير ملتهب وان دمع جفوني غير منسكب
بقوله : ولا ذكرت جميلاً من صنائعها إلا بكيت ، ولا ود بلا سبب

فمثل هذا التبسط ، بل مثل هذا التعليل لا يطلب من الشعراء . انها عاطفة حاول الشاعر اخفائها
فأبت إلا أن تمد أذنيها ، وتظهر بصورة لا تخفى على متأمل لا هوى له .

ثم بماذا نعلل هذا الحنين الدائم إلى سيف الدولة وهو مصطبغ بالوان الحب اشد اصطباغ :

رحلت ، فكم باك بأجفان شادن علي ، وكم باك بأجفان ضيفم
ولو ان ما بي من حبيب مقنع عذرت ، ولكن من حبيب معمم
رمى ، واققى رميي ، ومن دون ما اتقى هوى كاسر كفي وقوسي واسهمي

وما معنى ذلك الاثمار بقتل الشاعر العظيم وقد تشاركت فيه الاسرة الحمدانية من انطاكية إلى حلب
ومنج ، ابرزه الاسباب « الأدبية » التي رواها المؤرخون ؟ ولماذا دعا الامير شاعره بعد موت

وفي ديوان المتنبي (ان أردت أن تقف عند مفردات الابيات) عالم
زاخر من معاني علم النفس ، أوحى بها له كلّها فطرته الواعية ،
فما أشبهها بالنجوم التي يهتدي بهديها السالكون . كقوله :

إذا كان مدح ، فالنسيب المقدّم اكلّ فصيح ، قال شعراً ، متيّم ؟
وكان مثل هذا السؤال جد غريب على عصره في مذهب المديح . (١)

وقوله :

وبى ما يذود الشعر عني أقلّه ولكنّ قلبي يا ابنة القوم قلب
وقوله :

وفيك إذا جنى الجاني أناة تظنّ كرامة ، وهي احتقار
وقوله :

انما انت والد ، والاب القآ طع أحنى من واصل الأولاد
وقوله :

ترفّق ايها المولى عليهم فانّ الرفق بالجانى عتاب
وقوله :

الام طماعيّة العاذل ولا رأي في الحبّ للعاقل ؟

خولة ، ولم يستدعه حين كتب اليه أول مرة ؟

كل هذا يقرب زعم محمود من الحقيقة . راجع « الرؤوس »

ونضيف نحن إلى هذا ظاهرة لاحظناها أيضاً أثناء دراستنا شعر هذا الشاعر ، فهو كثيراً ما ييوح
بما ييوح - جرياً على صراحته - في انصاف أبيات ، ثم يكملها بما يصرفها عن معناها الاصيل ...
ليشبه على السامعين . تأمل قوله في موقفه التاريخي المشهود بمجلس سيف الدولة :

مالي اكم حباً قد برى جسدي ؟ ثم تجده في شطره الثاني يقول :
وتدعي حب سيف الدولة الام صرفاً عن مراده الحقيقي .

١ راجع فصل « المفتاح لآثار العرب الشعري » .

يراد من القلب نسيانكم
وتأبى الطباع على الناقل
وقوله :

يخفي العداوة وهي غير خفية
نظر العدو بما أسرّ ييوح
وقوله :

تلف الذي اتخذ الجراءة خلّة
وعظ الذي اتخذ الفرار خليلاً
وقوله :

وإذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعن وحده والنزالا
وقوله :

تمنّ .. يلذّ المستهام بمثلّه
وان كان لا يغني فتيلاً ، ولا يجدي
وقوله :

ابلق ما يطلب النجاح به الطب
مع ، وعند التعمّق الزلل
وقوله :

وإذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الاجسام
وقوله :

والهم يخترم الجسيم نخافة
ويشيب ناصية الصبيّ ويهرم
وقوله :

وضاقت الأرض ، حتى صار هاربهم
إذا رأى غير شيء . ظنّه رجلاً
وقوله :

وما ذاك بخلاً بالنفوس على القنا
ولكن صدم الشر بالشرّ احزم

وقوله :

ذلّ من يغطّ الذليل بعيشٍ ربّ عيش أخفّ منه الحمام

وقوله :

الحبّ ما منع الكلام اللسان وألذّ شكوى عاشق ما أعلنّا

وقوله :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكنّ أمانيا

وقوله :

وبيننا - لو رعيتم ذاك - معرفة ان المعارف ، في أهل النهى - ذمم

وقوله :

إذا ترحلت عن قوم ، وقد قدروا ان لا تفارقهم ، فالراحلون هم

وقوله :

لهم حقّ بشركك في « نزار » وادنى الشرك في اصل جوار

وقوله :

ولم أرَ في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

وقوله :

وكلّ يرى طرق الشجاعة والندى ولكنّ طبع النفس للنفس قائد

وقوله :

ولم يسلمها إلا المنايا ، وإنما أشدّ من السقم الذي اذهب السقما

وقوله :

وقد يتزىّى بالهوى غير أهله ويستصحب الانسان من لا يلائمه

وقوله :

انّ خير الدموع عوناً لدمع بعثته رعاية فاستهلا

وقوله :

تشرق اعراضهم واوجهم كأنها في نفوسهم شيم

وقوله :

كلّ ما لم يكن ... من الصعب في الانفس ، سهل فيها إذا هو كانا

وقوله :

وأفجع من فقدنا ، من وجدنا قبيل فقد ، مفقود : المثال

وقوله :

وإذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل

وقوله :

اتّما تنجح المقالة في المرء ، إذا صادفت هوى في الفؤاد

وقوله :

افاضل الناس اغراض لذا الزمن يخلو من الهم اخلاهم من الفطن

وقوله :

أعزّ مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وقوله :

شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الانسان ما يصم

وقوله :

خير الطيور على القصور ، وشرها يأوى الخراب ويسكن الناورسا

وقوله :

كتيبة لست ربّها نفل وبلدة لست حليها عطل

وقد دعا فخر الدولة بن بويه وزيره الصاحب بن عباد ان يختار له من شعر المتنبي ما يجري مجرى الامثال ، فاختر له ٣٧٠ بيتاً (١) ، وهو من نعلم بغضاً للشاعر ، في رسالة قال في مقدمتها : « وهذا الشاعر مع تميزه وبراعته وتبريزه في صناعته ، له في الامثال خصوصاً مذهب يسبق به امثاله » ، والفضل ما شهدت به الاعداء ، وان كان الصاحب يجهل يقيناً من أين كان مأناها .

وفطرة المتنبي أخيراً هي التي جعلته يحكم بأحكام ، ربما اختلف أمرها الآن عند الناس ، في مثل قوله :

العبد ليس لحرّ صالح بأخ لو انه في ثياب الحرّ مولود
لا تشتر العبد ، إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد
ومن عرف حكمه في الناس جملة ، لا يستغرب له مثل هذا الحكم في فئة منهم . وقوله :

ولو كنت في اسر غير الهوى ضمنت ضمان ابي وائل
فدى نفسه بضمان النصار واعطى صدور القنا الذابل

وهو ما يعنونه في لغة السياسة اليوم « قصاصة الورق » .
فهذا الذي جعل شعره يتألق بمميزات اسلوبه — كما قدّمنا — على تلك « الطريقة » الغدّة . التي عرفناه بها . تشرف عليهنّ جميعاً فطرته الواعية .

١ راجع كتاب « انوار الربيع في انواع البديع » لابن معصوم .

الباب الثاني عشر

تطوير المعنى التقليدي

بقيت ناحية واحدة من فنّ المتنبي كانت وبالأعلى على بقريته ، تلك هي الناحية التي ظلت نصب الاعين - أكثر من سواها من نواحي تلك العبقرية - موضع النظر والتساؤل دائماً عند « اسرة الفن » - إعجاباً وتقديراً عند قداماهم ، ومواخذة وتجريحاً عند المحدثين . وهذه الناحية في الواقع لا تتعلق بـ « الطريقة » الفذة التي له في البيان ، ولا بميزات شعره الكبرى التي تقوم عليها تلك الطريقة ، وإنما تتعلق بهامش هذه الطريقة ! أما ، إذ قد قام بها الشاعر - نزولاً على حكم عصره (١) - التزاماً لطبيعة فنّه في مذهب المديح ، ناشئة عن أسباب مغللة في التاريخ العربي لا نجهلها الآن ، لأننا قد مهدنا لها بالبيان تفصيلاً (٢) .

١ راجع الفصل « لمن كان ينظم المتنبي ؟ »

٢ راجع الفصل « المفتاح لثراث اشعر العربي » .

ولكن مما يؤسف له ان النقاد في عصر المتنبي كانوا - أول شيء - يبحثون عن هذا النوع لا غير (من التطوير في المعاني .. اختراعاً أو توليداً) في آثار كل من نظم شعراً ، ويوجهون اليه بحكم فنيته عنايتهم ، قبل أي شيء آخر ، وكانوا يعتبرون ما يجدونه ، في شعر الشاعر من اثر هذا التصوير ، في رأس قائمة الحسنات للشاعر ، تهديراً لابداعه الفني .

فالعين اللاقطة عند هؤلاء لم تر في شعر ابي تمام كله (مع انه أكثر المولدين - كما يقولون - معاني وتوليداً) الا ثلاثة شواهد لمعنى جديد عليهم ، هكذا زعم القاسم بن مهرويه ، احدها قوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت ، اتاح لهان لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
والثاني قوله :

بني مالك ! قد نبهت خامل الثرى قبور لكم ، مستشرفات المعالم
غوامض .. قيد الكف .. من متناول وفيها علا لا يرتقى بالسلام
والثالث قوله :

يأبى على التصريد الا نائلاً ان لم يكن محضاً قراحاً يمدق
نزراً كما استكرهت عائر نفعة من فأرة المسك التي لم تفتق
قال بعضهم : وهذا المعنى الثالث ما أروع ! ويكفي ان يكون
وحده لأبي تمام .

بينما أصبح هذا النوع - بحكم تغير الازواق - في عصرنا هو الشيء الذي تتلوع له نفوس النقاد ، كلما تعرقلوا بأمثاله ، استكراهاً واستنكاراً ، ويجعلونه في ميزان القيم أول شيء يحكم به لا للشاعر بل عليه ، ويعتبرونه من السيئات التي لا تشفع معها أية حسنة أخرى .

وقد كان من هذا النوع مذهبهم في المبالغة والغلو الذي كان يأخذ به الشعراء أنفسهم أخذاً ، وقد قلنا عنه في فصل سبق (١) :

ان هذا المذهب في الغلو « عاهة » - نقولها بلا مبالغة - ابتلي بها الأدب العربي ، ولكن ليس المسؤول عنه المتنبي ، إذ كان فيه عالة على سواه . وإنما يقع انهما على الشعراء قبله - عباسيين وأمويين - من اتخذوا الشعر صنعة صرفاً ، وأزجوه بضاعة للكسب في الاسواق ، ففتحوا بذلك الباب للعبث بالتراث العربي ، إذ دأب الشعراء بعدها - وصاحبنا في الطليعة - على التلاعب بالمعاني التقليدية ، وتقليبها على وجوه - مما دعوه « اخيلة شعرية » ، ونضيف هنا « بحكم التزام الشعراء لطبيعة فنهم ، واستجابة منهم للترعة الفنية » (٢) امعاناً في الصنعة ، حتى آل بهم الامر أخيراً إلى تقرير القاعدة المشثومة : أعذب الشعر أكذبه !

يستشهد صاحب اليتيمة مثلاً لباب « المدح الموجّه » بالبيت :

نهب من الاعمار ما لو حوَيْته لهنت الدنيا بأنك خالد
فيقول : هذا المدح كالثوب له وجهان ، ما منهما إلا حسن . ويروى عن ابن جني قوله : لو لم يمدح ابو الطيب سيف الدولة إلا بهذا البيت وحده لكان قد أبقي فيه ما لا يخلقه الزمان .

ويستشهد لباب « حسن التخلص » بالبيت :

وغيث .. ظننا تحته ان « عامراً » علا ، لم يمت ، أو في السحاب له قبر
فيعتبره من فرائده .

١ راجع الفصل « المتنبي بين شراحه وناقديه » .
٢ راجع الفصل « المفتاح لآثار العرب الشمرى » .

ويستشهد لباب « حسن الحشو » بالبيت :

ويحتقر الدنيا احتقار مجرّب يرى كلّ ما فيها - وحاشاك - فانيا
فيقول : سبحان الله ، ما أحسن الحشو بقوله : وحاشاك ...

ويستشهد لباب « براعة الاستهلال » بالبيت :

أُتْرأها لكثرة العشّاق تحسب الدمع خلقة في المآقي ؟
فيقول : وهو ابتداء ما سمع بمثله ، ومعنى تفرّد بابتداعه .

ويستشهد لباب « النسيب بالاعرابيات » بالبيت :

ازورهم ، وسواد الليل يشفع لي وانثي ، وبياض الصبح يغري بي
فيقول : من قلائده ... ولعله امير شعره .

وأخيراً يستشهد لباب الابداع في سائر المدائح بالبيت :

ذكر الانام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتها
فيقول : وهذا البديع الفرد من أبيات هذه القصيدة .
فهذا كان كل ما يهم القوم من الشعر ... جانبه الفني .

على ان الشعراء لم يكونوا يعرضون مثل هذه البضاعة بين يدي الممدوحين
أو يتنافسون في صنعها بين أنفسهم على اعتبار انها « الحقّ » الذي لا
كذاب فيه . فهم أنفسهم كانوا يعرفون ان هذا الجانب « المترّف » من
فنهم نوع من العبث المحبّب الذي ارتضوه في الشعر بحكم ظروف
مجتمعهم الذي كان لا يهتئّ لوحة لخلق الفنان وابتداعه إلا في هذا المجال
الضيّق (من الاخيلة الشعرية) ، وبآية ما تعرّض له الشعر نفسه - قبلهم -

من التطور عبر القرون الثلاثة الأولى (١) على هذا الغرار .

وكانوا يستملحون هذا العبث الفني في مذهب المديح ، وفي الغزل الذي كانوا يستهلون به قصائد المديح ، ولكنه لم يكن « كل شيء » في لوحات الفنانين ، لأن وراء هذا العبث كان يقوم « جد » صارم — عند المبرزين منهم كأبي تمام والبحري وابن الرومي وابن المعتز ممن سبقوا المتنبي — كان يدركه المدحون ويعولون عليه في التقييم ... حتى فسدت الاذواق — بعد — بذهاب أهله ، وبقي امام المتأخرين هذا التراث من العبث واللهو مما لا يقوّمه أي جد لأن حياة المتأخرين الاجتماعية نفسها خلت من كل جد .

ومن هنا نشأ عند الطلائع قواعد سلوك لعرض البضاعة التزموها ايغالباً في الفن من براعة الاستهلال ، وحسن التخلص ، وبيت القصيد ومسك الختام ... وكلها لا تتعدى عندهم ملتزمات الصنعة التي تواطأوا على وضعها بينهم منافسة وابتهاراً ، فأخذها عنهم المتخلفون — كما سبق ان بينا — قضية مسلمة .

وقبل ان ننزل مع فنّاننا العبقري في هذا الميدان نود أن نقرّر انه كان من أول الخارجين — بحكم عبقريته على كثير من هذا الالتزام ،

١ راجع الفصل « تقصيد القصائد عند المتنبي » . وهذا الحكم يصح أيضاً في الادبين « الفارسي » و « الاردوي » اللذين بات يحسن فيهما من الشطحات الخيالية حتى ما يسوء موقعه عندنا ، نظراً لفطرتنا العربية ، ولاختلاف أثر التطور التاريخي في الآداب بيننا وبينهم . فهذان الادبان يمثلان — مثلنا — ظاهرة تصوير المعنى التقليدي في الشعر أقوى تمثيل ... وفيما يسمونه « الغزل » بصفة خاصة ، كما يركز شعراؤهما معنى « الوحدة » في البيت الفرد ... لا القصيد . تأمل قول غالب ، أكبر شعراء مسلمي الهند في غزلياته :

تيري وعدي برجني هم تويه جان جهوت جانا كهخوشي سي مرنه جاتي اكر اعتبار هوتا
(ان كنا عشنا على وعدك فذاك — فاعلم — لأننا كنا نعرفه كذباً ، والآنما كنا نموت له فرحاً لو كان لنا به أدنى اعتبار ؟)

توفي غالب قبل قرن من الزمان ، وكان « اقبال » يدين له بالاستاذية في عصرنا الحديث .

مما أنكره المنكرون عليه (كما رأيت) من معاصريه (١) ، فلم يعبا بهم ولا بتقدمهم بعد أن استقام له وجه الطريق ... الذي شقه لنفسه في الفن .

والآن إلى موضوعنا .

لقد كثرت اشارتنا إلى ما كان يجري عند الشعراء من تطوير للمعنى التقليدي ، فما هي هذه المعاني التقليدية . وكيف كان يجري تطويرها عند هؤلاء ؟ علينا أن نجيب على هذين السؤالين ، لأنه ما لم نفعل ذلك فلن نستطيع تفهيم ما سوف نسوق عليها من شواهد وأمثلة - أصبحنا نتكبر لها الآن - من شعر « اسرة الفن » والشكل الذي انتهت اليه في شعر المتنبي بالذات ، ولعله كان يتعاطاها مثلهم - ولكن على كره - نزولاً على ذوق عصره (١) . ولذلك كان يخرج بها - في شطحاته - إلى حد الاحالة ، كقوله :

ولو قلم ألقيت في شقّ رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب
ولنبداً بالجواب على السؤال الثاني : كيف كان يجري التطوير ؟
خذ على سبيل المثال قول حميد بن ثور في الذئب ، الذي لعلك أنسيته .

إذا ما غدا يوماً ، رأيت غمامة من الطير ينزرن الذي هو صانع
فهذه صورة واقعية للذئب الذي يسترق الخطى في الصحراء ، وتحلق فوقه بعض الطيور تنظر ماذا يصنع انساً بجزره . فاذا اعتبرناها كالأصل لهذا المعنى واضفنا اليها قول الافوه الاودي :

وترى الطير على آثارنا رأي عين .. ثقة ان سسّمار

١ راجع الفصل « المتنبي بين شراحه وناقديه » .

أي انها على ثقة من الميرة .

رأينا كيف أحالها النابغة من الذئب إلى الجيش في قوله :

إذا ما غزوا بالجيش ، حلق فوقهم عصاب طير ، تهدي بعصاب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان ، أول غالب

وهي صورة شعرية أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة . فقد أخذها
الشاعر قضية مسلّمة أن هذه الطيور إنما تحلق فوقهم لأنها تتوقع اللحم
من جزرهم ، وهذا ما استأنس به أبو نواس من الصورة ، فانتقل اليه
مباشرة وقال :

يتوخى الطير غدوته ثقة باللحم من جزره

وتصبح عند مسلم بن الوليد هذه - بعد - عادة للطير تتعودها ،
لملازمتها غدو الجيش ورواحه .

قد عود الطير عادات وثقن بها فهنّ يتبعنه في كلّ مرتحل
ويجيء بعدهم أبو تمام فيجعل الطيور مثل الاعلام فوقها والاعلام
كالطيور تحتها ، هذه تظلل تلك ، مقيمة معها في الحلّ والترحال ...
نواهل في الدماء .

وقد ظللت عقبان اعلامه ضحى بعقان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات ، حتى كأنها من الجيش ، إلا أنها لم تقاتل
فقد جعل كماداته الاعلام أيضاً ... عقباناً ، لاجل المجانسة اللفظية .
ويصل الامر إلى المتنبي ، فاذا بهذه الطيور تصبح عنده من الكثرة
بحيث لا يكاد ينفذ من خلالها ضوء الشمس إلى الجيش الزاحف
تحتها :

وذي لجب .. لا ذو الجناح امامه بناج ، ولا الوحش المثار بسالم

تمرّ عليه الشمس وهي ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة تدور فوق البيض مثل الدراهم

وهي صورة خيالية بحت ، وانما استمد الشاعر مادتها من صورة
أخرى واقعية حدثنا عنها كما مرّ بنا (١) . ولا يكتفي المتنبي بهذا بل
ينظر إلى معناها الاصلي ، فيحاول ان يغرب في هذا الطريق أكثر ،
وقد رأى كيف ان مسلم بن الوليد سبقه في الاغراب حيث قال يخاطب
مدوحه :

أشربت أرواح العدى وقلوبها خوفاً ، فأنفسها اليك تطير
أي انها تعنو لسيفك خوفاً وهلعاً ، فتهلك .

لو حاكمك ، فطابتك بذحلها شهدت عليك ثعالب ونسور
لأنها هي التي - يوحى لك الشاعر - تولت تمزيق لحومهم وأكل
نثارها بعد الهلاك ...

فيدخل المتنبي في الصورة من الاغراب عنصراً جديداً ... النسور
التي هي عادة أطول الطيور عمراً ولكنها من غير مخالب ،
فيضمن لها الرزق من لحوم المصّرعين في الميدان ، بحيث لا يسعها
الا الشكران .

يفدّي اتمّ الطير عمراً سلاحه نسور الفلا .. احداها والقشاعم
وما ضرّها خلق بغير مخالب وقد خلقت اسيافه والقوائم

ويستمر هذا التطوير للمعنى - معنى الذئب والطير - على السن الشعراء
دون تمهل أو تريث ، حتى في زمان المتنبي ، فيقول ابن نباتة ، وقد
أخذ المعنى عنه (٢) :

١ راجع الفصل « دقة الملاحظة » .

٢ مصداقاً لقوله : اجزني ، إذا انشد شعراً ، فانما اناك بشعري المادحون مرددا

ويوماك .. يوم للعفاة مذلل
إذا حومت فوق الرماح نسوره
أطار إليها الضرب ما ترقب
فعند هذا الشاعر يطير الضرب من تحت ، إلى النور المحلقة من
فوق ، ارزاقها .

وحتى بعد زمان المتنبي . فيقول ابن شهيد الاندلسي :

وتدري سباع الطير ان كماته — إذا لقيت صيد الكماة — سباع
سباع الطير تدري ان كماته سباع .

تطير جياعاً فوقه ، وتردّها — ظباه إلى الأوكار ، وهي شباع
تطير جياعاً وتعود إلى اوكارها شباعاً .

ويجيء بعدهم ابو بكر العطار ، فيقول ، وكل همه تطوير المعنى
أكثر :

تظلّ سباع الطير عاكفة — بهم — على جث ، قد سلّ أنفها الذعر
فهذه الجث — يوحى الشاعر — لم يقض عليها في القتال ، وانما سلّ
أنفها الذعر ، وتظلّ الطير عاكفة عايتها بفضل المويد المنصور .

وقد عوضتهم عن قبور حواصلها فيا من رأى ميتاً يطير به القبر ؟
فقد أصبحت هذه الطيور — إذن — قبوراً طائفة ، امعاناً في الاغراب
بفضل هذا التطوير . فانظر إلى أين وصل المعنى بصورة الذئب الذي
فارقناه ...

إذا ما غدا يوماً ، رأيت غمامة من الطير ينظرون الذي هو صانع ؟

لقد بعد عن ذلك الذئب كثيراً ، ولكن لا بقدر بعده الموهل المسف
عن الحياة . وهذا هو العبث الفني الذي تورط فيه بشعرهم كله الشعراء

المتأخرون عندما اقتلعوا جذوره من تربة الجدّ مرة واحدة .

» « «

أما المعاني التقليدية - وهذا جوابنا على السؤال الاول - فما كان لها ان تخرج في مدارها المتسع عن اربعة أقطاب هي التي يدور عليها مذهب المديح كما بيّن ابن رشيق (١) ، وهي الصفات التي شاد بها العرب من العقل والعفة والشجاعة والعدل ، وكل من هذه الصفات العربية تقع وسطاً - بعد - بين طرفين مذمومين .

يقول ابن رشيق : ان الفضائل التي يمتدح بها الناس من حيث هم ناس (أي من الناحية الانسانية) ، لا من حيث ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوانات ، على ما عليه أهل الالباب من الاتفاق في ذلك ، إنما هي أربع : العقل والعفة والعدل والشجاعة .

وتفلسف قدامة بن جعفر في شرح هذه الفضائل وما يتفرع عنها ، فذكر (٢) فيما ذكر انه :

(أ) تحت العقل يندرج ثقافة المعرفة ، والبيان ، والسياسة ، والصدع بالحجة ، والعلم ، والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك .

(ب) تحت العفة يندرج القناعة ، وذاتة الشهوة ، وطهارة الملازار .

(ج) تحت الشجاعة يندرج الحماية ، والاخذ بالثار ، والدفع عن الجار ، والنكاية في العدو ، والسير في المهامه والقفار الموحشة وما شاكل ذلك .

(د) تحت العدل يندرج السماحة ، والتغابن والانظلام ، والتبرع بالنائل والاجابة للسائل ، وقرى الاضياف وما جانس هذه الاشياء .

وان هذه الفضائل البسيطة يقترن بعضها مع بعض فتنشأ عنها فضائل

١ راجع كتاب « العمدة » لابن رشيق .

٢ راجع كتاب « نقد الشعر » لقدامة .

أخرى مركبة من هذه :

(١) كالصبر على الملمات مثلاً ونوازل الخطوب ، والوفاء بالايعاد ، تنشأ عن اقتران العقل مع الشجاعة .

(٢) وكالبرّ وانجاز الوعد وما أشبه ذلك ، تنشأ عن اقتران العقل مع السخاء .

(٣) وكالتزّه ، والرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدنى المعيشة وما أشبه ذلك ، تنشأ عن اقتران العقل مع العفة .

(٤) وكالاتلاف والاخلاف وما جانس ذلك ، تنشأ عن اقتران الشجاعة مع السخاء .

(٥) وكانكار الفواحش ، والغيرة على الحرم ، تنشأ عن اقتران الشجاعة مع العفة .

(٦) وكالاسعاف بالقوت والايثار على النفس ، تنشأ عن اقتران السخاء مع العفة .

ولم يكن الشعراء يتجاوزون هذه الفضائل العربية في مذهب المديح ، مهما أطنبوا ، ولا كان يسعهم في توليد المعاني وتطويرها إلا الاعتماد على متفرّعاتها .. مهما توسّعوا في الخيال . ففي موضوع العقل مثلاً يتكرّر عند المتنبي في ممدوحيه هذا المعنى بوجوه مختلفة .. كقوله :

ذكيّ .. تظنيّه طليعة عينه يرى قلبه في يومه ما يرى غدا (١)
واعاده :

مستنبط من علمه ما في غد فكأن ما سيكون ، فيه دوّنا (٢)

١ فيه نظر إلى قول أبي تمام : ولذلك قيل : من الظنون جليه علم ، وفي بعض القلوب عيون
٢ قول اوس بن حجر : اللمي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وقال أيضاً :

ماضي الجحان ، يريه الحزم قبل غد بقلبه ، ما ترى عيناه بعد غد (١)

وقال :

ويعرف الامر قبل موقعه فما له بعد فعله ندم (٢)

وهذا ركيزة المعنى في قوله في رثاء جدته :

عرفت الليالي - قبل - ما صنعت بنا فلما دهتنا ، لم تزدني بها علما (٣)

وقوله :

وما استغربت عيني فراقاً رأيتيه ولا علّمتني غير ما القلب عالمه (٤)

وقوله :

فلا يتهمني الكاشحون ، فانني رعيت الردى حتى حلت لي علاقمه (٥)

وقوله :

اشفق عند اتقاد فكرته عليه منها .. أخاف يشتعل (٦)

وفي موضوع المال تراه يقول :

هم لأموالهم .. ولسن لهم والعار يبقى ، والجرح يلتئم (٧)

- ١ فيه نظر إلى قول الاعور : لقد أصبحت ما احتاج ، فيها
- ٢ قول الخزيمي لقد وقرتني الحادثات ، فما أرى
- ٣ قول طفيل وما أنا بالمستنكر البيزن ، انسي
- ٤ قول عدي بن الرقاع : وعرفت .. حتى لست أسأل عالماً
- ٥ قول القائل وفارقت حتى ما احن إلى هوى
- ٦ قول ابن الرومي أخشى عليه اتقاد الفكر ، لا حذرا
- ٧ قول حطايط بن يعفر : ذريني اكن للمال ربا ، ولا يكن لي المال ربا .. تحمدي غبه غداً

ويستخلص منه :

فأنجم أمواله في النحوس وأنجم سوءه في السعود (١)
وينظر اليه في حال السلم والحرب :

فالسلم يكسر من جناحي ماله بنواله ، ما تجبر الهيجاء (٢)
وينقلنا موضوع المال إلى معنى بسط الكف والايثار ، فنسمعه ينظم
مثل قوله :

وعطاء مال . . لو عداه طالب انفقته في ان تلاقي طالبا (٣)
وقوله :

يتداوى من كثرة المال بالاقـ لال جوداً ، كأن مالا سقام (٤)
وقوله :

يا أيها المجدي عليه روحه إذ ليس يأتيه لها استجداء
احمد عفاتك - لا فجعت بفقدهم - فلترك ما لم يأخذوا اعطاء (٥)
وقوله :

لو اشتهد لحم قاريها ، لبادرها خرادل منه في الش: . واوصال (٦)

-
- | | | |
|------------------|-------------------------------|-----------------------------|
| ١ قول أبي تمام | طلعت على الاموال انحس مطلع | وعدت على الآمال وهي سعود |
| ٢ قول أبي تمام | إذا ما أغاروا واحتوا مال معشر | اغارت عليهم فاحتوته الصنائع |
| ٣ قول أبي تمام | وفدت إلى الآفاق من نفحاته | نعم ، تسائل عن ذري الاقتدار |
| ٤ قول ابن الرومي | ارى فضل مال المرء داء لعرضه | كما ان فضل الزاد داء لجسمه |
| | فليس لداء العرض شيء كبذلعه | وليس لداء الجهم شيء كبذلعه |
| ٥ قول أبي تمام | تعود بسط الكف ، حتى لو انه | ثناها لقبض لم تطلع أنامله |
| | ولو لم يكن في كفه غير روحه | لجاد بها ، فليثق الله سائله |
| ٦ قول ابن الرومي | لو حز من جسمه لسائله | أنفس أعضائه ، لما المسائله |

وقوله :

انك من معشر إذا وهبوا ما دون اعمارهم ، فقد بخلوا (١)

وقوله :

ولو يمتتهم في الحشر تجلدوا لأعطوك الذي صلتوا وصاموا (٢)

وقوله :

إذا اكتسب الناس المعالي في الندي فانك تعطي في ندادك المعاليا (٣)

وقوله معاكساً :

إذا طلبوا جدواك اعطوا وحكموا وان طلبوا المجد الذي فيك خيبوا

ولو جاز ان يحووا علاك وهبتها ولكن من الاشياء ما ليس يوهب (٤)

وقوله :

تظن من فقدك اعتدادهم انهم أنعموا ، وما علموا (٥)

قال صاحب الوساطة معلقاً : احسن وتناهى في الاحسان .

ولعل في هذه الشواهد والامثلة كفاية لايضاح معنى التطوير .. في

المعاني التقليدية .

-
- | | | | |
|----|---|-------------------------------|---------------------------------|
| ١ | فيه نظر إلى قول بكر بن النطاح | ولو خذلت امواله فيض كفه | لقاسم من يرجوه شطر حياته |
| ٢ | بكر بن النطاح | ولو لم يجز في العمر قدم لمالك | وجاز له الاعطاء من حسناته |
| ٣ | البحري | لجاد بها من غير شرك بربه | وأشركنا في صومه وصلاته |
| ٤ | أصل هذا المعنى إلى جابر بن حباب : وان يقتسم مالي بني ونسوتي | وإذا اجتداه المجتدون ، فانه | يهب العلا في نيله الموهوب |
| ٥ | وقد حوره ابو تمام | وانفج لنا من طيب خيمك نفحة | فلم يقسموا خلقي الكريم ولا فعلي |
| هـ | فيه نظر إلى قول الخزيمي | زاد معروفك عندي عظما | ان كانت الاخلاق مما يوهب |
| | | تتناساه ، كأن لم تأتاه | انه عندك محقور صغير |
| | | | وهو في العالم مشهور كبير |

وكذلك يفعل المتنبي في موضوع العيادة والمرض ، تأمل قوله :
لا تعذل المرض الذي بك ، شائق انت الرجال ، وشائق علاقتها
وقد فسرّه في البيت التالي :
ومنازل الحمى الجسوم ، فقل لنا : ما عذرها في تركها خيراتها ؟
وقوله ، وقد قرنه بمعنى السخاء :

قصدت من شرقها ومغربها حتى اشتكتك البلاد والسل
لم تبق إلا قليل عافية قد وفدت - تجديكها - العلل
وقوله :

يحشّمك الزمان هوى وحباً وقد يؤذي من المقت الحبيب
وكيف تعلّك الدنيا بشيء وانت لعلّة الدنيا طيب ؟
وكيف تنوبك الشكوى بداء وانت المستجار لما ينوب ؟
ويخرج هذا المخرج من الصنعة قوله في الفِصاد :

مددت في راحة الطيب يداً فما درى كيف يقطع الامل ؟
ان يكن البضع ضرّاً باطنها فربّما ضرّاً ظهرها القبل
يشقّ في عرقها الفصاد ، ولا يشقّ في عرق جودها العذل
وينهيها بقوله :

ارث لها ، انها بما ملكت وبالذي قد اسلت ، تنهمل
وكلّ هذا كان عندهم عبثاً محبباً .

ولا يقتصر اثر الصنعة على المديح ، فانك تراه أيضاً يقول في الغزل :

حسان الشنّي ، ينقش الوشي مثله إذا مسن ، في اجسادهنّ النواعم
ويسمن عن درّ .. تقلدن مثله كأنّ التراقي وشحت بالمباسم

ويقول :

شامية .. طالما خلوت بها تبصر في ناظري عيناها
فقبلت ناظري تغالطني وانما قبلت به فاهها
كل جريح ترجى سلامته إلا فواداً دهنه عيناها
تبل خدي كلما ابتسمت من مطر برقه ثناياها

يتصور بعض المستشرقين معناه انها إذا ابتسمت تطاير البصاق من
فمها على وجهه .. تأمل ، فماذا نقول لمثل هؤلاء ؟ (١)

ويقول :

كأنما قدما إذا انفتلت سكران من خمر طرفها ثمل
يجذبها تحت خصرها عجز كأنه من فراقها وجل

وهو يشبه قوله من ثانية :

أعارني سقم جفنيه ، وحملي من الهوى ثقل ما تحوي مآزره
فأي حبيب هذا الذي ينكت به هذا التنكيت ، لولا انها كلها محض
أخيلة شعرية ؟

١ ويتعرض الدكتور طه حسين إلى قوله :

ولقد بكيت على الشباب ، ولتي مسودة ، ولما وجهي رونق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفني اشرق
وهذا أيضاً من ذاك ، ومعنى قوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآماني إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه املا شرقت بالدمع ، حتى كاد يشرق بي
فيتساءل : كيف يشرق الدمع بالانسان ؟

ويقول في هذا الحبيب الخيالي :

مثلت عينك في حشاي جراحة فتشابهها .. كلتاهما نجلاء
نفذت عليّ السابري ، وربما تندقّ فيه الصعدة السمراء
هذه الجراحة التي قال عنها مرّة في مورد المديح متخيلاً :
إذا ما ضربت القرن ، ثم اجزني فكل ذهباً لي مرّة منه بالكلم

° ° °

لقد حاول هذا الشاعر - خاتم الشعراء بحق - أن يجعل شعره جماع
ما مرّ باللغة ... وأهلها ... من تجارب قديمة كالذي عهدنا من وضع
الاعراب وابداعهم ، وجديدة كالذي شهدنا من صنع الموالى واختراعهم .
هي تجارب طويلة مرّت بلغة الضاد - تمرّسنا بها في حديثنا عوداً على
بدء - كان بعضها في اعتبار رجال عصره شوائب وبعضها عندهم
حسنات ، تختلف في تقييمها معهم الآن .

تختلف في تقييمها معهم لأنهم آمنوا - وكفرتنا - بما كان على الشاعر
من التزام لطبيعة فنه في مذهب المديح ، ولذلك تقبلوا - ونرفض -
كل مستلزماته . ولئن كانوا هم أقرب بروحهم عهداً إلى ما استحدث
الموالى في الشعر العربي من تطوير وتزوير فانشروا له .. وأنكرناه ،
فإنهم أبعد صلة عن منابعه العميقة - لا في قوالب المعاني ، أو محتويات
الدواوين - بل في سرائر النفوس وسنن الحياة ... منّا .

ذلك ما قلته في مستهل الفصول - قبل اقتحام هذه الابواب الاثني عشر
إلى ابهاء مدامكه الفني - وهو ما اوطئ به الآن - ونحن داخله - لخاتمة
المطاف ...

الباب الثالث عشر

من شرفمة التاريخ

لغز استعص على الحمل في حياة المتنبي

الباب الخلفي لمداكه الفني

وماذا بقي بعد ..

.. لكى يضاف جديده هنا إلى حديثنا عن فنّ الشاعر ؟

بقي أمر « نسب » المتنبي ...

فان الابواب الاثني عشر ، التي اقتحمنا بها في هذا الكتاب أبهاء مدماك
أبي الطيب الفني ، انما ضمنت كشف النقاب عن انفراد هذا الشاعر بفنّه في
أدب العرب « ذروة » وحده .. لا تطاولها الذرى .

فهو - كما علّنا وفصلنا - لم يحاول أن يقف بفنّ القول حيث وقف هذا الفنّ عند سواه . . . « تعبيراً » فحسب ، وإن كان هو قد عبّر . . . فأحسن التعبير (لا على غرار غيره) . . . عن حياة « فتية » عاشها صاحبنا الالمى في القرن الرابع الهجرى ، من دنياهم على أحرّ من الجمر ، متقلّبا وسط اخلاط جيله متنقّلا بين أقرانه الملوك ، مرّ النفس صعب الشكيمة ، عاثر الحدّ بين أمسه وغده ، متملّلا ككبش الفداء ، تحت رحمة كلّ ساعة تمرّ به من دهره . . . في الانتظار .

ألم نردّد معه

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

* * *

ولست أبألى بعد ادراكى العلى أكان تراثا ما تناولت أم كسبا

* * *

أريد من زمنى ذا أن يبلغنى ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

* * *

وقت يضيع ، وعمر . . . ليت مدته في غير أمته ، من سالف الأمم

أتى الزمان بنوه في شبيته فسرّهم ، وأتيناها على الهرم

لا ، هو لم يقف بفنّ القول ضمن حدود الشعراء ، بل تغلغل بروحه النائرة وراءها - كما نتبيّن بوضوح ، من الابواب - حتى عاد هذا الفنّ في لغة الضاد عنده وكأنه « تفسير » لاحتفال من نوع آخر - أكبر من احتفالنا المعهود

بالحياة ، والمشهود أثره على السن الشعراء ، جيلا بعد جيل ، وأعمّ بكثير - هو احتفال الحياة « الأمّ » نفسها بنفسها ، وما تطوّره دائبا من الاحوال ، لبنيتها فوق وجه هذه البسيطة ، ولبناتها تحت اغوار مياهاها ، على ممرّ الاجيال .

فكلّ ما توصّلت اليه - اذن - من تلك الابواب الاثني عشر هو انى ضمنت كشف النقاب - لا غير - عن وجه هذه الحقيقة « النيرة » ، وهى السافرة أبدا في شعره - لمن يعى - رغم نقابها .

وبقى إلى الاخير أمر « نسب » المتنبي معلقا (١) .

* * *

ولذلك فأننى عندما أجلت داخل تلك الابهاء ما يسمونه « آخر لحظة » في خاتمة المطاف ، غداة الفراغ من تأليف الكتاب في ١٢ آب من العام الماضى ، كنت - في ذات الحين - أحس احساسا . . مشوبا بالعجز . . بأنى لم أهتمد بعد إلى جميع الجوانب الغامضة لهذه العبقرية ، التى تقف « فذة » في التاريخ العربى كله .

فقد بقى لسانها العربى المبين « يعرب » . . .

و « كلمة » في طريق ، خفت اعربها فيهندى لى ، فلم أقدر على اللحن

وكأنما هو يناشدنى من الغيب . . أما قد آن أن يسلّط النقد الحديث ضوء على « لغز » تاريخى ، ظلّ كالمعمّى في حياة صاحب هذا اللسان ؛ فطلما أغرى هذا اللغز بلحمه نهشا وايداء . . صغار النقّاد (ولهم في ذلك عذرهم) . ودوّخ بتلمّس التعليقات له . . كبار الشارحين ، كلمّا رأوه - في طوايا هذا الشعر

(١) راجع الفصل « صبى في المكتب » .

الذى سهرّوا على سبر غوره - يتناول عليهم ذهابا بنفسه . . واعترازا بمن
سأهم قومه .

وانى لمن قوم . . كأن نفوسنا بها أنف ان تسكن اللحم والعظما

* * *

لا بقومى شرفت ، بل شرفوا بى وبنفسى فخرت . . لا بجودى
وبهم فخر كل من نطق الضا د ، وعوذ الجاني ، وغوث الطريد

وهذا (كان عندهم) بلاشك يناقض . . الا على وجه وقع من الكذب
. . ولا يستقيم على أس ركيز ، مع ما لقنوه حول ظروف « زريّة » لنشأته
الاولى ، مما أفضى به المؤرخون جميعا - خلفا عن سلف - نقلا وحكاية عن
ادباء « ثقات » من معاصري الشاعر ، فظلتوا يكرّرونه . . بلسان واحد . .
طوال العشرة قرون الماضية ، من أنه كان . . . وضع الأصل ، خامل النسب
. . . ابن سقاء كوفانى (٢)

فكيف يتفق هذا مع ما تكشف لنا - بين سمع الزمان وبصره - من نفسية
صاحبنا ، وهو - كما خبرناه - أصدق صوت عربى عرفه عصره ؟
هذا هو اللغز الذى يقف أمامه التاريخ مبهورا .

* * *

ابن سقاء كوفانى . . .

كنت بينت - في حديثى عن المتنبى صبيّا كيف ان هذه الدعوة لم يردد

(٢) هذه العبارة بنصها وردت في شعر ابن لنكك . . . ومن ثم تناقلها الرواة !

صداها في التاريخ الا منذ عام ٣٥٢ بعد وقعة شعراء بغداد فيه باغراء الوزير المهلبى (لأن شاعرنا ترفع عن مدحه) ، وذلك قبيل سفره إلى فارس وكيف ان الدكتور عمر فروخ كشف وجه هذه المؤامرة الدنية - منذ قريب عندما تحقق أثناء مطالعته . . مصادفة . . ان « عيّدان السقاء » (بالكسر في الكلمتين . لا عبّدان أو عيّدان السقاء . بالفتح والتشديد) إنما هو لقب للشخص « حنين » الذى تعهد المتنبي طفلا .

فقد تأمر من تأمر من معاصريه - وفيهم العلويان (٣) - بالسكوت على (ان لم يكن الرضا ب-) تحويل « عيّدان السقاء » إلى عبّدان السقاء تعمية لنسب الرجل الحقيقى . الذى كان العلويان على بينة من امره منذ مولده عام ٣٠٣ .

وعجبا كل العجب أن يرجع إلى هذه المغالطة في التسمية (التى تواطأ عليها العلويان بالسكوت ، في آخر حياة الشاعر) الفضل الأكبر في « تنقيب » الاستاذ محمود محمد شاكر (٤) عن دخيلة هؤلاء المتأمرين . ثم الاهتداء إلى حقيقة نسب الرجل . . . بأنه علوى (من الاشراف) . فلولا هذه المغالطة لما كان هناك من داع مطلقا للتفكير في - بله تفنيد القوم ب- - خمول أصل الشاعر أو وضاعة

(٣) هما :

(١) ابو الحسن محمد بن عمر بن يحيى العلوى الزيدى ، ينتهى نسبه الى زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام ، ولد في الكوفة سنة ٣١٥ ومات ببغداد سنة ٣٩٠ ، وكان المتقدم على الطالبين في وقته والمنفرد في علو محله مع المال واليسار ، وكثرة الضياع والعقار . كان يعرف اسرة المتنبي .

(٢) القاضى ابن ام شيبان الحسن بن محمد بن صالح بن علي الهاشمى ، ينتهى نسبه الى عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . قاض ولد في الكوفة سنة ٢٩٣ ومات في بغداد سنة ٣٦٩ . وكان يعرف اسرة المتنبي في الكوفة .

وقد نقل عنها المحسن التنوخى . . ما يعلم من امره في كتب الناس . . وعن المحسن اخذ ابنه علي .

(٤) في البحث القيم الذى نشرته له المقتطف في عددها الخاص . . عن المتنبي . . عام ١٣٥٤ .

نسبه . مع أن تواطؤ من تواطأ منهم بالسكوت عليها — زيادة في التعمية . — انما كان يقصد به ان يغطى على مؤامرة سابقة أكبر منها نشأت مع ميلاد الشاعر (هـ) . واستمرت باستمرار حياته — هي التي تركزت عليها نظرة محمود الفاحصة أثناء التنقيب .

وقد أسدى الاستاذ شاكر لتاريخ النقد الأدبي يداً بيضاء ، بكشفه النقاب عن كبرى المؤامرتين ، ولكن . . . يقول الاستاذ شاكر . . . مستنجا . . . بعد تدقيق النظر في كل الترائن التي تتصل بهؤلاء من قريب أو بعيد :

« ووجه التضيئة عندنا هو هذا : تزوج رجل من العلويين — ولا جرم ان يكون من كبارهم — بنت جدة المتنبي ، فحملت منه ووضعت احمد ابن الحسين (وهذا الحسين هو غير عبدان السقاء) ، ولأمر ما أرغم هذا الرجل على طلاق امرأته وفراقها . ففارقها وطلقها فرجعت إلى أمها بجنينها أو طفلها ، وحزنت حزناً أهلكها فاستلها الموت وذهب بها ، وبقي الطفل وكفلته جدته . . . »

لا ، يا أخى محمود ! ، ان عبدان السقاء . . . كما تحقق للدكتور فروخ (من وجه المؤامرة التالية) ، هو الحسين هذا . . . الذى ينتهى نسبه إلى « جعفى ابن سعد العشيرة . » ، فهو الذى كان يتعهد المتنبي طفلاً في صغره — تحت ارشاد جدته الصالحة — ويتنقل به (كما تقول الروايات) في البوادي . . . حتى مات عنه صغيراً . ولكنه لم يكن أباه . فان أباه يقول الاستاذ شاكر :

« . . . وبقي الطفل وكفلته جدته . . . ثم صرحت له بحقيقة أمره وصحيح

(هـ) سوف يمر بك قوله في الحبس :

وقيل : عدوت مل العالمين بين ولادى وبين القمود
الذى نفهم منه بوضوح انه نكب بما نكب به . . . وكان مصدر شقائه . . . منذ ولادته

نسبه . . . وحذرت الفتى من عواقب التصريح بنفسه . . . حتى كان من أمره ادعاؤه العلوية بالشام فقبض عليه فاضطر إلى الاخلاص والتسليم . وحرص على أن يطيع جدته . . . »

إلى آخر حياته .

هذا الوالد العلوى الذى لا يخجلنا شك — مع الاستاذ محمود شاكر — فى أنه كان من كبار القوم ، والذى ظل أمره مع ذلك مكتما الا عند القلة الذين خالطوه ، ومجهولا لدى معظم الناس ، لا يمزق داجى ليله بصيص من نور ، طوال ذلك العصر الخبيث الطويى المشتت الأهواء هذا العلوى . . . من تراه يكون ؟

* * *

سؤال . . .

. . . إذا وضعناه بهذه الصورة . . . تبين لنا وجه الجواب او كاد . . . فعندى أن علويًا بعينه هذا شأنه ، يحلّ لنا . . . من حياة المتنبي . . . كل ما يعتقدونها من متناقضات . من دخوله كتاب اشراف العلويين فى الكوفة أول الأمر . . . ثم ادّعائه العلوية بالشام . . . وطول تكتّمه بعد ذلك على نسبه واخفائه جهده من أصحاب اللسنة المنتقلة بين الرجال . . . هذا العلوى ليس إلا . . .

ليس فى التاريخ الاسلامى سوى شخصية واحدة اسدل الزمان حولها ستارا كثيفا من التكتّم ، بحيث لا نعى من أمرها رشدا . فكلّ ما يعلم من أمر صاحبها هو انه عندما ولد شاعرنا (احمد لأبيه العلوى هذا) كان عمره (العلوى هذا) آنثى ٤٧ سنة ، واسمه محمد .

(قد جاء فى بعض الروايات هذا الاسم مقرونا باسم المتنبي — فى سلسلة نسبه — كأبيه ، ثم لبس الامر بادخال التضليل فى النص من ناحية أخرى . . . كما

سترى . . . وكذلك جاء في هذه الروايات اسم أبى محمد هذا منصوفا عليه باسم « الحسن » جدا للمتنبى ، ثم لبس الامر من أطرافه ، ولم يترك على وجهه . ابتغاء التضليل . (٦)

هذه الشخصية . . . في احتجاجها الذى فرضته عليها ظروف ذلك العصر ، عن أعين وشاه الدولة ومن يخشى بأسهم من الدائلىن . . . لاسباب سياسية أول الامر ، ومذهبية بعد ذلك . . . ما كان لها أن تظهر لشئونها كما يظهر الناس ، ولا أن تتصرف في حياتها كما يتصرفون ، ولا ان تتباشر بأيامها كما هم يفعلون . . . حتى ولا أن تتزوج مثلهم جهارا ، لولا أنها كانت تحمل بين جنبها قلب انسان يخفت مثل خفقان قلوبهم . وتعصف بها في الغيبة الطبيعة البشرية ، فترضخ لها كارهة . . . الا أن شرفها الرفيع ما كان يسمح لها أن تعيش - في الغيبة - الا كما عاش آباؤها . . . الطيبون الطاهرون .

وحصل القران بين بنت جدّه المتنبى وهذا العلوى ، لا على أساس مراسيم الزواج كما هو معهود عند الناس في حفلات الاعراس بالزغرودة والغناء . وإنما بحبس الانفاس على سنة الله ورسوله تحت ستار الخفاء . . . وهكذا كان . . . نتيجة لهذا القران . . . مولد شاعرنا احمد في الكوفة عام ٣٠٣ .

ما كان لعشيرته الا قريبين في مثل هذه الظروف أن ينفضوا يدهم من الطفل - وأبوه في الغيبة - حتى ولو كانوا للقران . . . وكلّ ما أعقب القران . . . من الكازهين ، فالطفل هو ولدهم سرعا وابن عمّهم لحّا . فتعهدوه على مضض

(٦) جاء اسم المتنبى مسرونا باسم ابيه محمد . . . أو بجده . . . في روايات مختلفة ، ثم تعاورت نسبة التسمية من نواحي

قالوا : هو احمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفى
احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفى
احمد بن محمد بن الحسين بن عبدالصمد الجعفى
الخ .

وهم يريدون (من جدته وغيرها) بأن لا يعرف هو ولا الناس من أمر قران أبيه في الغيبة شيئا . . . والا فسد عليهم ما هم ماضون في سبيل اصلاحه . وهجم عليهم سقف البيت وانهار من أساسه .

فكان من أمر المتنبي — بعد — ما كان .

* * *

لما صمّم المتنبي على المجاهرة بعلويته . . . وطلب حقه (هما حقان . . حقه في العلوية ، وحقه بالعلوية) هذا الحق الذي هو شعار كل علوى يعرف قدر نفسه ، ولباه من لبّى من بنى عدى وبني كلب وسواهما من القبائل في بادية السماوة ترصد له العلويون شيعة أبيه . وسعوا في تلافي الامر الذي فرط زمامه من يدهم خشية أن تتوخم العاقبة .

فقبض على « الداعية » في قرية يقال لها « كوتكين » . واعتقله ابن على الهاشمي أمير حمص (من قبل محمد بن طغج الاخشيد) جاعلا في رجله وعنقه خشبتين من خشب الصفصاف . وقد قال فيه المتنبي :

زعم المقيم بكوتكين بأنه من آل هاشم ابن عبد مناف
فأجبتة : مذ صرت من أبنائهم صارت قيودهم من الصفصاف (٧)

كان ذلك والمتنبي بعد صبي ينهج بين العقد الثاني والثالث من عمره .
وقد كان الذين حبسوه — بعد القبض عليه — يعرفون جلّية أمره . فلولا ذلك ماناشد الوالى ، بعد أن طال عليه الحبس . قائلا :

(٧) قيودهم اى قيود ابنائهم ، ولا ادرى كيف غاب عن الناس هذه الاشارة من المتنبي . . صراحة . . الى علويته . مادام هو قد جعل نفسه من ابنائهم .

بيدى ، أيها الأمير الأريب لا شيء ، إلا لأنى غريب
أو لأمّ ، لها - اذا ذكرتنى - دم قلب ، بدمع عين يذوب
ان أكن ، قبل أن رأيتك ، أخطأ ت ، فانى على يدك أتوب
عائب عابنى لديك ، ومنه خلقت . في ذوى العيوب . . العيوب
فالإشارة هنا إنما هي إلى جدته .

وأقل ما يقال في هذه المناشدة هي أنها من علوى . . يعترف بخطئه في المجاهرة
بالدعوة والخروج على السلطان . . امام علوى ، تواطأ مع « قومه » على كتمان
أمر نسب الصبي . . لغرض في نفوس القوم .

وعرفانهم بمقامه هو الذى جعلهم يوصون السجّان . . ابادلف بن كنداج . .
به ، وهو معتقل بجمص . فمّا قال شاعرنا وقد أهدى اليه أبودلف هذا
هدية :

أهون بطول الثواء والنلف والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت بركبى والجوع يرضى الاسود بالحيث
كن أيتها السجن ! كيف شئت فقد وطئت للموت نفس معترف
معترف بماذا ؟ . . غير الصبر على ما نزل به من الحدّثان .

لو كان سكناي فيك منقصة لم يكن الدرّ ساكن الصدف
ويطول اعتقاله عامين كاملين . . ولا يخرج من المعتقل الا بعد أن يشهد
على نفسه - كما زعموا - ببطلان الدعوة . وهل تبطل - عند الله أو عند الناس -
لمجرد أن « قومه » أرادوا منه ذلك مغالبة ؟ وهم يزعمون بعد انّه أخذ عليه

الاقرار مرتين . ولا نرى في ضوء تلك الاحداث ما يدعو إلى نفي وقوعه . ولعل القصيدة

أيا خدد الله ورد الخددود وقد قدود الحسان القدود

التي بعث بها إلى الوالى الاخشيذ استعطافا . وفيها البيت

وقيل : عدوتُ على العالمين بين ولادى وبين القعود (٨)

لم تكن الا بعد اقرار أول ، ملافاة لهذا الحجر - الذى طال عليه أمدّه - فى الاعتقال ، حتى بعد الاقرار .

لقد اراد القوم ابطالها في سبيل غاية جلى ترصدوا لها - وخانتهم - في عصر متحاذل على نفسه ، فاسد الطوية ، تقاذفته الفتن من كل صوب . فلم يطل بهم - ولا به - الانتظار حتى وجدوا أنفسهم في التيه . ضلّت فيه بالسالكين المسالك وعميت بالسارين السبل . . نحن فيه حتى اليوم تائهون :

وبقيت دعوة المتنبي قائمة بالصدق في طوايا شعره . . لا يدحضها منطق .

* * *

لنعد إلى أمر والد المتنبي العلوى . . .

. . محمد بن الحسن ، الذى كان - آنذاك - يدين بامامته ، أثناء احتجاجه عن

(٨) سبق التنويه بهذا البيت ، راجع (٥)

الانظار (مما سموه « الغيبة الصغرى ») ، شيعه له (٩) منتشرون في كل بقعة من العالم الاسلامى . . من الهند وفارس حتى الشام . . ، مراغمة للدول الزمنية القائمة في أرجائه . . . وشتى اقطاره .

. . محمد هذا لم يكن لأحد من اوليائه اتصال به ، من قريب أو بعيد ،
الا عن طريق الوكلاء

وكان أولهم ابا محمد عثمان بن سعيد وقد بقى على وكالته من عهد الامام السابق
وكان الثانى أبا جعفر محمد ابن الوكيل السابق توفى عام ٣٠٦
وكان الثالث ابا القاسم الحسين بن روح النوبختى توفى عام ٣٢٦
وكان الرابع ابا الحسن على بن محمد السمرى توفى عام ٣٢٩

ولما حضرت هذا الاخير الوفاة سئل عمن يعهد اليه بالوكالة — عن الامام
الغائب — بعده . فتشهد طويلا ثم قال : لله أمر هو بالغه !
ثم أغمض عينيه ولفظ آخر أنفاسه .

وكان ذلك كما رأيت — عام ٣٢٩ ، وعمر المنتهى إذ ذاك ست وعشرون
سنة . وبموت هذا الوكيل بدأت ما يسمونه بـ « الغيبة الكبرى » للامام
المنتظر . . . حتى اليوم .

(٩) على أن هؤلاء لم يكونوا كل الشيعة . . المعروفين بهذا الاسم . فقد كان تفرق امرهم بعد
الامام الحسن (والد الامام الغائب) الذى كان توفى عام ٢٦٠ ، الى ٢٠ فرقة . . لم يكن
يدين بالامام الغائب منها الا فرقة واحدة هى التى يطلق عليها المسعودى — وكان لها معاصرا —
اسم القطيعية . ولكن مع تطاول الزمان ثبت امرها وحدها من بين تلك البقية ، فهى التى ينضوى
تحت لوائها الشيعة اليوم باسم « الاثنى عشرية » . . . منذ الغيبة الكبرى .

لمر ما كان من أمر المتنبي خلال هذه الفترة .

كان المتنبي - كما سبق - معتقلا ، (لابتداءً عن علم هؤلاء الوكلاء ، ان لم بأمرهم) عامين كاملين ٣٢٤ - ٣٢٥ .

ويخرج من المعتقل فيضرب - كما روينا في غير مكان (١٠) - في الآفاق حين جديد .

وإثناء ما هو ينتقل في ربوع الشام يرد عليه كتاب لجدهته البليلة من الكوفة تستجفيه (كذا) فيه ، وتشكو شوقا اليه ، وطول الغيبة عنها . . .

ولا يغيبن عنك هنا دلالة تاريخ هذه الرسالة من جدته ، فقد حررتها اليه عام ٣٢٩ . أفلا يدلنا ذلك على أكثر من شيء تبطنه الرواية ولا يصرح به التاريخ ؟

أما العلويون - اصحاب الامام - فقد كانوا يبتوا أمرهم في الكوفة هذا العام على خطئة ، وضعوا لها يومها - نهجا . . . وقبض الله لها - بعد - نهجا آخر . فما كان يسعهم (وهم في فاتحة العهد) ان يسمحوا لأحمد بن الحسين الملقب بعبادان السماء (هكذا أصبح يعرف صاحبنا عندهم منذ الآن) ان يدهمهم بمجيئه في هذا الظرف الدقيق ، فيزيد الموقف حراجة وتحدجا .

فحزموا أمرهم على منعه من دخول الكوفة - لأسباب تعقل في ضوء ما بينا - ولو اقتضى الأمر اغتياله في الطريق (١١) . وفطن المتنبي - الفتى المنكود الطالع في قومه . . من نسبه - إلى ما يبتوا له ، فتتكب الطريق عن الكوفة إلى بغداد . ومن هناك أرسل رسالته ، التي تنبئ بسلامة وصوله ، إلى جدته .

وتأمل الآن ما تقول الرواية عندما وصل هذا الكتاب إلى جدته :

(١٠) راجع الفصل « تقصيد القصائد عند المتنبي » .

(١١) وكم قامت محاولات لاغتياله - كما سترى - على يد عبادهم في كفر عاقب وطبرية وغيرها ، حتى بعد هذا التاريخ .

« . . . فقَبَّات الكتاب ، وَحَمَّتْ لوقتِها سرورا به ، وغلب الفرَح على قلبها . . . فقتلها » .

أفتظن أى إنسان ينتظر قدوم غائب عليه ، وهو من اشتياقه — طيلة الوقت — بين سؤال يكرّره وتعليل يردّده ، ثم يوافيه الخبر القاطع أخيرا بأنه قد تنكَّب الطريق عن منزله إلى بلد آخر ، يسرّ بذلك . . . سرورها ، أو يفرح بخبر الغائب هذا . . . ذلك الفرَح القاتل ؟

لا ، ليس في كلّ هذا ما يفرح أو يسرّ . . . وانما الذى كان هو ان جدّته كانت تترامى إليها أنباء مقتلِه على يد المتربّصين به . فلما وافاها الخبر بسلامة وصول ابنها إلى بغداد — بخطّ يده — متحدّيا الموت نفسه ، سرّت ذلك السرور به . . . بحياته . . . واخذت عند وصول الكتاب — كما جاء في الحديث .

تعجّب من خطّى ولفظى ، كأنها ترى بحروف السطر أغربة عصما لأنها كانت قد قطعت أملها منه ومن بقاءه على قيد الحياة .

وتلثمه . . حتى أصار مداده محاجر عينيها ، وأنيابها ، سحما وهكذا غلب الفرَح على قلبها . . . فقتلها .

تأمل قوله في المِثْية :

أتباها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سرورا بى ، فمتّ بها غمّا فاليأس انما كان من انقطاع أملها ببقائه على قيد الحياة ، والسرور هو ببقائه حيّا . وهذا هو الذى يبرر قوله بعد ذلك .

حرام على قلبى السرور (١٢) فأننى أعدّ الذى مانت به — بعدها — سمّا

(١٢) تذكر قوله هو في طريق الشام :

فلو أنى حسدت على نفيس لحدث به لذى الجد الثـمـور
ولكنى حسدت على حيّاتى وماخير الحياة بلا سرور؟

والآن ، اقرأ — ان شئت — هذه الرائعة التي رثاها بها مفعوجا . . . بيتا
بيتا . . . بامعان ، لتبين كل هذا بوضوح .

فان فضل جدته هذه الهمدانية على البلد (راجع المراثية) انما كان في الائتمار
. . . مع العلويين . . . بالكتمان على نسب ولدها ، خدمة منها للصالح العام ، وان
أدنى ذلك إلى التضحية بكل شيء .

ومع ذلك فلم تسلم من أذاهم ، فقد عاشت — طوال ايامها — على غرر .
يقول المتنبي وهو المصدق

بكيت عليها — خيفة — في حياتها وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما
خيفة من الاغتيال وحده ، أثناء ما كان هو قائما بثورته (العلوية) في البوادي (١٣) .

* * *

على أن العلويين — وقد طال حاديتنا عنهم — لا يجوز اطلاقا ان يكونوا كلهم
على خطة مدبرة ، ولا كانوا جميعا موالين لهذا البيت وحده ، فان ابناءهم
— كغيرهم من بني عزمتهم — كانت تجمعهم السلالة في جدتهم الا على أمير
المؤمنين على عليه السلام . وقد كان نسبهم يتفرع عن غصون عدة تبدأ فسى
الجدع ببني الحسن بن علي وبني الحسين بن علي . . . وحتى بني العباس بن علي .

(١٣) تأمل اشارته في المرنية الى هذه الثورة :

طلبت لها حظا ، ففاتت ، وفاتنى وقد رضيت بي ، لو رضيت بها ، قسا
فأصبحت استنى الفمام لقبرها وقد كنت استنى الوغى والقنا الصا
كان يستنى الوغى (على حد قوله) قبيل زجه في المعتقل ، فلم يطلق سراحه الا بعد اخذ
الشهادة عليه بنى العلوية عنه .

وكلّما نزلوا بالأبناء جيلا زاد الفرع تفرّعا وهم أولاء الذين كان يضجّ ذلك العصر بثورات القائمين منهم ايذانا بالحق ، ويرنّ برزايا المصروعين منهم ضحايا في سبيله ، وكلّهم في التاريخ من الدعاة العلويين (١٤) .

ويجب ألا ننسى أن الوضع السياسي في البلاد العربية في أوائل القرن الرابع (عندما كان شاعرنا يتلقى دروسه صبيّا في المكتب) كان يختلف كلّ الاختلاف عمّا آل اليه هذا الوضع بعد ربع قرن . فمند عاش العلويون وكل همهم أن يتترعوا زمام السلطة من أيدي الغاصبين . . . وكان يتركّز كلّ سخطهم - في مستهل القرن - على من يمثل هؤلاء من العباسيين . أما بعد ربع قرن من الزمان (في هذه الفترة التي هي موضوع حديثنا بالذات) فقد تمزّق شمل البلاد من أدناها إلى أقصاها ، وتفرّق نظامها بددا . فالبوّهيّون يذرّ قرנם في الشرق ، وبنو حمّاد يحاولون عبثا جمع الكلمة في الشمال ، والاختشيديون يستقلّون بالملك في الغرب ، والقرامطة يعيشون فسادا من الجنوب .

فلا غرو اذا خبت تلك الجذوة التي كان العلويون يشحنون بها الهمم ، وخمدت تلك الريح التي كانوا يعقدون عليها الآمال . وقد وقفوا من زمانهم على مفترق الطرق حائرين .

أما ما بدأ ينقص الدولة من اطرافها وينذر جامعتها بالويل ، في دسائس الفاطميين الذين بدأ سيلهم يطمر برشاشه من الميمنة ، وغارات الروم الذين أخذ طوقانهم يقصف بأذيته من الميسرة ، على قلب العالم الاسلامي الواهن ، فلم يستفحل خطبه على الناس الا بعد مضيّ ربع قرن آخر من الزمان .

هذا الوضع الذي لم يسبق للعلويين عهد به من قبل ما كان له الا أن يحدث في صفوفهم خورا وخلفا ، لا يرون لهم فيه من ورطتهم مخرجا . فظلّ منهم من

(١٤) راجع مقال الطالبين لابي الفرج الاصبهاني (صاحب الاغانى) وكان معاصرا للشاعر .

ظلّ على نهجه الثائر ، واختار آخرون الوقوف بجانب الخلفاء في بغداد تحاشيا لما هو أطم ، وعقد بعضهم آماله بالفاطميين ، وبقي بين هؤلاء وأولئك من أنكر الفتنة ، فأحب أن يعيش بعيدا عنها . . . بالمسألة والحياد .

ومن هؤلاء الاشراف الطاهر بن الحسن العلوى الذى كان نازلا بالرملة .

كان الطاهر هذا - وهو الحسنى - واقفا على جليّة امر شاعرنا . . مقدرا لموقفه . وان تأملا يسيرا في رواية محمد بن القاسم المعروف بالصوفي السدى نجدتنا كيف تلقى هذا الحسنى الشاعر ، وتسمّع إلى مديحه فيه ، جالسا بين يدي الشاعر ، ليدلى في أمر المتنبي بالحجّة القاطعة .

حدث ابو عمر عبد العزيز بن الحسن السلمي (١٥) قال :

سألت محمد بن القاسم المعروف بالصوفي : كيف كان سبب امتداح أبى الطيب لأبى القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العلوى ؟ فحدثني : ان الامير ابا محمد (ابن طغج) لم يزل يسأل أبا الطيب في كل ليلة من شهر رمضان ، إذا اجتمعنا عنده للافطار ، ان يخص ابا القاسم طاهرا بقصيدة من شعره يمدحه فيها . وذكر أنه اشتهى ذلك . ولم يزل أبو الطيب يمتنع ويقول . : ما قصدت غير الامير ، وما امتدح احدا سواه . فقال له أبو محمد : قد كنت عازمت أن أسألك في قصيدة أخرى تعملها ، فاجعلها في ابى القاسم طاهر . وضمن له عنه مئات دنانير . فأجابه إلى ذلك .

فقال محمد بن القاسم الصوفي : فمضيت أنا والمطلبى برسالة طاهر لوعده أبى الطيب . فركب معنا ابو الطيب حتى دخلنا عليه ، وعنده جماعة من أهل بيته اشراف وكتاب . فلما أقبل ابو الطيب نزل ابو القاسم عن سريره ، وتلقاه

(١٥) راجع ديوان أبى الطيب تحقيق عزام .

بعيدا عن مكانه مسلما عليه ، ثم أخذ بيده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها قاعدا ، وجلس بين يديه . فتحدث معه طويلا ، ثم أنشده وخلع عليه للوقت خلما نفسه .

قال عبد العزيز : حدثني أبو علي بن القاسم الكاتب قال :

كنت حاضرا هذا المجلس ، وهو كما حدثك محمد الصوفي . ثم قال لي : أعلم ، اني ما رأيت ولا سمعت في خبر ان شاعرا جلس الممدوح بين يديه مستمعا لمدحه غير ابى الطيب . فاني رأيت طاهرا تلقاه وأجلسه مجلسه ، وجلس بين يديه .

* * *

والآن . . ماذا أنشد ابو الطيب طاهرا هذا ؟ اذا شئت فاسمع :

أتاني وعبد « الادعياء » ، وانهم أعدوا لي السودان في « كفر عاقب

ولو صدقوا في جدّهم .. لحذرهم وهل في وحدي قولهم غير كاذب ؟

الادعياء . . الذين يدعون الشرف ، بنسبتهم إلى علي عليه السلام .

ثم يصدر صاحبنا حكمه في « العلويين » اطلاقا

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله فماذا الذي تغني كرام المناصب ؟

وما قربت أشباه قوم أباعد ولا بعدت أشباه قوم أقارب

أى لا تقرب الاواصر بين أشباه قوم (هم في الطباع « اباعد . كما تقرب الطباع بين أشباه قوم (هم في النسبة) أباعد .

إذا « علوي » لم يكن مثل طاهر فما هو الاحجة للنواصب

النواصب الذين يبغضون أمير المؤمنين .

فقد جعلهم - كما ترى - على قدم المساواة مع غيرهم ، ان لم ترفعهم
الفعال نفسها .

وهذا الاهتمام بقضية العلويين ، والقول الجارح فيما هم فيه يختلفون لا يمكن
أن يكون من انسان لا قدر له عندهم ، ولا من جاء يتطفل على مواعدهم .
ولا تنس أن أبا الطيّب يقف هذا الموقف بعد مضي أكثر من عشر سنوات
على دعوته العلوية ، ويجأر بها - ثانيا - جالسا في دست من ؟ أحد الاشراف
العلويين !!

فهل خطر لأولئك الرواة قط - عندما لبسوا علينا في أمر نسبه - أن يبينوا
لنا كيف جاز له أن يفعل هذا ؟ لولا أنه كان

ولم يمدح المتنبي - بعد ثورته العلوية - سواه من العلويين احدا ، . . . الا ما
كان من أمره مع رفيق صباه - محمد بن عبيد الله المعروف بالمشط - وكان
من أترابه ، فقد درسا معا في كتاب الاشراف . وكان يتعهد أسرة الشاعر في
الكوفة ويرعاه . فأنشده القصيدة التي يقول فيها .

يا ليت بي ضربة ، أتبح لها - كما أتحت له - محمد ها

أثر فيها ، وفي الحديد ، وما أثر . . في وجهه . . مهند ها

كان بذلك لقب المشط ، ويذكر فيها أياديه

له أباد إلى . . سابقة أعدّ منها . . ولا أعدّها

أعدّ منها أي أعدّ انا منها (على البناء للمجهول) .

انشدها أول رحلته إلى بغداد عام ٣١٨ . . في طريقه إلى الشام . وكان ذلك - كما
ترى - قبل ثورته بسنين .

لم يبق للمتنبى بعد هذا ، إذا سئل عن نسبه ، الا التكنم . وماذا يستطيع
أن يقول — والحال ما رأيت — غير قوله

وإذا خفيت على الغبيّ ، فعاذر ألاّ تراني مقلة عيباء
وقوله :

أبلو . . فيسجد من بالسوء يذكركني فلا أعاتبه صفحا وأهوانا
وهكذا كنت في أهلى وفي وطني انّ النفيس غريب ، حيثما كانا
وقوله :

أنا ابن من بعضه يفوق ابا البا حث ، والنجل بعض من نجله
ولنما يذكر الجلود لهم من نفروه ، وأنفدوا حيلة

* * *

أنا الذي بّين الاءله به الاقدا . ر ، والمرء حيثما جمعه
جوهرة . . تفرح الشراف بها وغصّة . . لا تسينها السفلة
وقد تردّد في شعره كثيرا ذكر الجلود ، فهو يقول مرّة . . بارض
نحلة ، (١٦) قرب دمشق ، متأهبا لثورته

لا بقومي شرفت ، بل شرفوا بي ويجادى علوت ، لا يجودى
وبهم فخر كلّ من نطق الضا د ، وعود الجاني ، وغوث الطريه

(١٦) في هذه القصيدة يرد قوله الشهير

ما مقامى بأرض « نخلة » الا كقام المسيح بين اليهود

* * *

انا في . . تداركها الله . . غريب ، كصالح في ثمود
والتأكيد منه هنا انما هو على معنى « الغريبة » ، وان اقترنت هذه الايات عند بعضهم بمعنى
ادعائه النبوة ، تفسير الما زعم الراون .

ويقول ثانية . . في مصر اثناء اصابته بالحمى

أرى الأجداد تغلبها كثيرا على الاولاد ، أخلاق اللثام

ولست بقانع من كل فضل بأن أدعى إلى جدّ مهمام

ويقول ثالثة في أرجان بين يدي ابن العميد

إذا الشرفاء البيض متوا بقتوه أنى نسب أعلى من الأب والجدّ

وهكذا إلى آخر حياته

وتلاحظ أنه يكرّر هنا - ولا يقول الا - ما قاله آنفا في مجلس طاهر بن

الحسن العلوى .

بقى أمر تسميته بالمتنبى . .

. . هذا الاسم الذى أصبح علما عليه ، حتى في حياته . .

وانما نشأت التسمية هذه على أثر تشويه غرض تلك الثورة التى قام بها في

سبيل - وبدافع من - علويّته ، وتلبّيس أمرها من قبل « المغرضين » . ولذلك

نجدها - في الروايات - مقرونة بها ومقحمة عليها اقحاما (١٧) .

(١٧) نستطيع ان نستجل غرضه في تلك الثورة في قوله الى « ابى عبدالله معاذ » ، وكان نازلا عنده
بالاذنية

أبا عبد الله مــــــاذ ! انى	خفى عنك فى الهيجا مقامى
ذكرت جيم ما طلبى ، وأنــــا	نخاطر فيه بالمهيج الجــــام
أمثل تأخذ النكبات منــــه	ويجزع من ملاقاته الحــــام !
ولو برز الزمان الى شــــخصا	لخضب ثمر مفرقه حــــامى
وما بلغت مشيتها الــــالى	ولا سارت وفى يدها زمامى
إذا امتلات عيـــــون الخيل منى	فويل . . فى التقيظ والمنام

وكان يمزله على ما شاهده من تهوره وعظم همة ، فخاطبه بهذه الايات .

وقد حاك الرواة حول هذا النكرة (ابى عبدالله معاذ الصيدوانى) . . وعلى لسانه . . قصة

واهية ، اختلقوها اختلاقا ، واحتفلوا لها بكامل طاقتهم الفنية ، وبنوا عليها ما ارادوه من

تعمية نسب المتنبى ، وتحويل القصد من دعوته العلوية الى الادعاء بالنبوة . . .

. . . وليس لها من اصل تاريخى الا هذه الايات .

وقد وردت في الصبح المنبي (عن بعض مصادره المفقودة الآن) عبارة غامضة بنص صغير ، مرتبها أكثر الأدباء غافلين . وهي تحمل في طواياها - لمن يمعن فيها - دلالة لها مغزاها حول ما نحن بصددده .

وهذه هي العبارة :

قال له بعض الأكابر ، وهو في مدينة السلام : أخبرني من أثق به أنك قلت : أنا نبي !

فقال : الذي قلته « أنا احمد النبي » . . .

وليس لجواب المنبي . . تبريرا لتلك الدعوة التي قام بها ثائرا . . ثم تحولت بعد إلى التهمة هذه . . من معنى يفهم ، الا على أساس ما كانوا يروون في عهده من احاديث حول المهدي المنتظر . . الذي يأتي فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا .

فالمتنبي هنا يدفع اراجيف التهمة الموجهة اليه بقوله : الذي قلته « أنا احمد النبي » (على الاضافة) أي أنا احمد (الذي وردت الاشارة اليه في حديث) النبي . (١٨)

وتلصق التهمة بشاعرنا ، فلا يسعه الا أن يردد

ان الكذاب الذي أكاد به أهون عندي من الذي نقله

فلا مبال ، ولا مداج ، ولا وان ، ولا عاجز ، ولا تكله

وطالما شوغب بها هو حتى في مجلس سيف الدولة .

قال له ابن خالويه النحوي يوما في مجلس سيف الدولة :

(١٨) ولعلك تستحضر قوله في آخر عمره عند توديع ابن العميد

فان يكن « المهدي » من بان هديه فهذا ، والا فالهدي ذا ، فإللهدي !
يعلنا هذا الزمان بهذا الوعد نخدع عما في يديه من النقص
هل الخير شيء ، ليس بالخير ، غائب ! ام الرشد شيء ، غائب ، ليس بالرشد !

لولا أن الآخر جاهل ، لما رضى ان يدعى بالمتنبي ، لأن « متنبي » معناه كاذب . ومن رضى ان يدعى بالكذب فهو جاهل .

فقال له : أنا لست ارضى أن ادعى بهذا ، وانما يدعوني به من يريد الغرض منى . ولست اقدر على الامتناع . ويقول الاستاذ عزام - في ذكره - معقبا : فلو ان الأمر كان معروفا ما استطاع ابو الطيب المكابرة فيه .

* * *

ويمرّ زهاء قرن على القضية . ويسأل عنها المعري فيردّ في رسالته الشهيرة - رسالة الغفران - قائلا :

... وحدثت انه كان اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب ، قال : هو من النبوة ، أى المرتفع من الأرض .

ثم يستمر قائلا :

وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه . وانما هي مقادير ، - يديرها في العلو مدير ، يظفر بها من وفق ، ولا يراع بالمجتهد ان يخفق ... والمعري هنا - كما ترى - يجمع ، ولا يصرّح ، بالحواب ... ولكنه أكيداً لا يقصد ادعاء النبوة .

* * *

ذلك هو أبو الطيب المتنبي في باذخ نسبه ...

احمد بن ... محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب .

نسب ... كأن عليه من شمس الضحى نورا ، ومن فلق الصباح عمودا فان تدعو الناس لآبائهم اقسط عند الله .

وقد لخص لنا الشاعر حياته في المقصورة التي أنشدها لنفسه بعد مفارقتها
كافور

لتعلم مصر ، ومن بالعراق ، ومن بالعواصم ، أنتى «الفتى»
وأنتى وفيت ، وأنتى أبيت ، وأنتى عتوت على من عنا
الوفاء هنا — كما يظهر لى ، ويفهم من السياق — بما كان قطعه على نفسه
من التكم في أمر نسبه ، ولذلك يعقب

وما كلّ من قال قولاً ، وفي وما كلّ من سيم خسفاً ، أبى
يشير بها إلى مالمقه في مجلس سيف الدولة

ومن بك قلب ، كقلبي ، له يشق إلى العزّ قلب التوى

يعنى بذلك اقتحامه المهالك عائداً من مصر

ولابدّ للقلب من آلة ، ورأى ، بصدع صمّ الصفا .

أفلا يذكرك هذا بقوله ، قبل عشرين عاماً . .

وما الجمع بين الماء والنار في يدى بأصعب من ان أجمع الجدّ والفهما . . .
رائيا جدته . فقد كان في الحالين يستعرض تجربة مرّت به ، ومحاولة فشل
فيها ؟

واخيراً :

وكلّ طريق أتاه «الفتى» على قدر الرجل فيه الخطا

هذا البيت الذى ذكروا أنه ضرب فيه مثلاً مبتدلاً . فهو يلخص لك — لو
أعدت النظر في سيرته ، على ضوء ما بيناه لك — رأيه في حياته تلك كلها .

رحم الله أبا الطيّب ، فما كان اصدقه حين أنشد سيف الدولة في ظروف
مأساته :

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا بأننى خير من تسعى به قدم
أنا الذى نظرا الأعمى (١٩) إلى أدبى وأسعت كلماتى من به صمم (١٩)
.. على صدقه .. رحمة واسعة ، ونفعنا بإيمانه .

الأربعاء ٢٧ آذار ١٩٦٣
الموافق غرة ذى القعدة ١٣٨٢
البحرين

(١٩) اعمى .. اعمى عن حقيقى ، به صمم .. صمم عن دعوى .

مراجع اضافية لهذا الباب خاصة

- ١ - عقيدة الشيعة — للمستشرق دونالدسون
- ٢ - مقاتل الطالبين — لأبي الفرج الأصبهاني
- ٣ - مروج الذهب — للمسعودي
- ٤ - رسالة الغفران — للمعري
- ٥ - خزانة الادب — للبغدادى
- ٦ - وفيات الاعيان — لابن خلكان
- ٧ - تاريخ الخلفاء — للسيوطى

خاتمة المطاف

ما للممتنبي وما عليه

... حسنات وشوائب يزخر بها ديوان المتنبي ، لما مرّ بنا من أسبابها ، ولكن فطرته العربية كانت أغلب ، فكان بالرغم من كلّ ما آخذه عليه الناس من حق وباطل ، أصدق صوت عربي أخذ من حضاراتهم السائدة بنصيب ، بعد أن فطمته روح البادية . بلى ! اسقطوا من ديوانه ما شئتم – ولن تستطيعوا – فستسلم له بعد الحكمة .. لا وحدها ، بل يدعمها هذا الأدب العالي ، وما أروع الحكمة إذا أوتيت منطق الفطرة الواعية (١) ، وزانها هذا الثوب القشيب هو نسيج وحده بين مطارف الفنون .

فلقد رأينا كيف أن نفسه الكبيرة كانت تتحلى بخصال – هي الزم ما تكون للملوك والزمعاء ، في كل عصر وزمان – من علو الهمة ، وكبرياء النفس ، والاعتداد بالقلب ، وعدم المبالاة ، وكان لا يقصر

١ راجع الفصل الثاني من « الشعر وقضيته في الأدب العربي الحديث » للمؤلف .

عنهم إلا في المال ، ويدلّ عليهم بالوفاء . وكان يزيد على ملوك عصره بعد ذلك في خلتين فاضلتين هما صدق القول وطهارة الازار ، نجم عنها جميعاً ما ظهر في « طريقته » الفذة من مميزات ، أهمها وأظهرها للعيان :

(أ) الصراحة الجارحة

(ب) دقة الملاحظة

(ج) الاستقصاء الفني في التمثيل

(د) نظرة الطائر

بالإضافة إلى (هـ) نجوى النفس والاستبطان .
مزودة كلها بالثقافة العميقة (١) ومدعمة بالفطرة الواعية . انما تشرف عليها جميعاً الفطرة الواعية .

وقد اشرفنا — في بحثنا الطويل — على مولده في مستهل القرن الرابع الهجري . فرأينا بلدته الكوفة . ورأيناه .. في أي ظروف نشأ وأي محيط كان يتقلب فيه . كما جلسنا معه في كتابيب اشرف العلويين . فتلقينا معه ما تلقى من مبادئ القوم . واستظهرنا معه ما استظهر من محفوظاتهم .

وفي هذه الاثناء تيسر لنا ان نلقي نظرة سارحة على العالم الاسلامي المترامي الآفاق ، الممزق الاوصال إذ ذاك — ما أشبه الليلة بالبارحة — فرأينا ما كان يسوده من قلق واضطراب ، ويكتسح ارجاءه من ثورات وفتن ، نشأ في وسطها هذا الصبي مع فتیان عصره الذين تشرب نفوسهم — منذ الصغر — بروح الثورة على هذه الاوضاع .

١ قال الحاتمي : حدثني من اثق به انه لما قتل المتنبي وجد معه ديوان ابي تمام والبحثري بخطه ، وعلى الحواشي علامة كل بيت أخذ معناه وسلخه ... (كذا) .

ورافقناه في هذه الرحلات الكثيرة التي قام بها ، متقلّباً بين ملوك عصره ، ساخطاً عليهم ، متبرماً منهم ، من بلد إلى بلد ، حتى استقرّ به المقام — فترة من العمر قصيرة ولكنها سعيدة — في كنف سيف الدولة ، حيث كان يخبئ له القدر « مأساة » جديدة ، بعد مأساته في جدّته .

وكنّا معه — قبل وبعد — حينما سار ، في الشام ومصر والعراق ، حتى اُقت بنّا معه عصا التسيار في ارض فارس ، وكانت هي رحلته الاخيرة .

تلك حياته .. حياة مليئة بالمغامرة .. انطوى آخر صفحات سفرها الحافل قبل ألف عام ، وهذا فنّه .. أيّ آية في الفنون هو .. نفتتح معرض لوحاته بعد ألف عام . وقد رأينا في هذه الدراسة لأول مرة ، على ضوء ما نظم صبيّاً ، تلك « الطريقة » الفذة التي كان يحاول شقها لنفسه حتى وهو صبي — تذكر ... سلك قلائده من الخيطين .. الملون والأبيض — تبين لنا منها انه ككل فنان أصيل كان يعيش لفنّه ، ولكنه لا يستطيع ان يستأثر بهذا الفنّ . فقد كان ينظم لعدّة جهات من المستمعين — بالاضافة إلى نجوى نفسه واستبطانها — استعراضها واحدة واحدة ، ولكنه كان فناناً « فذاً » .. ولا كالفنانين .. دخلنا معه إلى فنّه — قدس الاقداس — فرأيناه كيف يقصّد قصائده تقصيذاً ، لا يعلم الناس عناصر تكوينها ، لأنهم إنما يرون « المكنم » من مظهرها الملون — في اللوحات — وقد شرب فيه كلّ لون اخاه ، ويستطلعونها — بعد — للطرب ، وهي جاهزة .

ثم تبسّطنا في هذا المكرر من شعره (الزاخر بمعانيه) فانتهينا ، في عالمه النفسي — على ضوء بعضه — إلى ما انتهينا اليه ، من نظراته الخاصة التي كان ينظر بها إلى السواد الاعظم من الناس ، وموقفه الفردي الذي كان يقفه من ملوكهم واقياحهم ، عرفنا منها نفسه الحقّة ، واهتدينا

كنتيجة لذلك إلى تلك الصفات التي كانت تباده العيون ، ولا تراها العيون ، في كلّ شعره ...

تأمل قول ابي القاسم المظفر الطوسي . احد معاصريه ، يرثيه :

لا رعى الله سرب هذا الزمان إذ دهانا في مثل ذاك اللسان
ما رأى الناس ثنائي المتنبي أيّ ثان يرى لبكر الزمان؟
كان من نفسه الكبيرة في جيب ش ، وفي كبرياء « ذي سلطان »
هو في لفظه نبّي ، ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

... خلال ملكية عرفها ملوك عصره وعاداه لأجلها - وعادى هو
لأجلها - من عاداه منهم . وأحبّه بسببها - وأحبّ هو بسببها - من
أحب ، ندرك الآن حقيقتها ، وندركها على حقيقتها . فلم تكن غير
تلك « الخلائق » :

فلو كانت قلوبهم صديقاً لقد كانت خلائقهم عداكا

لا المال ولا الجاه ... اللذين ناله في حياته. منهما أكبر نصيب .
فأين عن هذا كان الشراح والناقدون ؟

قلت مرة : (١)

اعتقد ان شعر المتنبي سيبقى محكاً - ما بقيت لغة
الضاد - لمعرفة من ذوقه عربي أصيل . فلقد رأيت ديوانه
- بعد القرآن - ترتل أبياته ترتيلاً عند أهل البادية من
ساحل عمان . وهي الحالة الوحيدة التي وجدت فيها شاعراً
عربياً ترتل أبياته .

١ محاضرة المؤلف في الدورة الرابعة لمؤتمر الدراسات العربية للجامعة الأميركية ببيروت عام ١٩٥٤ .

والآن ... فلو سألنا أنفسنا ما مترلة شعرائنا - وذاك شأنهم - والمتنبّي خاصة وذاك شأنه ، من الشعر العالمي .. وبالاخص في طبقات « كبارهم » ، كان رائدنا في الجواب - على الاقل - بيتنا . فأمثال البحري عندهم . كثيرون وكذلك ابن الرومي . لا لن يقوم في الرفر من اوسط طبقات شعراء العالم إلاّ المعري وابو تمام . واخشى انه ليس في دنيا العرب من ذروة الذرى احد ... الا ان يكون المتنبّي وحده .

وليس ذاك لأنه يفصح بعدة ألسنة لـ « ذوات » تظفر منه بالخلق مثل شعرائها (١) ، وإنما لأن « الحكمة » عنده امتداد في الزمان ، بلا تعيين مكان ، لحكم سارٍ كالقضاء على الخلق ، تطبقه (في الغرب) الفنون عندهم - على مكان بعينه ، في زمنه الخاص - في المسرحيات .. بالتمثيل .

إن المتنبّي يقف مع « شيكسبير » و « هوميرو » جنباً لجنب ، لأن لغة الضاد ولدت فيه ابنها البكر ، فهو لسان غيبها المبين ، وسيد شعرائها على الاطلاق .

قال الاستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله عن سرّ النبوغ في الادب :

« نصيب الكلام الذي يكتبه النابغة الملهم في أوقات التجلّي عليه كأنّه كلام صور نفسه وصاغها أو كأنه قطعة من الحس جمدت في أسطر . ولا بُدّ ان تشعر كالحملة انها قدفت وحيّاً إذ لا تجدها إلا وكأنّ في كلماتها روحاً يرتعش . ولقد يخطر لي وانا أقرأ بعض المعاني الجميلة لذهن من

١ راجع الفصل الأول من « الشعر وقصيته في الادب العربي الحديث » للمؤلف .

الاذهان الملهمة كشيكسبير والمتنبى وغيرهما حين أنامل
اختراع المعاني وابداع سياقه وضحي البيان عليه واشراقه
به وما أتيج له من جلال ظاهر في شكل حيّ بسرّه في
النفس - يخيّل لي من ذلك ان سر الطبيعة القادر يعمل عمله
أحياناً بذهن انساني ليخلق تعبيراً عن جلاله في مثل
جلاله . »

ثم قال :

« وأنت فلو أخذت معنى من هذه المعاني الآتية من الالهام
واجريته في كتابة كاتب أو شعر شاعر من الذين ليس لهم
إلا اذهانهم يكذبونها وكتبهم يجعلونها أذهاناً أحياناً ... لرأيت
لفرق بين شيء وشيء في أحسن ما أنت واجده لهم على
نحو ما ترى بين زهرة حريرية جاءت من عمل انسان
بالابرة والخيط وزهرة أخرى قد انبثقت عطرة ناضرة في
غصنها الاخضر من عمل الحياة بالسماء والارض . » (١)

وحسب هذه الفصول ان تكون بمثابة « مقدمة » لدراسة كلام (٢)
هذا اللوذعي ...

اللوذعي الذي يظنّ بك الظنّ كأن قد رأى وقد سمعا
ما كان أحوجه اليها وأجدره بها ... منذ عصره ، وما اسعدني الآن

١ عن مقال له نشر في المقتطف ، وراجع أيضاً في كتابه « وحي القلم » مقاله عن شوقي .
٢ ان الشعر في اسمى حالاته لا يخرج عن كونه كلاماً .

وأدعاني إلى الفخر والتواضع في آن بهذا التوفيق النادر في وضعها
— على هذا التصميم من أساسها الصحيح ، وأسبابها الحقّة — بعد كل
هذه العصور .

هذا والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق .

تم الفراغ منه
يوم مولد النبي صلوات الله وسلامه عليه
الأحد ١٢ ربيع الأول ١٣٨٢
الموافق ١٢ آب ١٩٦٢
البحرين

الفهرست

٧	الاهداء
٩	كلمة لابدمنها
١٣	المتنبي بين شراحه وناقديه
٣١	المفتاح لتراث العرب الشعري
٥٧	الباب الأول-صبي في المكتب
٧٧	الباب الثاني-على ضوء ما نظم المتنبي
٩٤	الباب الثالث-لمن كان ينظم المتنبي
١١٠	الباب الرابع-تقصيد القصائد عند المتنبي
١٢٨	الباب الخامس-دلالة المكوّر من شعور المتنبي
١٦٠	الباب السادس-ملك بن الملوك
١٧٦	الباب السابع-الصراحة الجارحة
١٩٠	الباب الثامن-دقة الملاحظة
٢٠٦	الباب التاسع-الاستقصاء الفني في التمثيل
٢٢٣	الباب العاشر-نظرة الطائر
٢٣٣	الباب الحادي عشر-الفطرة الواعية
٢٦٥	الباب الثاني عشر-لغز استعصى على الحل
٢٨١	خاتمة المطاف-ما للمتنبي وما عليه

المراجع

•

القسم الاول

القرآن الكريم	القرن الأول للهجرة
نهج البلاغة	»
البيان والتبيين	من مؤلفات القرن الثالث هجري
حماسة أبي تمام	»
حماسة البحتري	حبيب بن اوس الطائي
الموازنة بين ابي تمام والبحتري	ابو عبادة البحتري
	من مؤلفات القرن الرابع هجري
كتاب الصناعتين	»
تاريخ الطبري	ابو هلال العسكري
كتاب الاغانى	»
ايضاح المشكل	ابن جرير الطبري
الوساطة بين المتنبي وخصومه	»
	ابو فرج الاصفهاني
	»
	ابو القاسم عبدالله الاصفهاني
	»
	علي بن عبدالعزيز الجرجاني

الابانة عن سرقات المتنبي
لفظاً ومعنى

ابو سعيد العميدي

من مؤلفات القرن
الخامس هجري

يتيمة الدهر

ابو منصور الثعالبي

»

نقد الشعر

قدامة بن جعفر

»

العمدة في صناعة الشعر

ابن رشيق القيرواني

»

مفردات الفاظ القرآن

الراغب الاصبهاني

»

أساس البلاغة

جار الله الزمخشري

من مؤلفات القرن

السادس الهجري

شرح نهج البلاغة

ابن ابي الحديد

من مؤلفات القرن

السابع هجري

تاريخ ابي الفداء

اسماعيل ابو الفداء

من مؤلفات القرن

الثامن هجري

تاريخ روضة المناظر

ابن الشحنة

من مؤلفات القرن

الحادي عشر هجري

الصباح المنبي في حيشية المتنبي

يوسف البديعي

»

أنوار الربيع في أنواع البديع

ابن معصوم

»

مختارات البارودي

محمود سامي باشا

من مؤلفات القرن

الثالث عشر هجري

العرف الطيب

ناصيف و ابراهيم اليازجي

»

القسم الثاني

ديوان ابي الطيب المتنبي ، تحقيق عبد الوهاب عزام
من مؤلفات القرن
الحادي

- » ذكرى ابي الطيب بعد
ألف عام
- » ديوان أبي الطيب
شرح البرقوقي
- » المتنبي ، عدد المقتطف
الخاص ١٣٥٤ هـ
- » مطالعات في الكتب والحياة
عباس محمود العقاد
- » ساعات بين الكتب
- » وحي القلم
مصطفى صادق الرافعي
- » الموازنة بين الشعراء
زكي مبارك
- » تاريخ النقد الادبي
عند العرب
طه أحمد ابراهيم
- » مع المتنبي
الروثوس
طه حسين
- » تاريخ آداب اللغة العربية
مارون عبود
- » تاريخ الادب العربي
جرجي زيدان
- » تاريخ العرب ، مطول
أحمد حسن الزيات
- » مستقبل الاسلام
فيليب حتي
- » محاضرات وتحقيقات
مالك بن نبي
- » فن المديح
عمر فروخ
- » أحمد ابو حاقه

المديح ، من فنون الادب مطبوعات دار المعارف بمصر من مؤلفات القرن الحالي
الغزل ، من فنون الادب »
و :

» **Prof. R. Blachere** ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين
البروفسور بلاشير (ترجمة أحمد أحمد البدوي)
» **Prof. L. Massignon** محاضرات وتحقيقات —
البروفسور ل. ماسينيون
» الادب العربي في آثار الدارسين الجامعة الاميركية بيروت

القسم الثالث

من كتب المؤلف في البحث والتحليل
الشعر وقضيته في الادب العربي الحديث (دار الكشف ، بيروت ١٩٥٥)
جولة في الشعر العربي المعاصر (دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٢)
الاساليب الشعرية (دار الاديب ، بيروت ١٩٥٠)
الشعر والفنون الجميلة (دار المعارف بمصر ١٩٥٢)

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
السنة النبوية الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

